عبد المجيد القدوري

# ابن أبي محلي الفقيه الثائر
## ورحلته الإصليت الخريت

منشورات عكاظ

عبد المجيد القدوري

# ابن أبي محلي الفقيه الثائر
## ورحلته الإصليت الخريت

إلى روحي والديّ

أصل هذا الكتاب رسالة جامعية نوقشت في كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط بتاريخ يونيو 1984 ونال بها المؤلف دبلوم الدراسات العليا في التاريخ بميزة حسن جدا وقد كانت لجنة المناقشة تتكون من الأساتذة

العربي مزين رئيسا

ومحمد حجي مشرفا ومقررا

وأحمد التوفيق عضوا

وقد أوْصَتْ اللجنة بأن تقوم الكلية بطبع هذا البحث .

# تقديم

الكتاب الذي يسعدني أن أقدمه اليوم للقراء عن ابن أبي محلي ورحلته إلى مصر والحجاز يعد من أحسن الرسائل الجامعية التي نوقشت ، منذ نحو سبع سنوات ، بقسم التاريخ من كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط يتركب الكتاب من قسمين متميزين ، الأول دراسة تحليلية نقدية لحياة الفقيه الثائر أحمد بن أبي محلي السجلماسي ، والثاني تحقيق رحلته المشرقية

إذا كان اسم ابن أبي محلي طافياً على سطح الكتابات التاريخية لم يكد يغفله أحد من مؤلفي كتب التراجم والمناقب والحوليات وغيرهم ، منذ عصره حتى اليوم ، فإن شخصيته ، مع ذلك ، ظلت معقدة غامضة تتجاذبها المتناقضات ، وتُطرح حولها التساؤلات وكذلك مؤلفاته التي بقي معظمها محفوظاً بين مخطوطات الخزائن العامة والخاصة ، ورجع إليها المؤلفون عبر الحقب مستقين منها المادة التي تهمهم ، مع ذلك لم تَرُجْ كتب ابن أبي محلي الرواج الذي تستحقه باعتبارها تتناول موضوعات حيوية شغلت أفكار الناس في ذلك العصر وأثارت جدلهم وفضولهم ، وسجلت ظواهر فكرية وروحية وتحركات سياسية ، دلت على حركية النشاط والفعالية ، ولو أن مفعولها ظل محدوداً ، وكشفت النقاب عن جوانب من علاقات العلماء بالمخزن السعدي

حاول الاستاذ عبد المجيد القدوري في هذا الكتاب تقريب شخصية ابن أبي محلي

إلى الأذهان عن طريق استغلال ما كتبه هو عن نفسه وما كتبه عنه الآخرون ، بتمحيص النصوص والتمعن في مدلولها منطوقاً ومفهوماً ، مع ربط ذلك بالظرفية العامة التي عاشتها البلاد قبل معركة وادي المخازن وبعدها ، وخلال حياة أحمد المنصور وبعد وفاته

وقد وفق إلى حد في استكناه عدد من الحقائق المتعلقة بابن أبي محلي التي لم يتعرف عليها أحد من قبل ، وفي الاجابة عن عدد غير قليل من التساؤلات التي طرحها حول مراحل نشأته وتعلمه وتصوفه ، ثم استقراره بالصحراء إلى أن أعلن الثورة وأجلى السلطان زيدان عن حاضرة ملكه مراكش

وفي القسم الثاني من الكتاب حقق المؤلف نص رحلة ابن أبي محلي التي تُكوِّن في الواقع الباب الخامس من كتابه **الاصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت** قارن بين مخطوطاتها الثلاث المتوفرة في المغرب وكتب تعليقات ضافية في الهامش موضحاً ما خفي من العبارات ، ومعرفاً بالاعلام والأماكن والكتب ، ومقارنا أو محيلا أو منتقدا عند الاقتضاء كل ذلك بأكثر ما يمكن من التحري والتوثيق ، والرجوع إلى المصادر المعتمدة العربية والأعجمية

وإذا كنت سأترك القارئ يكتشف الجهود المتجلية في مختلف فصول هذا الكتاب القيم ، فإني لا أضع القلم قبل أن أنوه مرة أخرى بجدية الاستاذ عبد المجيد القدوري في ميدان البحث التاريخي ، متمنياً له مزيداً من التوفيق والعطاء

محمد حجي

الرباط في 23 جمادى الثانية 1411 / 10 I 91

## الرموز المستعملة في البحث

| | |
|---|---|
| ا م | كتاب الاصليت ، النسخة المعتمدة (أنظر طريقتنا في التحقيق) |
| خ ع | الخزانة العامة |
| خ ح | الخزانة الحسنية |
| م | مخطوط |
| و | وجه الورقة في المخطوط |
| ظ . | ظهر الورقة في المخطوط . |

# تمهيد

تعتبر شخصية ابن أبي محلي شخصية معقدة صدرت في حقها أحكام متناقضة[1] ويبدو - كما سنوضح ذلك[2] - أن تكوينها لا ينفصل عن الأحداث التي عرفها المغرب والمشرق عموما ومنطقة الجنوب الشرقي المغربي على الخصوص ، وبالتالي فإن دراستها ستساعد على فرز عناصر بشرية أخرى ، تنتمي إلى جيل ابن أبي محلي ، وتعتبر بمثابة ضوابط مجتمع مغرب نهاية القرن السادس عشر ، ومطلع القرن السابع عشر[3]

قد نتساءل في البداية عن مغزى ثورة ابن أبي محلي هل هي مجرد حدث عابر ، ضمن مرحلة فوضى عرفها المغرب ، منذ وفاة أبي العباس المنصور الذهبي ، واستمرت زهاء نصف قرن ؟ أم أنها تندرج ضمن مد ثوري ، عم البلاد وسعى إلى هدم بني المخزن السعدي الاستبدادية ؟

لقد نشأت الدولة السعدية معتمدة على الزعامة الروحية ، ومتخذة في منطلقها استراتيجية الجهاد لكنها سرعان ما تخلت عن هذا المسار بلجوئها إلى ضرب

(1) لا يذكره الناصري مثلا إلا إذا ذكر عبارة عفا الله عنه وأما (J.Berque) فإنه يرى فيه العالم المنظر

(2) انظر بالخصوص القسم الأول من الباب الأول

(3) نقصد كل الذين ساهموا في هذه الأحداث ، ونذكر على سبيل المثال يحيي الحاحي ، وأبا مهدي عيسى السجتاني .

وإضعاف النظام القبلي وهكذا أصبح مبتغاها الأساسي هو الدفاع عن السلطة ، والمحافظة عليها ضد أي احتجاج داخلي وعوض الجهاد لجأ بعض أمرائها إلى التعامل مع الأجانب ضد هذا الاحتجاج(4) كما عملوا على خلق جيش ارتبط أساسا بالنخبة الحاكمة ودافع عن مصالحها ولم تتردد هذه الأخيرة في استخدامه في دَسِّ البوادي من أجل إضعاف البنيات القبلية وتفكيكها(5) لأجل هذا تعتبر ثورة ابن أبي محلي مجرد حلقة من هذا المد الثوري العام

تتميز هذه الثورة بخصوصيات نذكرها في الملاحظات التالية

**أولا** لقد سبقت بوفرة في التأليف (أنتج ابن أبي محلي حوالي ألف ورقة في أقل من خمس سنوات) لاشك أن لهذه الكثافة في الانتاج علاقة بكثافة الأحداث

**ثانيا** ربما كانت ثورة ابن أبي محلي الفاشلة تجربة اهتدت بها واستفادت منها حركات لاحقة(6)

**ثالثا** ساد الاعتقاد عند بعض أتباعه – لمدة طويلة – بأنه لم يمت ولكنه سيعود(7)

يمكن التمييز فيما بين الكتابة التقليدية حول ابن أبي محلي والمحاولات الحديثة يظهر أن الكتابة التقليدية قد تأثرت بطريقة أو بأخرى بما تركه الحسن اليوسي عن ابن أبي محلي حين تكلم عنه في موضوع «وسواس المهدوية(8)» لقد هاجم اليوسي مدعي المهدوية لأنهم – في رأيه – لا يريدون إلا الوصول إلى السلطة

(4) توجد أمثلة كثيرة في هذا الباب ، ونكتفي بالاشارة إلى تسليم المامون العرائش لاسبانيا ، والذي كان أهم تبرير لقيام ثورة ابن أبي محلي

(5) بقي هذا النظام متينا إلى غاية القرن XV

(6) بالخصوص حركة العلويين التي انطلقت من نفس المنطقة إلا أنهم اتخذوا استراتيجية مغايرة

(7) قال القادري في هذا الموضوع «ولم يصدق من بقي من شيعة ابن أبي محلي بقتله واستمروا على ذلك مدة ، وربما بقي من يزعم أنه اختفى في بعض المغارات للتعبد إلى أن يخرج وهم في انتظاره ، وربما بقي منهم فرقة إلى الآن»
القادري ، نشر الثاني ، 1 107 – 108 تحقيق أ محمد حجي ، وأ أحمد التوفيق 1977 – 1982 مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر

(8) حسن اليوسي ، المحاضرات (105 – 107) تحقيق محمد حجي ، وأحمد الشرقاوي إقبال الرباط 1976 . مطبوعات دار المغرب الاسلامي بيروت 1982 في جزئين .

وبالمناسبة فإنه قد مجد أبا بكر الدلائي على حساب ابن أبي محلي وهذا أمر عادي(9) وسقط الذين كتبوا عن ابن أبي محلي ، اعتمادا على ما تركه اليوسي ، في النقل والتكرار لأنهم اتخذوا مرجعا واحدا(10) ، ماعدا المؤرخ المجهول الذي اعتبر ثورة هذا الأخير ، عقابا من الله ، أنزله على الأمير زيدان الذي تخلى – في رأيه – على مسؤولياته راكنا إلى تضييع الدين والبلاد وقد عبر عن هذا الموقف بقوله «فعاقبه الله (يقصد زيدان) في دنياه بأن سلط عليه ثائر الصحراء الفقيه أبا العباس أحمد بن أبي محلي(11)»

وأما الدراسات الحديثة(12) فقد تميزت بتناولها لثورة ابن أبي محلي من زوايا مختلفة وفي إطار الاشكاليات التي انطلقت منها وحاولت أن تعالجها فقد رأى البعض أن الثورة تدخل ضمن صراع الزوايا سواء تعلق الأمر بالصراع الذي خاضته فيما بينها أو ذلك الذي واجهت فيه السلاطين وأن الغاية الأساسية من هذه الثورة هي الاستيلاء على الطرق التجارية والوصول إلى الحكم(13) لم يهتم العربي مزين بهذه الحركة إلا من زاوية ضعف وغياب السلطة المركزية عن منطقة تافلالت فهو يقول «يطرح ظهور حركة ابن أبي محلي في كل من الساورة ،

(9) أورد اليوسي أساطير كثيرة في حق ابن أبي محلي ، ونقلها عنه من جاء بعده
- قصة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أبي بكر الدلائي وابن أبي محلي
- قصة صياح ابن أبي محلي غيرما مرة «أنا سلطان ، أنا سلطان ، أنا سلطان»
- قصة الفقراء الذين زاروه في قصر الخلافة بمراكش تتمحور كل هذه الأساطير حول شغف ابن أبي محلي بالسلطة وقد لخص اليوسي فكرته بقوله عن مدعي المهدوية «ولكن قد يكون السبب الحقيقي ، وهو الأغلب دسيسة دنيوية ونزعة شيطانية» اليوسي المصدر السابق ج 1 ، 107

(10) أنظر التشابهات الواردة عند
اليوسي ، المصدر السابق 105 107 توفي اليوسي عام 1691
القادري ، نشر الثاني ، 1 107 108 توفي القادري عام 1773
الناصري ، الاستقصا ، 6 30 34 توفي الناصري عام 1893
ابن ابراهيم ، الاعلام ، 2 83 - 89 توفي ابن ابراهيم 1959
يمكن حشر الكتابة الأجنبية التي اعتمدت هذه المراجع أو مراجع أخرى نقلت عن اليوسي (كالوفراني مثلا) ضمن الكتابة التقليدية

(11) لاشك أن ثورة ابن أبي محلي كانت تستجيب لموقف المؤرخ المجهول العدائي للسعديين لذا تكلم عنه بنوع من التقدير
انظر تاريخ الدولة السعدية التاكارتية لمؤرخ مجهول ، نشر كولان :101

(12) نقصد بالدراسات الحديثة ، الدراسات الصادرة منذ 1967

(13) وقد عُبر عن هذه الفكرة بهذا القول
«لم تكن مغامرة ابن أبي محلي إلا صورة مشوهة للمرابط الحقيقي ، لأنه كان يتظاهر بالولاية من أجل تبرير طموحاته الشخصية»
Brignon (J) et autres. Histoire du Maroc. P. 227 Hatier. 1967.

وتافلالت مشكل غياب السلطة المركزية» ثم يتساءل فيما بعد عن طبيعة السلطة التي نشأت على إثر الفراغ فيما بين الشيوخ وابن أبي محلي(14)

لقد تناول محمد حجي بالدرس وفي مناسبات كثيرة شخصية ابن أبي محلي، إلا أنه لم يهتم به إلا من المنظور الذي حدده لنفسه، نعني الجانب الفكري(15)

عرف (D. Jacques Meuniè) بابن أبي محلي معتمداً في ذلك على المصادر الأجنبية والمراجع المغربية المترجمة إلا أن عملَهُ الضخم كان يتجاوز حركة ابن أبي محلي(16) لعل أهم محاولة حديثة، سعت إلى التعرف على هذه الشخصية من الداخل، أي الاعتماد على بعض مؤلفاتها وعلى مناهج حديثة، هي تلك التي قام بها (J. Berque) لقد نجح هذا الأخير في اعطاء نظرة مغايرة عن ابن أبي محلي فهو في رأيه «عالم منظر تجاوز بنقده وعلمه معاصريه(17) إلا أن (J. Berque) لم يهتم بابن أبي محلي إلا في إطار إشكالية عامة لخصها بقوله «أعتقد أن الوقت قد حان لتأليف كتاب عن معارضي الشرفاء وهذا ما سأحاول رسمه في هذه الفصول(18)» وبسبب هذا الاختيار نلاحظ أنه كان لا يأخذ من مخطوطات ابن أبي محلي إلا الأفكار التي تزكي أطروحته وبالتالي كان يسقط أحيانا في تعميمات وتركيبات سريعة قد تتناقض ومنطق النصوص التي كانت تؤخذ منها رغم الملاحظات المعبر عنها في حق هذه التآليف، تبقى الاستفادة منها جد كبيرة

لقد حاولنا أن نتعرف على ابن ابي محلي من خلال قراءة المخطوطات التي ترك، والتي لا زالت موجودة، وقد سعينا إلى التعامل مع خطابه كبنية متراصة، متكاملة تتوفر على منطق خاص بها لا كمجموعة خانات متراخية آخذين منها - كلما دعت الضرورة في التحليل إلى ذلك - ما نحتاجه من عناصر لنقابلها أو لنقوم بمواجهتها مع معلومات ربما توجد خارج بنية الخطاب نفسه، علما منا بأن إنتاج هذا الأخير لا ينفصل عن انتماء المؤلف الاجتماعي والفكري

كما تعاملنا بنوع من الحرية مع المتن فلم نكتف بالظاهر فيه بل حاولنا أن ننفذ إلى عمق النصوص، مستعينين في / وعلى ذلك بما توفره مناهج العلوم الاجتماعية

(14) L.Mezzime : Le Tafilalt,contribution à l'histoire du Maroc au XVIe et XVIIIe Siecles, p 286-290. publication de la faculté des lettres à Rabat, 1987 p 286-290.

(15) د محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين
منشورات دار المغرب للتأليف ج 1 31 33 - 246 و ج 2 ؛ 265 وما بعدها

(16) D Jacque Meuniè, le Maroc Saharien des origines à 1670. Paris KLINCKSIEK 1982 En 2 T.

(17) Jacques Berque Ulemas, Fondateurs, INSURGES du Maghreb XVII siècle P. 80. SINDBAD Paris 1982.

(18) نفس المصدر ص 223 .

الحديثة كاللسانيات ، والسميائية ، والانطروبولوجية الثقافية وغيرها كثير ربما نكون قد تعسفنا على النصوص أحيانا أو أخطأنا أحيانا أخرى ، فنحن على وعي بذلك ، لكن المغامرة – في نظرنا – جديرة بالمحاولة

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد

والسلام على من [illegible] عليه من [illegible] والصلاة والسلام [illegible]

[illegible] لا [illegible] انه [illegible] من [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ومن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ثم بعد بسم الله الرحمن الرحيم [illegible] [illegible] [illegible] والصلاة [illegible]

يقول أحوج عبيد ربه [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] و[illegible] احمد بن محمد

الله بن القاضي [illegible] [illegible] المكناسي [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] وصلى الله وسلم على سيدنا محمد [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

# القسم الأول

# في البحث عن جذور ثورة بن أبي محلي

الفصل الأول

# أزمة وأبعاد

## 1 توالي القحط على البلاد أو ظرفية الأزمة

ظاهرة الأزمات وتكرارها كثيرة في تاريخ المغرب[1] ، كانت معاناة المغاربة منها خلال القرن x هـ/ XVI م صعبة ، لكن أزمة نهاية هذا القرن فاقت كل سابقاتها على حد قول ابن أبي محلي ففيها «تغلى الأسعار من قلة الأمطار ، وتغلى المواشي ، ويقل الرزق ، ويكثر الزنا والفجور ، وتنتقل القصور والدشور بالمشاهدة ففرت إلى الصحراء قبائل سوس الأقصا ، وفي بلاد توات من الأدنى والله لقد جاعت الناس من كل ناحية جوعا ما سمعنا به قط[2]» يبدو أن الأزمة كانت خانقة وإلا لماذا لجأ ابن أبي محلي إلى إعطاء القسم ؟ هل القحط وقلة الأمطار هي المسؤولة عن هذه الأزمة ؟ وإذا كان كذلك ماهو المبرر الذي دفع بالقبائل إلى الفرار من سوس الأقصى إلى الصحراء ومن سوس الأدنى إلى توات مع العلم أن الجفاف يكون أشد وقعا في هذه الأقاليم ؟ ألا يمكن أن تكون عوامل أخرى سببا في هذه الأزمة ؟ في هذا السياق أورد ابن أبي محلي عنصرا آخر قال عنه «ويبيع الحاكم

(1) لا زالت دراسة هذا الموضوع جديدة بل غير مباشرة بالنسبة لفترات كثيرة من تاريخ المغرب ، أما بالنسبة للتاريخ الحديث فإن أهمية الدراسة التي قدمت في موضوع المجاعات والأوبئة في مغرب القرن XVI و XVII ، تكمن في محاولة مؤلفيها رَبْط هذه الظواهر بالتحولات التي عرفتها البلاد

**Rosenberger (B) et Triki (H), Famines etEpidemiesau Maroc au XVI et XVII[e] siècle, *Hesperis* vol XIV fasc.unique 1973 P 109 et s et *Hesperis* vol XV fasc.unique 1974 PP 5 et S.**

(2) ابن أبي محلي الاصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت ، م خ ح رقم 100 ، ص 33

الحكم ، ويأخذ الرشوة»[3] ثم ما هو الدور الذي لعبه العلماء هل لهم مسؤوليات فيما وقع وكما أراد ابن أبي محلي ؟ «لولا ملبسو الأمة ومداهنوها من متصوفيها لزالت الغمّة»[4] أم أن المسؤولين الرئيسين هم الرعية أو الناس الذين «أحبو الفتن» كما ذكر السلطان زيدان[5] لماذا ارتفعت الأسعار هل هي ظاهرة خاصة بالمغرب ؟

لعب القحط ، ولاشك ، دورا أساسيا في هذه الأزمة والمصادر كلها توضح ذلك ، ومما يزيد من أهمية الجفاف هو اعتماد أغلبية المغاربة على المحصول الزراعي ، سواء كانت الأراضي بورية أو سقوية ، لأن الماء هو المحدد الأساسي للكميات المنتجة[6] ، ولأن قلة الماء تتسبب في تقلص امكانيات التغذية والتقلص في هذه الأخيرة ينعكس على صحة المغاربة مما يؤدي إلى انهيارات ديمغرافية نجهل الكثير عنها وبالتالي قد نتساءل إلى أي حد تكون معرفة تاريخ المغرب ممكنة في غياب هذه المعطيات[7] ؟ إن وقع الجفاف كان أشد في مناطق الواحات المغربية التي ينتمي إليها ابن أبي محلي إن ندرة الماء في هذه المناطق جعلت منه ملكية مستقلة عن الأرض ، وأساسا لتوترات اجتماعية عنيفة[8] نجد صداها عند ابن أبي محلي أثناء حديثه عن تغوير ماء «جنة الأمصار» «دمار سجلماسة جاء على يد تغوير مائها ، محدثات القرى التي تسمى اليوم الرّتب لأنها قطعت عنها ماء عنصرها المعروف بعين أجلف[9]» ناقش ابن أبي محلي ظاهرة قطع ماء سجلماسة من أعلى النهر من الزاوية الشرعية فتساءل هل يحق لسكان سجلماسة مشاركة أصحاب هذه القرى

(3) الاصليت 33

(4) ابن أبي محلي مخطوط *الهراس* المسجل تحت عدد 192 ك بالخزانة العامة ورقة 28 ، السؤال هو أي علماء يقصد ؟

(5) رسالة زيدان للحاحي ، الوفراني ، *نزهة الحادي* 220

(6) يبدو أن الانتاج المعاشي هو الذي كان سائدا إلا أن المصادر لا تشير إليه إلا في أوقات الشدة وبإشارات متقطعة أما المزروعات التي اهتم بها المخزن (قصب السكر) فقد حظيت بعناية خاصة لأنها كانت تزرع للتسويق ، وهكذا نكون نجهل الكل عن إنتاج كانت تعيش منه الأغلبية 90%

(7) دور الأزمات في الانهيار الديمغرافي غير مدروس رغم بعض الملاحظات التي نجدها هنا وهناك أنظر المصدر السابق Rosenberger (B) et Triki (H) *Hesperis* vol XV 1974. P 68

(8) أبرز العربي مزين أهمية الماء وتحكمه في توتر هذه العلاقات بما ملخصه لا تتلاءم الأعمال المكثفة التي يبذلها رجل الواحات في حرث الأرض (التسفيل ، الدمكلة والقلب) والمحصول الذي تعطيه إياه ، يتسبب هذا التباين الحاصل فيما بين وفرة الجهد وقلة الانتاج في بلورة علاقات اجتماعية تنبني على امتلاك بعض الناس لقوة عمل البعض الآخر

LARBI MEZZINE : contribution à l'Histoire de Tafilalet P. 266 - 267

*(9) الاصليت : ص 111*

في ملكية الماء والغرس أم لا ؟ أم يشاركونهم في الماء وحده أو الغرس وحده ؟ لاشك أن المشكل كان مطروحا وربما سببا في صراعات كثيرة فيما بين هذه القصور ، إلا أن معرفتنا بهذه الأحداث محدودة لقد حاول العربي مزين أن يبين نوعية التحالفات التي كان يفرضها المجال الايكولوجي والظرفية التاريخية ووضح في الوقت نفسه أن القصر لا يستطيع أن يعيش منعزلا بل تتحالف القصور فيما بينها مكونة بذلك وحدات سياسية تتحكم فيها وتجمع فيما بينها وحدة المصالح(10)

إن خطورة الجفاف تكمن في تواليه لأعوام كثيرة على البلاد كما أورد ذلك ابن أبي محلي عند قوله «كتب إلي في هذه السنة التي قبل هذه(11) أخ لي في الله صالح فقيه من درعة يشكو ما الناس فيه من شدة القحط وتواليه على الناس والأمر لم يزل حتى الآن في تلك الناحية وغيرها فلقد يبس واد درعة ومات من نخله بعضه أو جله(12)» كيف تعامل الناس مع هذا القحط ؟ هل فر الناس من سوس الأقصى والأدنى بسبب توالي الجفاف وحده أم لأسباب أخرى ؟ لقد أفرغت «القصور والدشور وفر الناس يمينا وشمالا وكان ممن هاجروا ابن أبي محلي وعائلته لماذا لم يبين الأسباب التي جعلته يهاجر ؟ هل هي قلة الماء ؟ أم لأجل عوامل أخرى ؟ من دون شك أن للجفاف دورا في كل هذا إلى درجة أن أبي محلي جعل عودة ماء سجلماسة علامة من علامات ظهور المهدى المنتظر «إن من علامات ظهوره أن يحيا عنصر ماء سجلماسة المسمى عندهم بتمندرين بلغة البربر أهل بلدنا لاشك أنهم ينتظرون قيام مائهم لأنه مغور ومنذ غار ذهب رونق سجلماسة(13) وانطفأ نورها»(14) لكن هل يكفي الجفاف لتفسير الأزمة ؟ ألا يجب البحث في ثوابت الأزمة وفي ظرفيتها ؟

---

*(10) العربي مزين ، المصدر السابق 269*

*(11) ألف الاصليت سنة 1016هـ تبقى السنة المشار إليها هنا 1015 هـ*

*(12) الاصليت ص 46*

*(13) قدم* D.Jacques Meunié *أطروحة معاكسة ركز فيها على أن دمار المدينة ربما ارتبط بفيضانات عرفها وادي زيز أو هجومات قبائل بني معقل*

***D.J Meunié : le Maroc Saharien des Origines à 1670*** **T I P 365 - 366.**

(14) الاصليت 48

# 2 أزمة مخزن أم أزمة مجتمع أو ثوابت الأزمة

## مشكل البيعة عند الأشراف السعديين

يبدو أن لهذه الأزمة جذورا في بنى المخزن السعدي وربما يرجع أصلها إلى نشأة حركتهم اعتبر البعض حركتهم كحدث عارض(15) وركز البعض عن احتمال لأصلهم البربري(16) ويظهر من خلال بعض الأحداث أن الأمراء السعديين قد عانوا ، حتى في أقوى فترات حكمهم ، من مسألة المشروعية في الحكم(17) لنناقش هذه الفرضية من خلال وثيقتين رسالة بعث بها مولاى محمد المتوكل إلى أعيان المغرب قائلا لهم فيها «ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من

(15) G.Drague. *Esquisse d'Histoire religieuse du Maroc* Confreries et Zaouia p 71, edition J.Peyronnet 1951

(16) D.Jacques Meunié, *le Maroc saharien des origines â 1670.* T I. PP 433 - 434 - 435 - 437
حاول أن يُناقش أصل الاسم والعلاقة التي توجد فيما بين السعديين وويسعدن ثم تساءل عن إمكانية وجود قرابة عائلية فيما بين هذا الوالي والسعديين في حين .يرى د حجي أن الاسم فيه تحريف لاسم سعدون القيرواني انظر *الحركة الفكرية* 2 565 لعل انطلاق حركة السعديين من المنطقة واعتمادهم على الامكانات البشرية والمادية التي توجد بها توحي بذلك لقد ألح المنصور على ابنه المأمون على الاعتماد أساسا في خدمته على قبائل سوس (وإذا أردتم الخدمة فهاهم أهل سوس) إلا أن الفرضية في حاجة إلى أدلة

(17) اعتبر Jacques Berque انقسامات نهاية القرن XVI ومطلع القرن XVII «بحثا عن المشروعية التي كان الكل يريدها»

.Jacques Berque, *ULEMAS FONDATEURS, Insurgés du Maghreb XVIIe siecle* p 22

المسلمين وقد قال العلماء يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه بكل ما أمكنه فإن لم تفعلوا فاذنوا لحرب من الله ورسوله[18] وأما الوثيقة الثانية فهي المراسلة التي تمت بين يحي الحاحي والسلطان زيدان والتي استصرخ فيها هذا الأخير بالحاحي طالبا منه مناصرته[19]

## العلماء والحزن

ناقش العلماء المتوكل على أساس الشرع «فقولك خلعنا بيعتك التي التزمناها وطوقناها وعقدناها وإنما ذلك منا على منهج الشرع إلى أن قام عليك عمك...» أوضحوا له بأنه قد تخلى عن مسؤولياته عندما لجأ إلى الفرار فأصبحت البيعة التي عقدوها له لاغية بل حجة عليه «فحجتك التي لا يمكن جحدها حسبما ثبت كما يجب عقدها فخرجت مُبادِراً له بوقعها ولقيته بها وأنت واسطة عقدها وحامل راية عهدها» إذا استعملت – يقول العلماء – هذه الحجة ضد عمك ولم يكن يفكر أحد في التخلي عنك ولا في مناصرته إلى أن غادرت المدينة «شجعتك على عقبك هاربا عن مدينة فاس وسكانها ينادونك ولم تترك واليا وسلمت بلادهم[20]» فأصبح أهلها لا يستطيعون حيلة ، فما أمكنهم بعد هروبك عنهم ؟ فيما هم كذلك إذا بعمك وجنوده قائما بحجته سالكا في ذلك سبيل أبيه وحجته حسبما تقرر ذلك عندكم إذ كان مولانا محمد الجد الأكبر عهد لأولاده مولانا أحمد ومولانا محمد الشيخ وأخوانهما ألا يتولى الخلافة منهم ومن أولادهم إلا الأكبر فالأكبر فالتزموا ذلك» إننا في عمق مشكل الخلافة في الاسلام ، والتي لايوجد في شأنها نص صريح[21] هل أقر القائم بأمر الله إجرائية «الأكبر فالأكبر ؟» لم يعثر على هذه الوثيقة إلى حد الساعة هل كان إجراء شفويا ؟ ألم تكن حيلة استعملها عبد الملك لاستمالة العلماء لقضيته ؟ «وعمك يدلي – يقول العلماء – بحجته التي ذكرناها» ألم يلجأ العلماء إلى تزكية موقف المعتصم لتبرير موقفهم ومن أجل الوقوف ضد الفتنة ، لأنهم اعتمدوا أساسا على الدراسات الاسلامية المعهودة وبالخصوص على ما جاء به الماوردي في عقد الخلافة ؟ ألم يكن ضعف المتوكل أساس هذا الموقف الصادر في حقه من عند العلماء الذين ألحوا على

(18) توجد رسالة المتوكل ملخصة ورسالة العلماء عند عباس بن ابراهيم المراكشي ، *الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام* ج 4 162 وما بعدها

(19) أنظر المراسلة عند الوفراني ، *النزهة* ، 212 – 221

(20) لنلاحظ نوع الخطاب الحديث عن فاس وكأنها معزولة عن باقي البلاد أو كأنها البلاد كلها

(21) أثير نقاش كبير حول المسألة ولا زال مفتوحا لخصه اليوسي بقوله «الأمر يكون نبوة ثم خلافة ثم ملكا ثم عتوا وفسادا في الأرض وهو الموجود اليوم» الحسن اليوسي ، *المحاضرات* ج 1 ، ص 109

موقفهم من المسألة لا لحماية الأشخاص بل لحماية حدود الشريعة ؟ «الآن يجب على أهل فاس أن لا يتقاتلوا على البيعة التي التزموها لك إنما يلزمهم القتال على الحدود الشرعية» أليس الموقف مرتبطا بالقوة ؟ وإلا ماذا نفهم من «فيما هم كذلك ماذا بعمك وجنوده» ثم «فلم يبق إلا التغلب» إن موقف العلماء هذا هو الموقف الموروث وهو الذي تبناه ابن أبي محلي بقوله وأنه لا يجوز نقض البيعة إلا بحقها ولا الخروج على السلطان والقيام عليه إلا بشرطه المعروف بين أهل العلم»[22]

يظهر أن السعديين عانوا باستمرار من هذه المشروعية حتى في أقوى فترات حُكْمِهم[23] وبالمراسلة التي تمت بين الحاحي وزيدان نصل إلى دور العلماء في هذه الازمة قبل أن يورد الوفراني رسالة الحاحي وضع الملاحظة التالية «وكان (أي الحاحي) يراسل زيدان وينصحه ويجير منه من استجار به وكان زيدان يتحمل من ذلك أمرا عظيما» لقد تحمل منه ذلك لأن قوته كانت منعدمة ولأنه كان بحاجة إلى وقوف الحاحي بِجَانِبه اعتمد أساسا على مفهوم الدين النصيحة والنصيحة هي الوسيلة التي استعملها العلماء من أجل مراقبة الأمراء والتدخل في شؤون المسلمين أي الدولة إننا بصدد دراسة مسألة يصعب فيها التمييز فيما بين ما هو ديني وما هو دنيوي أين تنتهي الحدود الشرعية أي تدخل العالم ؟ وأين تبدأ وظيفة السلطان ؟ لقد شعر السلطان زيدان بضرورة التحديد حين بَيّن شروط السلطنة وَاعْلَمْ أن السلطنة لها أشراط لابد منها وسياسة يكره ظاهرها»[24] فالأمير يضطر إلى اتخاذ القرارات التي قد تتعارض ظاهريا مع الشرع ومع المصلحة وقد لايفهمه العلماء لأول وهلة لكن هل شَكّل هؤلاء فئة متجانسة ؟ وماهو المركز الذي احتلته هذه الفئة في المجتمع ؟ يبدو أن مكانتهم كانت متميزة حيث احتلوا مناصب هامة في اتخاذ القرارات (الفتوى ، القضاء) أعطتهم هذه المناصب أرباحا[25] هائلة بالاضافة إلى الهدايا التي كانت تصلهم من الأمراء أو من غيرهم فالمعروف أن القضاة يلبسون ملابس متميزة هل هذا يعني أن كل العلماء كانت

---

(22) الاصليت 27 ، الملاحظ أن الشرط يخضع دائما لقوة الأمير أوْضُعْفِه فيُؤَوّلُ بحسب الظروف

(23) صاحبت حركة السعديين تطاحنات من أجل الانفراد بالحكم حيث قتل محمد الشيخ أخاه أبا العباس الأعرج ، وقتل عبد الله الغالب واحدا من إخوته وتسبب في فرار أخويه عبد المالك والمنصور ، كما عرف المغرب أزمة بسبب صراع المتوكل مع عميه ، وخاض أحمد المنصور الذهبي حروبا ضد الناصر بن الغالب ، وتصارع أبناؤه الثلاثة من أجل الحكم ومما يوضح اهتمام المنصور بمسألة الخلافة هو عقده البيعة للمامون وحرصه على أن يوقعها إخوته

(24) الوفراني ، *النزهة* 221

(25) د محمد حجي ، *الحركة الفكرية* 1 : 116 – 124 .

لهم امتيازات ؟ يبدو أن الامتيازات المادية كانت مشروطة بالتعامل مع المخزن ، وأن السمعة الاجتماعية كانت تستمد من العامة واستمالة هؤلاء كانت مرتبطة بمواقف حراس الشريعة من الأحداث ، فالعلاقات فيما بين السلطنة وشروطها والتي ربما لا تظهر كما ألح على ذلك زيدان والممارسات اليومية (ما هو مطبق وما هو موروث) وربما لا يخضع للنصوص التشريعية (حياة الناس اليومية) وأخيرا الشريعة ، فهذه العلاقات مبنية على تفاعلات نبينها في الرسم التالي

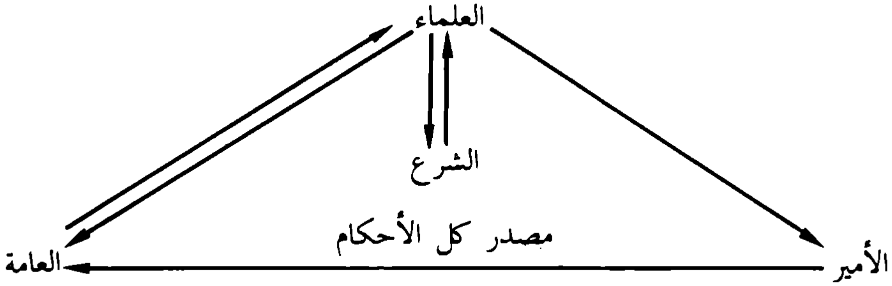


– الشرع هو مصدر كل السلط

– العلماء هم حراس لحدود الله ، فهم ورثة الأنبياء لديهم (الكتاب – السنة) يستمدون قوتهم من العقيدة ولا سيما من قدرتهم على المحافظة عليها والاجتهاد فَهُم مسؤولون عن مراقبة الأمير إما ببذل النصيحة أو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأمير ملزم لهم بالاستشارة ، كما تلزمهم حماية الشريعة من بدع العامة لذا يلجؤون إلى التوفيق فيما بين الأعراف والعقيدة كما هم ملزمون للعامة بالارشاد وإعطاء المثل لهم ثلاثة مصادر لقوتهم (قوة من الشرع + قوة العامة + قوة بذل النصيحة للأمير)

– أما الأمير فإنه مسؤول أمام العلماء على تنفيذ أحكام الله

– العامة يبذلون النفوذ للعلماء ولا يطبقون إلا ما أراده هؤلاء

غير أن الواقع يخضع للغلبة فنمو قوة أحد الأطراف تكون دائما على حساب الآخرين ، لذا سعت الدولة إلى تهميش العلماء[26]

لعل مشكل البيعة من الثوابت الأساسية التي لم يستطع السعديون حلها بل لجأ أمراؤهم إلى فرض الضرائب الغير الشرعية مما زاد في حدة الصراع وقد أشار ابن أبي محلي إلى هذه السياسة الضرائبية واعتبرها مسؤولة عن دمار سجلماسة حيث

(26) Jacques Berque : *Ulemas*, Op. cit., P 245 .

قال «ومن المحن الخاصة بهذه البلدة أن أصولها كلها قد قومت على أربابها من قبل سلاطينها فهم يؤدون لذلك في كل سنة خراجا معلوما إلى عمالهم على النخيل وما تنبت الأرض وبعد ذلك كل ما زرعوه في الأصول المذكورة وخارج البلد وإن سقوه بسبيل المطر فإن المخزن يأخذ نصفه بمجرد الماء الذي لله وليس له مع أهلها أصل ولا فصل في زرع ولا نخل وهذه بلية بها(27)» لقد وقف السلطان زيدان عند أسعار الخراج التي زاد فيها المنصور فقال «أمعن النظر – رحمه الله – في أصل الخراج فوجد بين السعر الذي بني عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطي الرعية منذ زمان الفرض وبين سعر الوقت أضعافا فحينئذ تحرى العدل فخير الرعية بين دفع كل شيء بوجهه أو دفع ما يساوي سعر الوقت فاختاروا السعر مخافة أن يطلع إلى ما هو أكثر(28)» هل هو اختيار أم أنه فرض ؟ ثم أين نحن من الأطروحة التي قدمها عبد الله العروى(29) والتي ركز فيها على استقلال المنصور عن المجتمع لأنه لم يلجأ إلى فرض الضرائب بل اكتفى بما غنمه من معركة وادي المخازن من أجل تجهيز جيشه ، ومن أرباح التجارة الخارجية ، وذهب السودان ؟

هذه الثوابت وحدها لا تكفي لفهم حدة أزمة نهاية القرن العاشر هـ لابد إذن من الوقوف لفرز المعطيات الظرفية التي ساهمت في تفتيت ما بناه الأمراء السعديون الأوائل ماهي الأسباب التي جعلت الأزمة تبدأ في نهاية حكم أكبر أمير سعدي ؟ هل لها علاقة بسياسة التبذير التي لجأ إليها المنصور أم لا ؟ ماهي آثار الحركات التي نظمها على البادية المغربية ؟ ما هي انعكاسات سياسته الاقتصادية من بعد التحول الذي عرفه اقتصاد العالم في نهاية القرن العاشر هـ ثم ماهي انعكاسات غزو السودان على الأوضاع في المغرب ؟

إن الأوصاف التي تركها الفشتالي(30) في قصر البديع تتجاوز أحيانا الخيال والمواد المستعملة في بناء القصر تبين بوضوح أن أثر النهضة الفنية قد وصل إلى المغرب لا سيما الفن الايطالي ومن جهة ثانية يبدو أن المنصور كان كذلك على

(27) الاصليت ، 112

(28) الوفراني ، *النزهة* ، 222

(29) ABDALLAH LAROUI. L'Histoire du Maghreb. un essai de synthèse, p 239, François Maspero Paris. 1970

(30) عبد العزيز الفشتالي مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، تحقيق عبد الكريم كريم ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة ، بدون تاريخ منصفحة 252 إلى 265 وبالخصوص 254 – 256 و 260

علم ببناء قصر فليب «الاسكريال» والذي دام العمل فيه عشرين عاما كذلك[31]

إلى جانب البناء اهتم المنصور بالمناسبات لا سيما الاحتفال بالمولد النبوي إلا أن الحفل على ما يبدو كان يكلف الخزينة كثيرا ففي شأنه قال الفشتالي «ولم يزل يختلف الظرفاء من الخدام على الناس لاخصال الملابس بماء النعيم من كثير الورد والأزهار فيلبث طيبها لصقا بالأثواب مدة مديدة فلا تسأل على التفنن في المطابخ والتنويع في المآكل فينفصل المجلس وقد مكث من فاضل الطعام بفضاء الايوان هضاب سامية فيوذن للمساكين وذوي الحاجات المحرومين فينقضوا عليها[32]» ثم أضاف «وكانت لمولانا أمير المومنين صدقات فاشية واسعة عظيمة العائدة[33]» تميزت سياسة المنصور بالليبنة مع الخاصة والعنف مع القبائل عن طريق الحركات التي تعتبر كأسلوب مخزني ذي أبعاد ووظائف مختلفة[34] بماذا تميزت سياسة أحمد المنصور اتجاه القبائل ؟

## القبائل والمخزن

يبدو أن أحمد المنصور كان يمزج فيما بين الحيطة والحذر من جهة والعنف والقوة من جهة ثانية ، حذر ابنه وولي عهده في رسالة من خطورة التعامل مع بعض القبائل ، ولنتبعه في نصحه للمأمون «بلغنا أنكم قد استخدمتم هنالكم جماعة من أولاد طلحة» بنيت الجملة على صيغة تعجب واحتملت المفاجأة بالخبر يظهر

---

(31) Henri Hausser, *La Preponderance espagnole 1559 - 1660* P 5 - 6 Presse Universitaire de France 3e Paris 1948

(32) الفشتالي ، المصدر السابق 251 أين نحن من ملاحظة بعض المؤرخين – والتي علق عليها Rosenberger كذلك – الذين ألحوا على تواضع أكلات الأمراء في العهد السعدي ، لأن هؤلاء الأمراء لم يصلوا في طقوس أكلهم إلى أمراء الأندلس أو إلى أمراء الشرق وبرروا هذا التواضع بالافتقار النسبي انظر Rosenberger (B) Cultures Complementaires et nourritures de Substitution au Maroc (XV-XVIIIe Siècle) Annales : Economie-Société-Civilisation Juillet-Aout 1980. P. 486 /

(33) الفشتالي ، *المصدر السابق* 251 – 252 ، لقد أهدى المنصور العالم أحمد الزموري الذي أم به صلاة التراويح 5000 أوقية من ذهب ثم ضيعات فلاحية

(34) ما هي الحركة ؟ ما هي الوظائف المنوطة بها ؟ وما أثرها على البوادي المغربية ؟ متى ظهرت كجهاز إداري متنقل ؟ وما الفرق فيما بين المحلات السلطانية والحركات التي لا يشارك فيها الأمير ؟ هذه أسئلة نجد محاولة للاجابة عليها في بعض الدراسات المتعلقة بالقرن XIX لكنها غير معروفة بالنسبة للفترات السابقة أنظر بالخصوص
ABDERRAHMAN EL MOUDDEN. Etat et Société Rurale à Travers la Harka au Maroc du XIXe S In the Maghreb Review vol 8 - 1983 : 141 145

من الجملة أن المأمون كان مستقلا في اتخاذ القرارات المحلية وربما شكلت مواقفه هذه سببا من أسباب التوتر فيما بين الأب والابن[35] اعتبر المنصور قرار المأمون غير صائب لأنه استعمل أولاد طلحة في خدمته بفاس يعني بالقرب من أوطانهم[36] ويبرز التوتر فيما بين هذه القبائل والمخزن السعدي من خلال الاعترافات التي أوردها المنصور سبق له أن استعان بهم وقد ندم على ذلك بل اعتبر قراره السابق خطأ «فقد ندمت والله على استخدامهم وأنا في ذلك على خطإ» هل ندم لأن ابنه قلده ؟ أم ندم لسبب آخر ؟ نصح المأمون بالتخلي عن استخدامهم لأن إرادتهم الأساسية تكمن في رأي المنصور في ابراز ضعف المخزن «وهؤلاء إنما يبحثون على الغرة وعورة المملكة» فالعلاقة إذن مبنية على التوتر والمخزن يلجأ باستمرار إلى إضعاف هذه القبائل لأن في ضعفهم قوته «ثم لا تترك لقبائلهم جناحا واحدا[37]»

إذا كانت تورات القبائل ساهمت وبقدر كبير في نحر الجهاز المخزني والذي عبر عنه المنصور بشكل مأساوي سنة واحدة قبل وفاته حين قال لابنه المأمون عند كلامه عن الخلط «وما زال جرحهم إلى الآن لم يبرأ»[38] بل سيزداد هذا الجرح تفاقما ، وسيساهم ، إلى جانب عوامل أخرى سنتعرض لها في حينها ، في نخر وتفتيت كل ما بناه السلاطين الأوائل وقد لخص ابن أبي محلي الوضعية الجديدة بقوله «فاجتمع على أهل الغرب منذ مات المنصور بل وقرب وفاته الجوع والهرج والوباء تفاقم واتسع الخرق بين أولاده ووقعت وقائع مات منها خلق كثير»[39]

(35) لا زال موضوع أسباب التوتر فيما بين المنصور وابنه غير معروف ، ترجع المصادر كلها اللوم للمأمون وتصرفاته اللامسؤولة ، أليس لسياسة المنصور الاستبدادية دور في هذه التصرفات ؟

(36) اعتمد أساسا المنصور على إبعاد القبائل عن أوطانها ، واستعمل في سياسته قبائل ضد أخرى

(37) نجد أمثلة كثيرة توضح لجوء المنصور إلى القوة والقتل في حق القبائل وإلى إرهاقها بالكلف المخزنية كما هو الشأن في حركته الاولى إلى سوس «توجه بإحداهما (المحلتين) خال أمير المؤمنين وعاج بها إلى جهة القبائل المجاورين بجبل درن ومروا يقتصون تمهيد البلاد أرضا وقبيلة قبيلة فاكتسحوا السرح واتسفوا الزرع وخربوا العمران ودمروا أرض المارقين تدميراً «واستقامت أحوال السوس فدرت بذلك ضروع جبايتها» وتكفي الاشارة إلى وقوف القبائل دائما إلى جانب القائمين على المنصور الذهبي وفي كل فترات حكمه مثلا التفاف قبائل الخلط وقبائل الغرب ، وقبائل الحياينة من حول الناصر ضد المأمون أنظر الفشتالي ، المصدر السابق لا سيما في صفحات (52 - 58 - 77 - 78 - 176 - 177 - 191) ويظهر أن لهذه الثورات وتلك الحركات أثر جد سلبي على البادية المغربية وبالتالي على الانتاج والانتاجية بها ، ومما سيفجر هذا التراكم هو القحط وتواليه على البلاد

(38) كتب هذه الرسالة سنة واحدة قبل وفاته في أوائل جمادى الثانية 1011هـ .

(39) الاصليت 115 *والهراس* 5 و7 .

يبدو إذن أن الوضعية أصبحت لا تطاق وتباينت المواقف «وكانت الخلق منها ومنتهبا من الولاة وأهل العز والرتب حيث نار الحروب بها بين البرابر والأجناد والعرب»[40] أصبح من الصعب تحديد الجهة المسؤولة هل هي ألفة الراحة[41] ؟ لكن الراحة من ماذا ؟ أمن الكلف المخزنية أم من الاستبداد الذي ميز فترة المنصور ؟

يظهر أن العوامل تداخلت وقد زاد من حدتها الوباء الذي اجتاح البلاد أو كما قيل «طال واستطال» وقد ألح ابن أبي محلي كثيرا وفي مناسبات عديدة في المخطوط على هذا الوباء ومما قاله « وأول ما بدا بقرية[42] بإزاء ميسور على نهر ملوية وانتشر ولم يزل حتى الآن بناحية مراكش وتلمسان وقد استمر في الغرب كما مر مدة تقرب من العشرين أو تكاد ولم يسمع بمثله في الغرب»[43] يبدو أن الوباء الذي طال ، والقحط المتوالي بالاضافة إلى سياسة المنصور الاقتصادية التي ركزت على الاهتمام بزراعة قصب السكر وأهملت «الزراعة المعاشية» بل لجأت إلى الاساءة إليها عن طريق الكلف والحركات من جهة وعن طريق استنزاف المياه واليد العاملة في مزارع الدولة السكرية ، وإلا كيف نفهم موقف السكان من المعاصر السكرية من بعد وفاة المنصور لماذا هدموها ؟ لا شك أن كل هذه العوامل قد تظافرت ففجرت الأزمة وقد ازدادت حدة على إثر التحولات التي وقعت في الظرفية العالمية والتي كانت سببا من بعيد أو قريب في تحديد ملامح سياسة المنصور سواء على الصعيد الداخلي كما رأينا أو على الصعيد الخارجي

ارتفعت الأسعار في المغرب بشكل مهول كما أكدتها كل المصادر «قد طلعت وبلغت النهاية» أو كما قال ابن أبي محلي «وتغلى الأسعار ويجوع الناس جوعا شديدا»[44] هل هي ظاهرة اختص بها المغرب أم كانت عالمية ؟ وماهي

(40) الاصليت 33 و37 وقد عبر عن نفس الوضعية الفقيه أبو مهدى عيسى بن عبد الرحمن السجتاني في رسالة له من تارودانت حين كان قاضيا عليها إلى يحي الحاحي وقد قال «كما لا يخفى على ذي بصيرة ما حل بالمغرب من افتراق الكلمة هذه مصيبة عظيمة نزلت بغربنا فافترق ملاؤهم وقتلت سراواتهم وانتهبت أموالهم وهتكت حرماتهم ومزقت أعراضهم وفسدت أديانهم واختلت وبعدت عن التوفيق آراؤهم ...». الوفراني ، *النزهة* 227

(41) قال زيدان مفسرا أزمة مطلع القرن XIهـ / 17م «الناس خرجت عن أطوارها وأحبوا الفتن طلبا للراحة»

(42) ليس من المؤكد ذلك ، لجأ إلى ذكر هذه القرية لأنها قريبة من الموقع الذي يوجد فيه

(43) الاصليت 30

(44) الاصليت : 33 ظ .

خصوصيتها بالنسبة إليه ؟ أدت الاكتشافات الكبرى ونتائجها إلى تغيرات عميقة لا مجال لذكرها هنا ، والذي يهمنا هو النمو الاقتصادي الذي عرفته بلدان البحر الأبيض المتوسط منذ 1470 ، غير أن هذا النمو عرف توقفا مع ما سمي في الغرب بثورة الأسعار التي عرفت الأوج مابين 1590 - 1600 ، واستمر هذا التراجع الاقتصادي إلى حدود 1650 بالنسبة لأوربا(45) حيث عم الغلاء جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط بما فيهم الأتراك(46). وقد لاحظ F. Braudel أن الأزمة تسببت في تنشيط الحروب الدينية داخل المسيحية أو في علاقة هذه الأخيرة مع الاسلام لذا ازدهرت القرصنة التي أشار إليها ابن أبي محلي - كما سنرى - ألا يمكن وضع طرد المورسكيين في إطار هذه الأزمة ؟ هل ساهمت هذه الهجرة في تعميق أزمة المغرب أم لا ؟ هل اندمجت هذه العناصر بسهولة كما اعتقد (F. Braudel)(47) أم أنهم وجدوا صعوبات كثيرة(48)

يبدو أن ارتفاع الأسعار كان كذلك مرتبطا بالبنية النقدية كما ألح على ذلك الكثيرون(49) يظهر أن المبادلات التجارية عرفت تحولات على المستوى العالمي والتي بدأت تتميز بنوع من التقسيم في العمل(50) ومن دون شك أن شعور المنصور بتجاوز أوربا لخدمات المغرب جعله يخطط لغزو السودان

## - غزو السودان والأزمة

«تأتي الملح من الشمال والذهب من الجنوب وأما كلام الله والشؤون العلمية

(45) Fernand Braudel La méditerranée et le monde méditeranéen à l'époque de Philippe II TII, p 214 - 215, Armand colin, Paris 1966

(46) Claude Nordmann, *La montée de la Puissance Europeenne* - 1492-1661. P. 197. Presses Universitaires de France. 1974.

(47) «قد وجدوا في الاسلام ربحا ومركزا» المصدر السابق F. Braudel op. cit 218-219

(48) لا زالت الظاهرة غير مدروسة لا نعرف عدد الأسر التي وصلت ، ولا الفئات التي كانت تتكون منها ، ثم لا نعلم بالتدقيق كيف استقبلهم المجتمع بالرغم من الملاحظات التي أوردها المقرى الذي أشار إلى أن «ألوفا خرجت بفاس» وأنهم تعرضوا لمحن «الأعراب ومن لا يخشى الله» لا سيما بتلمسان وفاس كما أشار المقري إلى استخدام السلاطين لهم في الجيش وأن لهم بطولات في الجهاد «وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن» أنظر المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 6 278 - 280 ، دار الكتاب العربي - بيروت 1367 هـ والناصري ، الاستقصا ، 6 11 ومحمد حجي ، الحركة الفكرية ، ج 1 267 - 280 و

A.LAROUI, L'Histoire du Maghreb, p. 235

(49) تكفي الاشارة إلى النقاش الذي دار فيما بين J. Bodin et Malestroit في منتصف القرن XVI

(50) أصبحت أوربا الشمالية تسطير على الطرق التجارية ، وتقوم بتزويد باقي مناطق العالم - بما فيها شبه جزيرة ايبريا ، والمغرب - ببعض المواد المصنعة (الأقمشة - الأسلحة) وتستورد منها بعض المواد الفلاحية والمعدنية (السكر وملح البارود والتبر) .

والحكايات الجميلة والخرافات العجيبة فإننا لا نجدها إلا في مدينة تمبكتو»(51)

اعتبرت مدينة تمبكتو مركزا ثقافيا هاما فيه امتزجت الحضارات العربية والاسلامية والزنجية وشكل المغرب منذ غابر العصور الخط الرابط الأساسي فيما بين السودان والمناطق التي توجد شمال الصحراء لماذا قرر المنصور الذهبي غزو السودان بالرغم من معارضة «الرأي العام» المغربي(52) ؟

اعتبر ابن أبي محلي دخول «رايات المنصور إلى تمبكتو كعلامة من علامات المهدي المنتظر «ان دخول رايات أبي العباس المنصور للسودان واستيلاؤه على سلطانها سكية في دار خلافته ، بل امارته وهي جاغو مع تمبكتو بأعمالها كل ذلك من إمارته(53)»

المهم هو استخراج العناصر التي أهملت حتى الآن والتي تتعلق بالمشاكل التي تسببت فيها هذه الحملة للمغرب ركز الفشتالي ومن اعتمد عليه على الهول الذي أصاب السكان من جراء الأسلحة المستعملة مما دفع بهؤلاء إلى «الاستسلام(54)» أتى المؤرخ المجهول بأول انتقاد إلى مشروعية الحملة(55) ، فهاجم السلطان والقواد «فكل ذلك في صحيفتهم وصحيفة رئيسهم (محمود) وسلطانهم (المنصور) وعند الله تجتمع الخصوم ويلتقي الصالح والمظلوم وظفر بالبلاد بعد ظلم كثير». إلا أن موقفه هذا لا يتجاوز موقف المسلم الذي نظر إلى الحملة من الزاوية الشرعية التي تحرم الاقتتال بين الاخوة(56) غير أن ابن أبي محلي أورد إشارة تستحق الوقوف وهي قوله «علامة من علامات آخر الزمان لأهل المغرب

---

(51) مثل سوداني أورده I.C. TCHENO عن المؤرخ الزائري

ELIKIA MBOKOLO sur les chemins de TOMBOUCTOU *Demain l'Afrique* n° 2 Octobre 1977

أنظر L'Unité Maghrebine dans ses rapports avec l'unite Africaine in *The Maghreb Review* vol. 8 Jan-Apr. 1983. P 19

(52) لن نقف عند ما هو معروف عن غزو السودان من مناقشة الفكرة في مجلس الشورى ، إلى تلدد المنصور بالخبر حين قال «فتح لم تلد مثله الأيام ولا علم نظيره فيما تقادم من الأعصار ومضى من الأعمار فاشكروا الله على هذه المفاخرة التي أدرها لعصرنا». رسالة موجهة لشرفاء وأعيان فاس في 8 شعبان 999هـ

(53)الاصليت ، 21ظ

(54) أنظر الفشتالي ، المصدر الذي حققه عبد الله كنون 58 - 81 وبالخصوص صفحات 59 و60

(55) المؤرخ المجهول نشر G. Colin 69 - 70

(56) الملاحظ أن المؤرخ المجهول يتحدث عن السودانيين من زاوية يبرز فيها التكبر فاستعماله لكلمات ، العبيد بكثرة والمساكين توحي بذلك .

الأقصى[57]» فهو لم يذكر كما فعل في السابق على أنها علامة من علامات ظهور المهدي بل هي علامة آخر الزمان ، ثم استعمل ولأول مرة بالمغرب الأقصى فقد حدد جغرافيا المنطقة التي ستعرف دمارا نهائيا أين الفرحة التي نادى بها المنصور ؟ يوجد اختلاف بين فيما بين رسالة المنصور وقولة ابن أبي محلي ، لا شك أن للفرق الزمني دورا فالمنصور كان أول من توصل بالخبر وهو الذي نظم الحملة في حين أن ابن أبي محلي تحدث عن الحملة ببرودة وعلى ضوء أحداث مطلع القرن XIهـ لذا نجده يعتبر الحملة علامة من علامات الفناء في حين أن المنصور طالب من رعاياه أن يتخذوا «يومها الأعز عيدا ومهرجانا فهو بكل خير شامل»

ولعل المصادر السودانية أعطت نظرة مخالفة فقد ركز تاريخ الفتاش[58] على خيبة أمل القائد جودر الذي لم يجد ربما ما كان يتصوره ، بل نلمس هذه الخيبة عند الفشتالي نفسه حينما ننفذ إلى خفايا نقاشات ربما كانت لا تظهر على السطح حيث بيّن الصعوبات الطبيعية والأمراض التي أصابت الجنود فقال «لا تقتنص بها الصحة (السودان) وأما الوارد عليها فقلما يسلم من عادية» ثم أضاف بوضوح «فطرقتهم بسبب ذلك الأمراض والأسقام[59]» نفس الصعوبات وأكثر منها نجدها في وثيقة أجنبية[60] عرفت بالصعوبات الكثيرة التي واجهت الحملة في الطريق بل حتى في جاغو وتمبكتو وأشارت كذلك إلى اندهاش الجنود عند وصولهم لأنهم لم يجدوا المؤونة الضرورية ربما تفاوض القائد جودر مع أسكيا على ضوء هذه المعطيات لقد كلفت الحملة المخزن أعباء كثيرة من مصاريف هائلة ، كما تسببت للمنصور في إبعاد أجود عناصر جيشه عن المغرب ربما في وقت كان في أمس الحاجة إليها لاشك أن المنصور قد أدرك مجدا وافتخارا كبيرين من جراء هذه الحملة التي كانت ممكنة في تلك الظروف إلا أن نتائجها ربما كانت على عكس ما كان يهدف إليه ويمكن وضع تشاؤم المغاربة من مجيء الفيلة في هذا الاطار

---

(57) الاصليت ، 29 ظ

(58) محمود كعت ، *تاريخ الفتاش بأخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس* ص 279

(59) عبد العزيز الفشتالي ، *المصدر السابق* 79

(60) وثيقة معاصرة للحملة أوردها Henri de Castries لاحظ أنها ربما كتبت عام 999ه – نونبر 1591 تتوفر على معلومات دقيقة عن الحملة ربما كتبها مبعوثي فليب الثاني وهما إما
Pollo Balthazar أو Pedro diego de Meru . Hesperis : Vol III, 4e trimestre 1923. P 433-488

الفصل الثاني

# ابن أبي محلي ، مراحل حياته

ماذا نعرف عن حياة أحمد بن عبد الله بن محمد بن القاضي بن أبي محلي ؟ ماهي الضوابط التي حددت حياته ؟ كيف نستطيع أن نربط ما هو فردي بما هو مجتمعي ، أو بعبارة أخرى كيف المرور من الميكرو / اجتماعي إلى الماكرو / اجتماعي(1) سنحاول اعتمادا على مؤلفات ابن أبي محلي ، الاجابة عن بعض هذه الأسئلة التي تطرح مشاكل منهجية عويصة(2) فاعتمادا على المعطيات المتوفرة لدينا الآن ، والتي سنرجع إليها في حينها ، يمكننا تحديد خمسة مراحل في حياة ابن أبي محلي مرحلة النشأة أو التربية الأولى في سجلماسة ، والمرحلة التي قضاها في «الجنة البيضاء» أو مدينة فاس ، ومرحلة التصوف بصحبة شيخه في زعير ، ومرحلة العودة إلى سجلماسة والاستقرار بالساورة ، وأخيرا مرحلة قيامه على المخزن السعدي

(1) دار نقاش كبير حول هذا الموضوع فيما بين المدافعين عن المناهج الكلاسيكية والمدافعين عن ضرورة فتح حدود العلوم الانسانية عموما والتاريخ بالخصوص على الامكانيات التي تقدمها له السيرة الذاتية لكن السؤال المطروح هو كيف يمكن استغلال التجربة الفردية أو ما يسمى ب «الذاتية الفاعلة» في دراسة المجتمع ، تبين من خلال النقاش بأن تجارب الأفراد ما هي في واقع الأمر إلا أعمال مركبة وفعالة في المحيط الاجتماعي الذي ينتمون إليه

**Ferrarroti , sur l'autonomie de la méthode biographique Jean Duvignand, Sociologie de la Connaissance, Payot 1979. P. 131-152**

(2) لم يتجاوز الذين كتبوا عن ابن محلي ما كتبه عن نفسه ، وسنحاول اعتمادا على تمحيص ما كتبه على نفسه أن نستخرج الضوابط التي حددت وبررت التقسيمات التي نقترحها لحياته .

# 1 مرحلة النشأة في «حجر العلم ومن شجرته»

## (967 980 هـ 1560 1572 م)

ينتمي ابن أبي محلي لعائلة[3] أولاد القاضي التي اشتهرت بسجلماسة والتي لا صلة لها بتلك التي اشتهرت بفاس على حد قوله «والقاضي غير القاضي فيهما فاعلمه ، لأن أصلهم بمكناسة الزيتونة ، ثم استوطنوا بالبهجة البيضاء (فاس) ونحن بالصحراء في سجلماسة الغراء ، لا نعلم رابطة نسب بيننا وبينهم»[4] أما أخواله فهم أولاد رحو وأمه هي المولاة بنت علي بن أحمد بن أبي القاسم البرزوزي ماتت وهو صغير فكفلته جدته أدخله أبوه المكتب وكان يسهر بنفسه على مراقبته ، من خلال ما تركه ابن أبي محلي على هذه المراقبة نستطيع أن نأخذ فكرة عن المناخ التعليمي في الواحات في وقته «ولكنه شديد البأس (أي أبوه) ، ربما ضربني بعدما يوثقني بالحبل لما رأى من شرودي ، وولوعي بصيد العصافير ، واللعب بالكرة وحضور الأعراس وزعامتي[5] فلولا تعنيفه مع ما سبق لضعت ، فجزاه الله عنا

(3) سنتحدث بتفصيل عن عائلته عندما نتاول الأسس المادية والمعنوية لحركته العسكرية

(4) «الاصليت» 60 ط

(5) لنلاحظ تهميشه للعب لأنه بصدد تقديم نموذج العالم الذي نجح لأن الله حفظه من اللهو منذ صغره على عكس أقرانه ، من هنا يكون قد اختاره الله وقربه إليه فأبوه لا يقبل منه إلا الزعامة ، وقد أكد على هذا كثيرا حين قال في مكان آخر «ومن أحسن ما استظرفته من حاله (أي أبيه) أنه بلغه عني أن الصبيان في لعبهم قد انقسموا شطرين على ملكين فكنت أحدهما فسر بذلك سرورا شديدا إذ لم أرض فيهم أن أكون تابعاً بل متبوعا في صغري» .

في ضبطه وضغطه»[6] ففي المكتب حفظ القرآن أو كما أشار ختمه «أربع مرات بل ثلاث مرات وما حصلته لأني لست برائع الحفظ مثله» هل هذا مجرد تواضع منه أم أنه تعبير عن استياء من طرق تربوية كانت غير مجدية ؟ ومما يؤكد ما سرنا إليه الاعلان الواضح الذي عبر عنه ابن أبي محلي حين قال «... مع نفوري من المكتب ، لولا شدة ضبطه ، وقهره» إن الكلمات المستعملة تبين بوضوح سلبيات الشدة في التعليم لأن النتائج لا تصل إلى طموحات الآباء عادة فإبن أبي محلي يعترف بصراحة بفشل أبيه وربما بفشل الشدة في التعليم بقوله «وفي الرابعة لفقته فقط تلفيقا لا يوثق به من التخليط في الرسم»[7] هل كانت كل العائلات ترسل بأبنائها إلى المكتب ؟ ألم تكن للأطفال مساهمات ومسؤوليات أخرى ؟ لم يتحدث ابن أبي محلي مباشرة وبتفصيل عن هذا الموضوع لكنه كان يفتخر باشتراك أبيه إياه في بعض المسؤوليات دون إخوته «كما كان يعتمد عليّ دون اخوتي في مهمات أموره[8]

من الصعب معرفة ما إذا كان العلم في متناول الجميع وهل كانت كل العائلات تعمل على تشجيع أبنائها على التعلم كما كان يفعل أبو ابن أبي محلي الذي سعى دائما إلى صد أبنائه عن أمور الدنيا[9] هل باستطاعة كل العائلات الاستغناء عن بعض أبنائها ؟ ثم هل تستطيع مساعدته في أسفاره لطلب العلم كما كان والد بن أبي محلي يفعل[10]

---

(6) «ا» 59

(7) لعل موقفه من هذه المناهج هو الذي جعله يلجأ في دراسته من بعد إلى الاعتماد على النفس ، وإلى طرح الأسئلة باستمرار على العلماء وقد تسبب له هذا في سخط بعض العلماء وقد أنشد في واحد منهم مرة

فمالك يا أستاذي تنفر من قولي أتزدريني لسني أم قلت لا يعني

انظر في هذا الموضوع «ا» 60 و 65

(8) «ا» 59

(9) لأنه كان ميسورا ولا يحتاج إلى من يعمل في ممتلكات العائلة ، كما كان فقيها يكن احتقارا إلى بعض المهن ، لذا لجأ إلى تشجيع ابنه على العلم ، وكان يقول له «إن لم تقرأ فما تكون ؟ أفرانا أم طراحا أم بقالا أم جزارا ؟ يمكننا هذا التصنيف من أخذ فكرة على موقع الحرف داخل المجتمع الواحد

(10) هل باستطاعة كل الناس إرسال أبنائهم إلى فاس للتعلم كما فعل والد ابن أبي محلي الذي أرسل ابنه الأول أبا عبد الله الذي كان أكبر من أحمد وأرسل معه وصيفا ثم جاء بأحمد كذلك «فلما أدرك صنوى قبلي سن السفر في طلب العلم كالضفر شيعه والدنا بوصيف يخدمه ويمونه ليتفرغ لما هو بصدده من العلم وقد رَاَهقَت أو كدت الحلم فحينئذ ارتحل بي والدي إليه بوصيف آخر مثل الأول لنستعين به مع أخيه» . الاصليت : 58 .

# 2 مرحلة التعلم «بالمدينة المنورة أو البهجة البيضاء (فاس)»

## (980 - 986 هـ / 1572 - 1578 م)

يمكن اعتبار دخول أحمد بن عبد الله إلى فاس تحولا ومنعطفا حاسما في حياته لقد انبهر عند دخوله مدينة فاس[11] وشعر بالحسرة التي يشعر بها كل واحد يزور المدينة لأول مرة، وقد عبر عن هذا الحزن بقوله «كانت رحلتي لفاس مع أبي حتى دخلنا المدينة المنورة بعلمائها في الوقت فجاء بي والدي من سياسته يوما إلى المستودع المشهور بالقرويين خلف الصومعة في آخر الصفوف[12]، والجامع بالذكر ودراسة العلم كاد ينقلب بأهله، وفي كل ناحية منه حلقة وعلى كل كرسي معمم من الشيوخ، فشاهدت أمرا ما عهدته، فرق قلبي وحضرني من عقلي ساعتئذ ما لم يكن عندي قبله فشجاني حالي لما أبصرت أقراني من أبناء فاس قد حصلوا من العلوم حفظا وفهما ما يعجز عنه في بلدنا من هو أسن بكثير فاقترحت من قريحتي ...»[13].

(11)انبهار ابن أبي محلي يوضح لنا مكانة فاس العلمية في الفترة التي تعنينا ، وتقدمها بالمقارنة مع سجلماسة التي جاء منها وربما حتى بالنسبة للمراكز الثقافية الأخرى

(12)يبدو أن مكانة الطلبة العلمية ، وقدمهم في جامع القرويين كانت تحدد الصفوف لاشك أن المبتدىء يجلس في الصفوف الخلفية

(13)هل الموقف المعبر عنه هنا هو نفس الموقف الذي تبناه منذ ست وثلاثين سنة أم هو موقف أصبح مبنيا على التجارب والمعرفة التي أصبحت لديه عندما ألف الكتاب سنة 1016 هـ .
أنظر الاصليت 59 .

عرفت حياة ابن أبي محلي منعطفا حاسما من بعد دخوله فاس ، حيث أصبح مستقلا في قراراته وبعيدا عن ضغوط أبيه ولكنه ، على ما يبدو ، لم يستفد كثيرا من الناحية العلمية   من هم شيوخه في هذه الفترة ؟
وما هي العلوم التي درسها عليهم ؟

| | | |
|---|---|---|
| أبو القاسم بن القاضي الفاسي | علم الأدب والنحو | |
| أبو العباس أحمد القدومي | القراءة والنحو | |
| أبو محمد عبد الله المزياتي | النحو | |
| الشريف التلمساني | النحو | يوم واحد |
| الامام المنجور | الحديث | ليلة واحدة |
| محمد بن أبي عبد الله المديوني التلمساني | التصوف | |

نلاحظ أن اهتمامه في هذه الفترة انصب أساسا على اللغة والنحو وهي من نصائح والده، لكن اتصاله بالمديوني سيجعله ينفتح على عالم التصوف وبالتالي سيدخل مرحلة الانعزال

# 3 ابن أبي محلي ينعزل للتصوف

(987 1001 هـ / 1579 - 1594 م)

لماذا انعزل ابن أبي محلي في هذه المرحلة ؟ وما هو دور الأزمة التي عرفتها البلاد(14) قبيل معركة وادي المخازن وأثناءها في اتخاذه قرار الانعزال(15) ؟ ، نريد أن نؤكد هنا على الجوانب النفسية التي – ربما – كانت من وراء قراره إما بطريقة شعورية أولا شعورية كان لوفاة أخيه وقع كبير على نفسيته لأنه فقد فيه المرشد والحامي في مدينة أدهشته ؛ كما أن الخوف من محاصرة النصارى للمدينة أولا ثم شعوره بالندم(16) ثانيا جعلاه يتخذ هذا القرار الذي تسبب له في مشاكل كثيرة مع أبيه كما أشرنا إلى ذلك سابقا ثم ألا يمكن أن نقول بأنه وجد سندا في الشيخ أبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري في وقت كان يبحث فيه عن اطمئنان نفسي ؟

عرفت حياة ابن أبي محلي منعطفا جديدا مباشرة بعد رجوعه من الحجة الأولى لأن الله قد شفاه من الأحوال من بعد ما «شرب ماء زمزم» لذا لجأ إلى إثبات النفوذ في وادي الساورة

- سنعود إلى هذه النقطة بتفصيل عند تناولنا لمواضيع الاصيت

(14) «يلعب الأفراد ، أدوارا داخل المؤسسات الاجتماعية لهذا يبقى فهم هذه المؤسسات مرتبطا بفهم تلك الأدوار» في C.W.Right. Mills. L'imagination sociologique MASPERO 1977 p 164 - 165.

(15) أنظر ما أشرنا إليه حول هذا الموضوع ، في الظرفية العامة والتصوف

(16) كان لانتصار المسلمين في معركة وادي المخازن دوي كبير وظهرت على إثره ملامح بطولية في كل مكان لاسيما في جامع القرويين ، ربما كثر النقاش في الموضوع ، وعرف الذين لم يساهموا ونعتوا بالأصابع ألا يمكن أن تكون هذه الأسباب من العناصر التي دفعت بابن أبي محلي إلى الانعزال ؟ .

# 4 العودة إلى الساورة أو مرحلة توطيد المكانة
## (1002 - 1019 هـ / 1594 - 1610 م)

يمكن التمييز بين مرحلة توطيد النفوذ عن طريق المراسلات الاخوانية، ومرحلة العنف في التأليف والممارسة

### مرحلة توطيد النفوذ بالمراسلات والاتصالات 1002 - 1012

نجد رسائل كثيرة داخل تآليفه تتعلق بالمرحلة الأولى التي تمتد من 1002 إلى 1012هـ وتدور مواضيع هذه الرسائل حول اعتراف بعض العلماء له بالقطبانية وبأنه «شمس زمانه»(17) أو المطالبة بالانخراط في سلكه «فأردنا، سيدي الانضمام في عقدكم والانخراط في سلككم فلا تمنعونا سيدي إبعثوا لنا سبيحة من أيديكم أو غير ذلك كشاشية من فوق رأسك لتكون عندي البركة»(18) يبدو أنه كان على وعي بما يريد أن يصل إليه، أي اعتراف العلماء له بهذا المركز فهو يقول «شهادة الفحول الأقطاب والراسخين في العلم من حضرة فاس ومراكش ودرعة، وسوس، وسجلماسة، وفجيج وتلمسان وتونس

(17) ابن محلي ، مخطوط المنجنيق ضمن مجموع مسجل بالخزانة العامة تحت عدد 338 ق ورقة 235 والرسالة مؤرخة ب 1005 هـ وأخرى بنفس الورقة مؤرخة ب 1008
ابن أبي محلي ، مخطوط السيف البارق ، ضمن مجموع مسجل تحت عدد 338 ق ورقة 441 و 442 تاريخ الرسالة 1012 هـ

(18) المخطوط السابق ورقة 247 ، تاريخ الرسالة 11 جمادى الأولى 1012 هـ .

بعد الجزائر وغيرها من سائر البلدان[19] إذا كانت هذه المرحلة تتميز بالسلم وبالبحث عن السبل التي تمكن من توطيد النفوذ فإن حياة ابن أبي محلي في المرحلة الثانية 1012 - 1019هـ قد عرفت اضطرابات كثيرة لعل أعنفها الصراع الذي خاضه ضد عبد القادر بوسماحة

## مرحلة العنف أو أبعاد صراعات ابن أبي محلي

### مع الشيخ عبد القادر بوسماحة 1012 - 1019 م

ما هي العوامل التي كانت من وراء هذا الصراع ؟ هل هو صراع عقائدي ؟ أم صراع من أجل الزعامة ؟

إن الاجابة صعبة لا سيما وأن الرجلين قد تعايشا مدة ، من 1008هـ، وهي السنة التي تم فيها اللقاء فيما بينهما لأول مرة ، إلى 1012 وهو العام الذي «صاح» ابن أبي محلي فيه على صاحبه وجد هذا الأخير صعوبة كبيرة في اقناع الناس لأنه تصاهر مع عبد القادر السماحي هل حقا حاول هذا الأخير تسميم ابن أبي محلي «وفي الأيام التي كنت فيها بدار المتهم الخبيث وقد ظهرت مخايل غدره وأوائل مكره فعلمت أنه أريد بي ولما يلبث من ذلك فما جرى به على قلم قضائه بعث إلي المتهم بدواء لأستعمله من خبثه كأنه يهزأ بي أو يتهكم»[20] إذ سبق له أن لاحظ بأن داء قد أصابه وكاد يموت وجعا منه «إذ آل أمري إلى أن كنت أومىء بشيء كأنه قطع كبدى من الداء القتال الذي سقيته أو أطعمته يومئذ في داره بالظن الراجح»[21] هل حقا حاول عبد القادر قتله ؟ ثم ما هي التهم التي أصبح ابن أبي محلي يوجهها إليه ؟

لعل أخطر التهم التي وجه ابن أبي محلي للسماحي هي ادعاء هذا الأخير إحياء الميت «إن كنت تحيي الموتى كما حكاه لنا عنك الصدوق الفقيه أبو عبد الله محمد الوثيقي ، وإنك تفوهت به في جمع غفير لا يمكنك إنكاره وأن الميت الذي أحييته بزعمك بتر هو من قبيلة النظر لما أبو الصلح في دعواك إلا أن تحيي قتيلا بينهم لعزتك على مولاك وإنك عندما طلبوا منك ذلك قلت لهم هاتوا لي الشانوج من الشونبر أيضا في اللغة القديمة وهو إن كان دواء بالنسبة لكل داء فإنه لا ينفع

(19) المخطوط السابق ، ورقة 434

(20) مخطوط السيف البارق ضمن مجموع ق 358 ورقة 431 و 433 .

(21) نفس المخطوط والصفحة .

عند نزول السام وهو الموت ، فكيف بعد خروج الروح من الجسد تعيدها أنت يا دجال ثم إنك صببته في أنفه فقام حيا والناقل المذكور عنك يقرر عليك ليشهد»(22) اعتبر ابن أبي محلي هذه بدعة لا يمكن السكوت عنها لذا نصب نفسه للخصوص فيها وأنه لن يسكت «حتى يحكم الله بيننا»(23)

أما التهمة الثانية التي وجهها ابن أبي محلي لعبد القادر هي تأخيره لصلاة العصر فهو «يواظب على إخراج الصلاة المفروضة عن وقتها المختار فذا وفي الجماعة دون عذر شرعي كالعصر هل يصح مع كذبه أن يكون وليا»(24)

لعل التهمة التي ركز عليها ابن أبي محلي هي الخلو بالأجنبية لقد أعطى عدة حالات في الموضوع ، وبين أنه كان يسمع صوت النساء حين كان نازلا عنده ، بل هاجم الذين يرسلون إلى السماحي زوجاتهم أو أخواتهم وسمى كل من فعل ذلك بديوتي بعث سؤالا في الموضوع يقول فيه «وهل من يرسل إليه خليلته أو أخته أو بنته أو وليته أو يدعها تمضي إليه ليجعل فمه في أذنها أو قريبا منه أو بحيث يرى هو ديوتي أم لا ؟»(25). بل أورد قصة عنيفة في الموضوع تستحق الوقوف عندها لأنها تعطي فكرة عن بعض الممارسات التي ربما كانت يومية «ويكفيك سيدي ما فعله بالمرأة الغواطية ، وكانت ذات حسن وجمال ، راودها عن نفسها على ما أخبرني به بعض فقهائهم ، فأبت ، وخاف من إفشاء ذلك فأمر برجمها وانها عصت الله ، فأتوه بها مكتفة بعد أن حفر لها زبية فأمر برجمها فأساء الناس ذلك وأخذوا يضربونها بأحجار صغار فعمد إلى صفاة عظيمة ، وطرحها عليها وقال إن قتلتم فاحسنوا القتل وبعد ذلك صلى عليها وقال كل من صلى عليها من أهل الجنة(26)»

تطرح هذه النصوص بعض المشاكل لماذا رفضت بعض القبائل الامتثال إلى قراراته ؟ ألم تكن المشاكل المادية حاضرة ومؤثرة في هذه العلاقات ؟ هل عارضته

(22) م السيف البارق ورقة 371 و 372 و 451

(23) نفس المخطوط ورقة 372

هل حقا ادعى ذلك إننا لا نتوفر على ما يثبت ذلك لأن حجج ابن ابي محلي تعتمد على الرواية الشفوية ، كما أن أصحاب عبد القادر السماحي قد نفوا هذه التهم عن شيخهم

(24) ابن أبي محلي ، مخطوط السيف البارق ، ورقة 375 و 377

(25) نفس المخطوط ورقة 374

(26)ليس المهم هنا وقوع الحادثة أم عدم وقوعها ولكن المهم هو الحدة في العنف الذي كان يهيمن على المنطقة التي لا تسمح للضعيف أن يعيش إلا في ظل حماية دينية أو قبلية مما يلاحظ هنا هو غياب السلطة المركزية اننا نوجد في الهامش في أبعاده المتنوعة هامش جغرافي ، هامش سياسي ، هامش ديني ، الولي يأمر بالقتل لأن العقاب فيه رحمة للمذنب وللمنفذ . انظر ابن أبي محلي ، السيف البارق ، 423-424 .

بعض القبائل من بني عمومته ؟ «ولقد كان بنوعمه (عبد القادر) أولاد سيدي عبد الله ينازعونه في أمر دنيوي فاستغاث عليهم بالعرب فلم يتصدوه عليهم وحيث خلت الصحراء من حميان ذهب لأغواطه الذين قطع الله دابرهم فجاؤوه بجيش عرمرم وإخوته بالتل عدا نسائهم بربرا ببلادهم فخاضوا وعاتوا حتى فعلوا بنساء اخوته ما شاء وبأمره ورضاه وأسقطن بعض الحوامل من شدة الفزع وقطع شجورهم[27] حتى صالحوه على كذا وكذا عن دعوى واهية»[28] لقد اتهمه ابن أبي محلي «بأكل أموال الناس بالباطل»[29] كما اتهمه بجمع الزكاة وبعدم توزيعها على من يستحقها بل يحتفظ بها لنفسه

جعلتم زكاة العرب شرقا ومغربا حظوظا لنفسكم ولم تك تقتنع
أخذتم منا الأعراب أثمان جاهكم فجل اكتسابكم من الجاه ينبع[30]

يظهر أن احتداد الصراع ناتج عن هامشية المنطقة بالنسبة للمراكز السياسية فالأتراك يعانون من أزمات كثيرة بالشرق والسعديون يعانون من ويلات الأزمة ، ومما يؤكد ذلك لجوء عبد القادر السماحي إلى تقديم رجل على أنه السلطان زيدان ، وطلب من الناس أن يبايعوه «إنه من سفاهته – يقول ابن أبي محلي – ووقاحته وفضيحته في يوم عيد الفطر الذي في سنتنا هذه[31] بشهادة جميع أهل فجيج ، قد أظهر لهم رجلا متلثما فقال لهم انصروه فإنه مولانا زيدان فنصروه عن إذنه وإن شك فيه بعضهم ، فما هو إلا أن كشف الغيب بعد أمد قريب أنه من سراق بعض البلدان اسمه عبد الرحيم[32]»

ألم تكن لهذا الصراع أبعاد أعمق[33] ؟ إن أبعاد الاختلافات فيما بين الرجلين كثيرة فالشيخ عبد القادر السماحي من الأولياء الأميين الذين ربطوا حياتهم بالعامة على ما يبدو ، لذا كان يعيش هموم الناس اليومية ولاشك أنه كان أقرب مسافة منهم ، وربما كان يلجأ إلى مخاطبتهم بالملموس ، بما يفهمونه ، وربما كان فيه الولي ، والطبيب والوالد بل ربما كان يبتعد أحيانا عن الاسلام كما يفهمه الفقهاء والعلماء ،

(27) لعلها أشجارهم
(28) ابن أبي محلي ، السيف البارق ورقة 424
(29) ابن أبي محلي ، مخطوط السيف البارق ورقة 375
(30) ابن أبي محلي ، مخطوط *المنجنيق* ورقة 196
(31) بما أن المخطوط (السيف البارق) ألف سنة 1017هـ تبقى السنة المشار إليها هي سنة التأليف
(32) مخطوط *السيف البارق* ورقة 451
(33) يرى جاك بيرك أن هذا الصراع كان صراعا عقائديا يكمن التعارض فيه فيما بين الاسلام الصحيح والاسلام المعاش .

Jacque Berques, *Ulemas.*, op. cit., PP. 59-60

ويظهر أن هذه الممارسات لم يكن ابن أبي محلي العالم المتشبث بالسنة ليقبلها لاحظ عبد الله العروي بأن انتشار التصوف العامي بالبوادي المغربية يرجع أساسا لاهتمامه بحياة الجماعة وبتهميشه لحياة الفرد(34) فالشيخ عبد القادر السماحي كان في ومع حياة العامة بل ساند أصحاب «البدع» المهمشين المنبوذين أمثال العكاكزة وقد اتهمه ابن أبي محلي بأنه منهم ، فالمواجهة إذن ضرورية لأن هذا الأخير كان متشبعا ومتعمقا في العلوم النقلية والعقلية وتخلى عن الأحوال ، وأصبح ينادي بتصوف رباني صافي ، تصوف النخبة المثقفة ، كان يراسل العلماء ، والفقهاء وشيوخ القبائل ، وأما كلامه عن العامة فهو خطاب احتقاري فهم «الجهال» «الهمج» لقد اعتنق التصوف السني الصافي كما اتخذ الطريقة الحرارية الجزولية الشعبية وقرر التوقف عن تصوف الأحوال لم يبق الصراع منحصرا في الكلام نظرا لتعارض المصالح بل أصبح ابن أبي محلي يتهم الشيخ عبد القادر – بالاضافة إلى محاولة تدميمه – بتحريض أصحابه على نهب وقتل أتباع ابن أبي محلي وفي هذا الصدد قال هذا الأخير «أمر بقتل أصحابنا حيثما هم بفجيج وبعدما أمر العامة بنهب أموال أولاد سيدي محمد بن عبد الجبار(35)» لماذا هاجر ابن أبي محلي من سجلماسة إلى الساورة ؟ لاشك أن لهذا الصراع يدا في ذهابه إلى قرى بني عباس وهو يشعر بالحسرة «وسبب انتقالي من بلدي سجلماسة للوادي ، لما يدري الله من كيد الأعادي على مقتضى سابق علمه وكما جرى به القلم في اللوح من غير مرادي(36) لقد خصص ابن أبي محلي صفحات كثيرة للسماحي إلا أن صراع القلم قد انتهى بعد تسليم العرائش لأنه قرر أخذ السيف

(34) Abdallah Laroui, *L'Histoire du Maghreb...*, P 230.
وقد نضيف ما أشار إليه الأستاذ محمد القبلي «فامتناع الصوفية عن تزكية السياسة الجبائية منذ القرن الرابع عشر سوف يساهم في توسيع شعبية الصوفية بالأرياف والجبال»
محمد القبلي ، *مساهمة في تاريخ التمهيد لدولة السعديين* ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد 3 و4 ، 1978 ، ص 4

(35) أصبح السماحي يهاجم كل من يقف ضده كما فعل بأولاد نهار على حد قول ابن محلي : «لقد وقعت نازلة ، بل موت ولده صائلا في نهار رمضان على قافلة البرءاء المساكين الفقهاء أولاد نهار بلا سبب سوى الظلم ، والتعدى ، فأخذوا القافلة كما علمت بوجه لا يحل بالاجماع وأراحوها لخيامهم وأكلوا الثمر في رمضان وأزالوا الفطرة منه» انظر *المهراس* ، ورقة 16 *والسيف البارق* بالنسبة للنص الأول ورقة 451

(36) الاصليت 104 يتعارض ما جاء به ابن أبي محلي هنا مع ما وصل إليه D.J. Meuniè الذي اعتقد بأن هجرته للساورة كانت خوفا من المنصور
D.Jacques Meuniè, *Le Maroc Saharien*, op. cit, T.II, PP. 590-591.

## الفصل الثالث

# ابن أبي محلي ، الثورة

### 1019 1022 هـ 1610 - 1613 م

تعكس حركة ابن أبي محلي العسكرية أقصى ما وصلت إليه شخصيته داخل المناخ المتأزم الذي عرفه المغرب لا سيما في المراحل الأخيرة من حياته ، هل كانت حركته عفوية ارتبطت بتسليم العرائش لاسبانيا ؟ أم أن لها جذورا عميقة ارتبطت بالمجال الذي عاش فيه ابن أبي محلي وبالتحولات التي عرفتها المنطقة التي كان ينتمي إليها ، في علاقاتها بالمركز ؟ ماهو نوع العلاقات التي كانت موجودة فيما بين القصور في غياب السلطة المركزية ؟ هل استفاد ابن أبي محلي من القصور في حركته ؟ كيف ؟ هل كان له برنامج واضح أم لا ؟ ما هي الأسس التي بنى عليها حركته ؟

# 1 الأسس المادية والمعنوية للثورة

## ـ المؤهلات العائلية مكنته أن يكون متبوعا لاتابعا

عرفت أسرته برياسة – العلم وخطة القضاء

وجد ابن أبي محلي ، في محيطه العائلي سندا مكنه من تذليل الصعاب وكذلك من احتلال مركز اجتماعي مرموق ، وساعده على أن يكون «متبوعا لا تابعا» افتخر كثيرا بانفراد أسرته «برياسة العلم وخطة القضاء» منذ زمن بعيد «وأما جدودي فهم قضاة بلدنا سجلماسة ، قبل انكسار جفنها في دولة بني مرين ، وقبل ذلك أيضا فيما أرى – والله أعلم – والحكاية مشهورة بين الفقيه القاضي ابن عاقلة التميمي مع من عاصره من أسلافي في تنازع خطة القضاء[1] ببلدنا عند السلطان المريني حيث قال لنائبه في البلد يومئذ ما معناه سرف ابن عاقلة بيابس أو حتى يأتيه اليقين ، وأقر ابن أبي محلي في قضائه وبخطة القضاء اشتهر نسبيا في بلادنا حتى الآن ولم تزل بقية العلم في دورنا خصوصا دار أبي في إخوته

(1) تعتبر خطة القضاء من المهن المربحة ماديا ومعنويا نظرا لارتباطها بالسلطة من جهة وبمصالح الناس من جهة ثانية ، الملاحظ أن بعض العائلات قد اشتهرت بهذه المهن أبا عن جد هل هذا يعني أن الأسر كانت تسهر على المحافظة على مثل هذه المهن لدرجة الوراثة فأولاد القاضي تنازعوا القضاء مع عائلة التميمي بن عاقلة وتدخل المخزن المريني لصالح أولاد القاضي ألا يمكن أن نربط تقوية نفوذهم في هذه الفترة بالذات بمساندة السلطة لهم ؟ على كل فالظاهرة وجدت في أماكن إسلامية أخرى أنظر عائلة البربوعي في طرابلس
أبو سالم العياشي ، *الرحلة* ، 1 : 61 – 62 .

وبنيه»(2) فالعلم كان من أسباب الترقية الاجتماعية إذا لم نقل أهمها(3) حيث كان العالم يؤثر على السلطة والمجتمع ، فهو حارس الشريعة كما كان العلم من الشروط المفروضة في أهل الاختيار كما ألح على ذلك الماوردي(4) إن أهمية العلم بالواحات كانت كبيرة ولم تكن كما رأينا في متناول الجميع

## ب- ابن أبي محلي والنسب العباسي

أسرة أولاد أبي محلي النسب العباسي

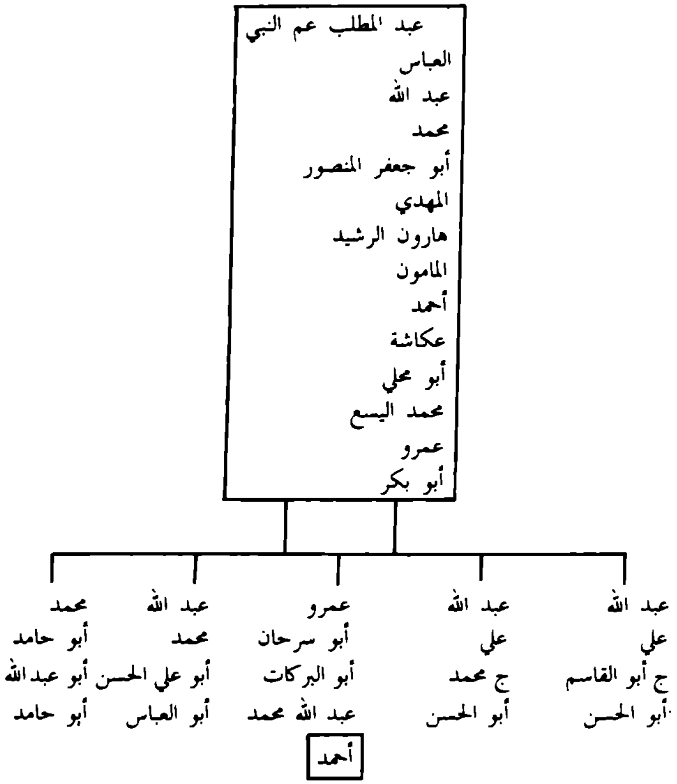


(2) الاصليت 50

(3) بين ابن خلدون كيف يمكن العلم من الجاه ، والجاه يمكن من المال حين قال «وفاقد الجاه ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وهؤلاء هم أكثر التجار نجد كثيرا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا ، وحسن الظن بهم واعتقد الجمهور في أرفادهم فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم أسرعت إليهم الثورة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى».
ابن خلدون ، *المقدمة* ، دار الشعب بدون تاريخ ، ص351

(4) الماوردي ، *الأحكام السلطانية* ، باب عقد الأمانة .

لا ينطبق معيار ابن خلدون على سلسلة جدود ابن أبي محلي لأن عددهم أقل بكثير مما هو مفروض (3 أجيال في القرن) يبدو أن ابن أبي محلي نفسه غير مقتنع بما أورد فهو يقول «ومن بدّل وغير فالله حسيبه وإنما يحكم في الشرع بالظاهر وإلى الله ما وراء الستائر»

**أسرة أولاد القاضي**

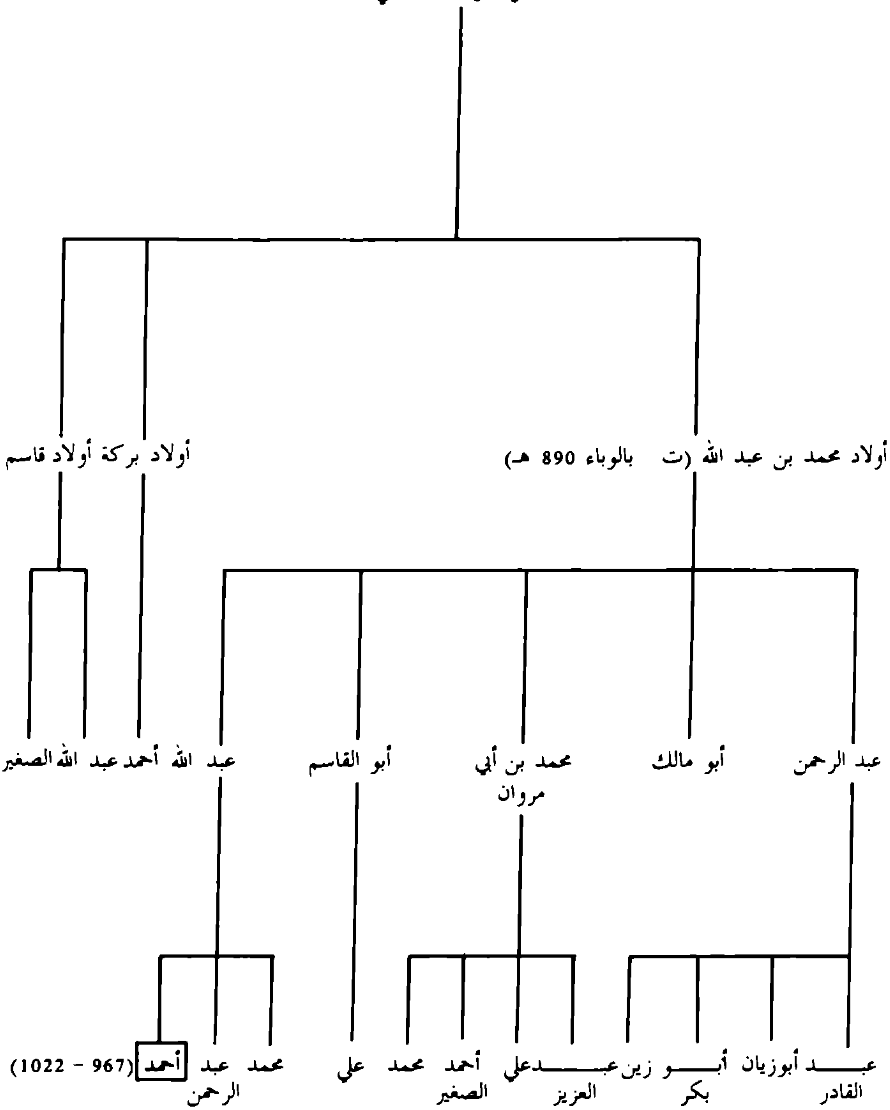

وعـــنصر الـــنسب إذا صفـــا لم يزده التقى والعلم والحسب إلاّ شرَفاً[5]

أورد ابن أبي محلي عدة روايات ليبين أنه من أصل شريف سواء من أمه أو أبيه ، ينحدر أبوه من العباس بن عبد المطلب عم النبي «وأما نسبي الجثماني الذي هو فرع وجودي فالذي تلقيته من والدي – عفا الله عنه إن النسبة للعباس بن عبد المطلب عم النبي»[5] وأما أمه فهي من أولاد رحو من الأشراف الأدارسة[6] تحدث بسهولة عن قبيلة أولاد أبي محلي وذكر أنها خرجت من مكناسة لسجلماسة لتعلم الناس العلم وأن لهم إخوة بتلمسان ونلاحظ أنه يلجأ دائما إلى الازدواجية في النسب عن طريق الأبوين ، ازدواجية في الانتماء ، ذكر له والده وأولاد عمومته بأنه عباسي ، لكنه اكتشف اعتمادا على أحمد بن أبي القاسم الصومعي ، التادلي بأن أولاد أبي محلي ينحدرون إما من «مغراوة الذين كانوا ملوكا» وإما من «لمتونة» وهذا مخالف لما تلقاه من «أسلافه» ، هل هذه الازدواجية عفوية أم مقصودة ؟ من الملاحظ أن ابن أبي محلي لم يتعصب لنسبه ، بل أبدى ملاحظة حول اختلاط الأنساب في المغرب ، ومن تم أصبح من الصعب الوقوف عند «احقيقة» «وقد دخل بنو هاشم وغيرهم من قريش وسائر العرب المغرب وغيره من الأقاليم عند البساط الاسلام في الأقطار ، فاختلطت الأنساب العجمية بالعربية بالجوار والأصهار وعند الله حقيقة ما عند المؤرخين في كثير الأسطار»[7] ونضيف ما أشار إليه محمد القبلي ، معتمدا على ابن خلدون في دفاعه عن شرف ابن تومرت حين أشار إلى الاضطهاد الذي وجهه المروانيون وازناتيون ضد الأدارسة فاضطروا إما للصمت أو «انسلخوا من نسبهم وليسوا جلدة» عصبيات بربرية[8] ناقش ابن أبي محلي دخول الشرف العباسي للمغرب ، فوضح بأن هيمنة الشرف الفاطمي ترجع لموقف العبيديين وتعصبهم لهذا الشرف دون سواه «إنما اختص الفاطميون باسم الشرف دون غيرهم من أهل البيت العباسيين والجعفريين وغيرهما إن ثبت وجوده من لدن دولة العبيديين فقط حين دخلوا مصر فحملوا الناس على ذلك وقصروا اسم الشرف على بني فاطمة تعصبا لأنهم ينتسبون لذلك المجد العلي وقد قفاهم منه غير واحد من أكابر العلماء ، وجمهور الأمة على أنهم في ضلال

---

(5) الاصليت 105

(6) الاصليت 108 ط ذكر بأنه وقف على شجرة شرف إدريسية لم يذكر مصدرها ومن جملة ما وجد فيها «سجلماسة البرازيز الميامين» وأمه تنحدر منهم

(7) الاصليت 104

(8) محمد القبلي ، مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين *مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية* العدد الثالث والرابع ص 13 .

بعيد ومهذبهم ليس في شيء من المعروف وهو الحق الذي لا مرية فيه»[9] يبدو أن ابن أبي محلي كان واعيا باختلاط الأنساب ، لذا رجع إلى الاعتماد على «الشهرة والاستفاضة في ثبوت النسب كافية شرعا»[10] الاعتماد على ما هو مشاع من أجل توظيفه ، وأسرته معروفة بعلمها وشرفها ، ومما زاد من علو سموها الاجتماعي كثرة أملاكها

## - مؤهلات الثورة المادية

يبقى نظام الملكية في الواحات الأساس الذي تنبني عليه العلاقات الاجتماعية ومصدرا من مصادر التمايز فيما بين العائلات لا شك أن ندرة الملكية وكثرة السكان أديتا إلى ترسيخ وتعميق هذا التمايز[11] بل كانت مساهمتهما في بناء مجتمع الواحات مساهمة حاسمة أدى هذا التمايز إلى توترات اجتماعية داخل الأسرة ، أو داخل القصر أو فيما بين القصور إما على ملكية الماء أو على ملكية الأرض[12]

ومما يؤكد أهمية الملكية الملاحظات التي أوردها ابن أبي محلي في هذا الصدد حيث أعطى معلومات تشير وتسعى إلى إثبات ممتلكات العائلة «فائدة للأبناء خصوصا لما توفي جدي الأقرب محمد بن عبد الله ، وكانت له أصول كثيرة في غير موضع من سجلماسة[13]» وهو يتكلم على أحواله أشار إلى زاوية أعمامه المعروفة بزاوية السيد أبي عبد الله[14] أشار كذلك إلى بعض الممتلكات الأخرى» إنما سكن جدي وجده معهم على بساتينه فقط لكثرتها بينهم وفي كل موضع أيضا[15]» يبدو أن أصول عائلته كانت كثيرة ومتفرقة لقد سعى الجد المشار

(9) الاصليت 25 ، 26 و27

(10) الاصليت 104

(11) انظر ما جاء به أ العربي مزين في هذا الموضوع LARBI MEZZINE, op. cit, p. 268 et 355

(12) من بين الصراعات العائلية في شأن الملكية صراعات خاضها والده مع عميه ، اضطرب في شأنها قضاة سجلماسة فأحيلت على مجلس السلطان الذي حكم فيها لعميه الاصليت 107.

الاصليت 107.

– حول تغوير ماء سجلماسة تساءل ابن أبي محلي على إمكانية مشاركة أهل سجلماسة في ملكية أهل الرتب أم لا ؟ لأن هذه القصور التي توجد في الأعلى تسببت في تغوير ماء سجلماسة

(13) الاصليت 108

(14) أين تقع زاوية أوزوايا أولاد القاضي ، لا يعرف بالضبط أين تقع ، توجد زوايا كثيرة بتافلالت في منطقة عرفت «بالزوا» ، اعتقد جاك Jacques Meuniè بأنها ربما زوايا أولاد القاضي ، في حين أن العربي مزين بين من خلال هذا التجمع أهمية المقدس في تافلالت

ابن أبي محلي تحدث عن زاوية واحدة لعائلته .

(15) الاصليت 59 .

إليه والمتوفي في عام 890هـ ، بالوباء إلى جمع الأصول ويظهر من خلال ما جاء به ابن أبي محلى أن الأسر كانت تحافظ على أصولها بعدة طرق عن طريق الحبس وهي ظاهرة تكلم عنها ابن أبي محلي بكثرة «فائدة أما عبد الله ويحي فلا أعلم لهما معنا إلا ما كان من موسى الذي هو في طبقة والدي لأن له شركة في هذا الوقف البركاوي[16] أشار إلى كثرة الأصول المحبسة أو الموهوبة «وهب الفقيه الأجل القاضي الأعدل الأسنى الأكمل الحاج أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الأجل القاضي الأعدل الأسنى الأكمل الحاج المرحوم أبي عبد الله بن الفقيه العدل المرحوم أبي محمد أبي البركات بن أبي محلي لأولاده[17]» نلاحظ أن الهبة قد تكون للأولاد لا لولد واحد ، ويبدو أن نظام الملكية في الواحات كان يحرم المرأة بطريقة أو بأخرى من الارث[18] حتى لا تخرج الأصول من النسب وان الأسرة التي لا ذكر فيها تكون مهددة بالانقراض «عبد الله الذي أمه عائشة بنت عبد الواحد عم أبيه زوجها الهالك محمد بن الحاج بجميع ما خلفه وإنه لا ذكر له غيره يومئذ يرث عنه فاستقل بعد انقراض إخوته لشرطه[19]»

كيف وظف ابن أبي محلي جاهه وماله في تعامله مع المحيط القبلي الذي كان ينتمي إليه ؟

من الصعب ضبط أنواع العلاقات التي ربطها ابن أبي محلي مع القبائل التي تعيش في الهامش ؛ لكن نستطيع من خلال بعض الاشارات التي أوردها رصد حركية وطبيعة هذه العلاقات يبدو أن غياب السلطة المركزية ساعد على تنشيط المؤسسات الاجتماعية المحلية التي حاولت أن تحل المشاكل التي كانت تطرح ومن ضمن هذه المشاكل الصلح «فما زلت كذلك حتى سعينا مع من شاء الله من أعيان تيجرارين ومرابطيها وفقهائها بإشارة منهم في الصلح بين قبائلها لشر طويل كان بينهم أظلمت منه البلد وما حولها ، فنهضنا من الزاوية لذلك عامدين شيخ دغاغ الشيخ علي بن موسى ببلده ليعقد الصلح عنده فانعقد معه ومع شيوخ أهل

(16) الاصليت 107 ظ

(17) الاصليت 109 ظ

(18) حرمت من الارث واستعملت من جهة ثانية في توطيد النفوذ ، لاشك أن المصاهرة كانت تستخدم في كسب الجاه ، زواج ابن محلي من قبيلة بني عباس ومن قبيلة بني جومي بالاضافة إلى زواجه من بنت عبد القادر وقد قال عن هذا الأخير «بعد أن أخذ الوثيقة عنه بالمصاهرة وأكدها بمثلها منه احتياطا وكأنه يريد بي مثلها فأبيت» ابن أبي محلي ، *المنجنيق* ، ورقة 218

(19) الاصليت 107 ظ .

حيحا ومن تبعهم من الفريقين فتم ذلك بحمد الله[20]» الملاحظ أن الصلح كان معتادا وربما تخصص فيه بعض الأعيان ، ربما استفاد ابن أبي محلي من هذه العمليات ، التي يبدو أنها كانت كثيرة في مجتمع تكثر فيه الحاجة إلى كسب الضروريات ، التي تتميز بالقلة إن قساوة العيش تدفع بالناس إلى ممارسة السطو والنهب ، لكن التعايش يفرض تدخل المؤسسات المقدسة لاستعادة التوازن كانت بعض القبائل أو بعض الفئات تستغيث بابن أبي محلي من أجل حل بعض المشاكل كما فعل معه أهل تافلالت «كتب شيوخ البلد وتجارها ، ومساكنها ونظارها إذ سألوا الاغاثة فأجبتهم كما أمره الله»[21] مما زاد من نفوذه لجوء السلطان إلى الاستعانة به كما حصل عندما نهبت أموال القوافل لقد ازدادت شعبيته عندما عارض بعض الفقهاء في فتاويهم التي أباحوا بها شراء البضائع المسروقة[22] من عند اللصوص وقد هاجم من حلل ذلك فقال «وقد أفتيت أنت للصوص ، بل لمن اشترى منهم شيئا من سلعة فلالة ، التي جئت برسم ردها عن اذن الله تعالى ورسوله في كتابه وأذن قائد السلطان وكتابه وكلهم يطلبون مني مع جلتهم أن أغيثهم بجاهي في رد ما أخذ منهم بغير حق عند من وجد فأعانني الله على ذلك وقام معي فيه من صلحاء البلد ، وقضاتها وأعيانها من العرب وغيرهم مثل القاضي السيد محمد بن أبي القاسم وشيوخ تمنطيط رجاء فضل الله ورضا السلطان وخليفته[23]»

كان ابن أبي محلي ينتمي إلى النخبة ، وتنقل فيما بين قصور تافلالت والساورة ، وراسل العلماء وشيوخ القبائل ، واشتهر بالتصوف ، وذاع صيته «فانحشر الناس لزيارته وكثرت أتباعه»[24] وكانت نظرته لهؤلاء نظرة احتقارية «وإنما تفوهت بمثل ما سمعت لأن بعضا من جهال الأتباع يعتقد فينا ما لم يسمعه منا»[25] وكانت مساهماته كثيرة ومتنوعة في المؤسسات المحلية التي ملأت الفراغ الذي خلفه غياب المركز الذي أصبح عاجزا عن حماية مؤسساته ، وعن القيام بواجباته ، لذا أصبح القيام عليه واجبا فما هي إذن الأسس النظرية التي تسمح بالقيام على مخزن منهار ؟

---

(20) ابن أبي محلي ، مخطوط ، *المنجنيق* ، ورقة 202 و 203

(21) ابن أبي محلي ، *المنجنيق* ، ورقة 339 ، نجد نفس الحادثة في مخطوط *السيف البارق*

(22) ألا يمكن أن نجد في ظاهرة «البشارة» بعدا سوسيولوجيا يسير في نفس السياق ، أي يقبل بطريقة غير واضحة السرقة

(23) *السيف البارق* ، ورقة 451

(24) الناصري ، *الاستقصا* ، 6 28 .

(25) الاصليت 55 ظ .

# 2 الأسس النظرية للثورة

## ـ تبرير ابن أبي محلي النظري لقيامه على السلطان

تردد ابن أبي محلي كثيرا قبل أن يأخذ السيف ليقوم على المخزن السعدي إذ كيف له أن يخرج عن الجماعة ويفتح باب الفتنة ، وهو الفقيه السني المتشبث بالشرع[26] ؟ حتى يحل هذا التناقض لجأ إلى مناقشة النصوص وتأويلها منطلقا في ذلك من واقع المغرب الجديد[27] لقد تعدد السلاطين في البلاد وتطاحنوا فيما بينهم من أجل السلطة ، ولا يحل للأمة أن تبقى بلا إمام ، فإن تعددوا وجب القيام عليهم[28] لقد أفسد أبناء المنصور البلاد وملؤوها ظلما وجورا فقد شربوا الخمور كما تعاطوا للزنا واللواط ، والنهب والأكثر من كل هذا أنهم تخلوا عن «الجهاد مع تعينه على المبايع فإذا عجز فلا تجوز توليته إذ لافائدة فيه «وأما إذا تعامل مع الكافر وسلم البلاد فإن ذلك هو أكبر العصيان» وأما إذا اختار أهل الكفر (إشارة إلى تسليم العرائش) عن أهل الايمان فذاك غاية العصيان[29]» ففي هذه

---

(26) كان مستشارا للمنصور في المناطق الصحراوية ، دافع عن نفسه مرارا لصد التهم التي وجهت إليه ، وقد أجاب السماحي مرة قائلا «إذ تذيعون الفاحشة وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وهواني قائم أو فاطمي» *المنجنيق* ورقة 338

(27) انظر ما ذكرناه في موضوع الظرفية العامة ومشكل البيعة .

(28) مخطوط *المهراس* 7

(29) مخطوط *المهراس* 7 .

الحالة وجب القيام عليه شرعا «فإن قام عادل عليه غيرة على الدين وجب على كل المسلمين القيام مع الثاني (أي هو) ليظهر دين الله والمختلف عليه عاص كما نص على ذلك الأئمة[30]»

## - اتخاذه المهدوية كمطية ايديولوجية لثورته

لجأ بن أبي محلي إلى تدعيم حركته أكثر من الناحية الشرعية عن طريق الأخذ والمناداة بالمهدوية وبالخلافة الاسلامية[31] «لأن الخلافة معقودة لـه (أي المهدي) ليتصرف في الملك والملكوت[32]» كيف برز هذا الموقف ؟

أعطى معلومات كثيرة عن أوصاف المهدي المنتظر ، وكل هذه الأوصاف تنطبق عليه إلى درجة جعلت العلماء يستفسرونه فيما يقول وحينما شعر بأنه يستطيع أن يعلن عنها قال مجيبا «إن قيل كلامك يحوم كله على مقام المهدي المشهور عند العامة بالفاطمي فإن كنت حقا فاصدع بما تومر وبشرنا توجر وتشكر وتوزر الجواب فأما إني شاك الآن في نفسي أو ظان فلا يجوز ادعاء ذلك ، فيجب الحذر والوجل ، وإن كنت متيقنا فيمنعني الاذن الخاص ، كيف شاء ربنا وإن كنت أنا هو بل اياه والله أعلم بغيبه وليس إلا عليه الاعتماد وبالجملة الأمر محتمل جدا»[33] لم يكتف بالمهدوية بل لجأ من جهة ثانية إلى إعطاء إشارات حول الخلافة العباسية فما هو المقصود الذي كان يهدف إليه من وقوفه عند الخلافة العباسية ؟

ادعى ابن أبي محلي النسب العباسي ، ووضح الأسباب التي منعت من انتشار هذا النسب في المغرب ، وأشار أثناء حديثه عن المهدي بأنه ربما يكون «من ذرية العباس ، بل ركز على استمرار الحكم والخلافة في درية العباس وأن «دولة بني العباس لا تنقرض بعد ظهورها حتى يودي رايتها آخرهم الذي هو المهدي المذكور

(30) مخطوط *المهراس* ورقة 7

(31) تسعى المهدوية في كل الديانات إلى التغيير الاجتماعي ، وتعتقد وتومن بالمستقبل الأفضل ، وتمكن من الجمع فيما بين الدين والدنيا ، الملك والملكوت ، والسعادة الأبدية والفناء فهي «تهدف دائما إلى تغيير العالم الدنيوي ، لكنها تعتمد في ذلك على وسائل مقدسة»

MARIA ISAURA PEREIRA DE QUEIROZ *Historia y Etnologia de los Movimientos mesianicos* 1978 2e edition, siglo veintiuno editores PP19 et 20

(32) الاصليت 53

(33) مخطوط *المهراس* ورقة 10 .

لعيسى عليه السلام ولكنها تارة تغلب فتظهر وأخرى يغلب عليها[34]» فالخليفة العباسي لا زال موجودا عند الأتراك وأن سلطان هؤلاء إنما هو منفذ عنه «كلما مات عباسي استخلف آخر مكانه فالسلطان على هذا إنما هو منفذ عنه فقط[35]» وفي مكان آخر بين بأن الأتراك هم جنوده ووزراؤه ألم يكن ابن أبي محلي يخطط لتأسيس خلافة اسلامية تجمع الشرق الاسلامي بغربه ؟ ما نوع الحكم الذي كان يهدف إلى تحقيقه ؟

«أما إمارته أي خلافته (المهدي) فرحمة للمؤمنين وعذاب على الكافرين[36]» «حكمه من القرآن والسنة والاجماع وما يلتحق بذلك على الترتيب[37]» يعتمد إذن أساسا على الشرع «امامتي لكل صفي تقي ، وفراستي في كل ولي» جاء ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لأن ذلك من الفروض العينية بالقلب والكفاية باليد واللسان معا على كل مبسوط اليد كالسلطان مطلقا أو مقيدا وعلى العالم القادر». لقد فصل في أنواع المناكر ودرجاتها[38] فما هي وسائل دعايته ؟

## - طرق دعايته

«ملأ الدنيا صياحا ، ودعاوي ، وعياطا ، وأكاذيب مما لم يشهد به عقل ولا نقل[39]»

كيف استطاع ابن أبي محلي أن يوصل صوته لكل أقاليم المغرب وهو يوجد في منطقة هامشية ؟ ما هي السبل التي استعملها من أجل اقناع العامة والخاصة ثم الأجانب ؟ هل كانت متشابهة أم كانت تختلف ؟ يظهر أن وسائل الدعاية كانت

(34) الاصليت 26

(35) الاصليت 26

(36) الاصليت 22 و 30 ظ

(37) الاصليت 21

(38) ركز على هذا في أماكن كثيرة من مؤلفاته ، يمكن الرجوع بالخصوص إلى *المهراس* 38 - 42 سم *ساعة* 12 - 42 - 43 - 63 كما أكد التجار الذين استقبلهم بمحلته قرب آسفي بأنه جاء ليحارب البدع ، وينشر السلم ، ويسترجع الأندلس ، جاء ليحارب اسبانيا ، وفرنسا وإيطاليا لكنه يريد ربط علاقات ودية مع أنجلترا والبلدان الواطئة ربما يرجع هذا الموقف إلى احتياجه للأسلحة والمتاجرة والواقع السياسي المبني على الممارسة

S.I.H.M. 1ere Serie Pays Bas T.II. PP. 117 - 127.

D.J.Meunié, op. cit., T.II. P 607

(39) أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السجتاني ، رسالة بعث بها للحاحي ، توجد عند الوفراني ، *النزهة* : 226 .

تختلف باختلاف المخاطب لقد سهر في البداية على إقناع الأعيان والفقهاء والعلماء مركزا في مراسلاته على الحجج الدينية وعلى مصلحة الأمة التي تفرض الاستشارة «فالأمة لا تجتمع على ضلال بخلاف فئة منها أو بلدة[40]» وتوجد مراسلات كثيرة في هذا الشأن في مؤلفاته ، وما «تهييج الأسد» إلا صرخة لتحريض شيوخ القبائل والعلماء على القيام بالجهاد لقد انتقد بشدة الوضعية المتأزمة ، وحمل المسؤولية فيها للمخزن من جهة وللعلماء والقضاة الذين تخلوا عن واجباتهم واهتموا «بالارتشاء في القضاء ، والتزاحم على الرياسة[41]» وكان لا يتراجع في استعمال الرمز والاشاعة من أجل الاقناع كان يعتمد على الرؤيا لاسيما رؤية النبي[42] ومن ضمن الاشاعات التي تنسب إليه قوله 'كنا نسمع أن السلطان المنصور إذا خرج من مراكش قاصدا مدينة فاس فإنه لا يرجع لمراكش» وقد عقب الوفراني عن الاشاعة قائلا «لقد شاع الخبر في الناس ، وداع فكان الأمر كذلك» أما ابن أبي محلي فقد عقب بقوله «لا أدري من أين للناس بذلك هل أنطقهم الله به وأجراه على ألسنتهم أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأنه الأشبه» أشاع الناس أن الرصاص يقع على أصحابه باردا[43] لا يضرهم ، كما كان يقول لأصحابه «بأنهم أحسن من أصحاب النبي لأنهم يناصرون الحق في زمن الباطل ، أما أصحاب النبي فإنهم ناصروه في زمن الحق» هل تغلب على جيوش زيدان لأنه كان ساحرا ، كما تدعى بعض المصادر الأجنبية المعادية لحركته[44] ؟ أم استطاع أن ينتصر مؤقتا لأنه تمكن من لف القبائل من حوله ؟ ثم ما هي العمليات العسكرية التي قام بها من أجل الاستيلاء على العاصمة السعدية ؟

---

(40) *المهراس* ورقة 33

(41) *سم ساعة* ورقة 9

(42) الرؤيا مدرك من مدارك الغيب الرؤيا الصالحة جزء من النبوءة أورد خبرا مفاده بأن رجلا رأى بأن النبي قد دفن بفجيج ، أولها ابن أبي محلي بأنها دفن للسنة في فجيج نظرا لكثرة البدع الاصليت 144

(43) الوفراني ، *النزهة* 209

S.I.H.M. 1ere serie Pays Bas. T.II. P. 441.

D.J. Meuniè, op. cit., T.II. P. 609

(44) يمكن اعتبار التقرير الذي وضعه Moise Pallache في حق ابن أبي محلي ، من أعنف الهجومات الأجنبية عليه ، قد استعمل في حقه النعوت القدحية استعمل 13 مرة كلمة ساحر – 4 مرات كلمة دجال – 7 مرات شيطان ، واعتبر حركته سخطا من الله ، وعبرة لكل من سولت له نفسه القيام على من اختاره الله فزيدان هو الشمس أما ابن محلي فهو الكسوف إلا أن التقرير كتب من بعد انهزام هذا الأخير (1614)

S.I.H.M 1ere serie. Pays-Bas. T.II.PP. 440 - 442

## 3 حملاته العسكرية أو «الانتصارات المؤقتة»

تصعب الاجابة على هذه الأسئلة لأن الوثائق غير متوفرة ، ولأن ابن أبي محلي قرر وضع القلم حينما أخذ السيف(45) مع ذلك نتوفر على معلومات وإن كانت قليلة إلا أنها مهمة تركها الأجانب على حركته ، لا سيما ما تركه التجار الذين التقوا به بالقرب من آسفي في محلته ألحت جل الروايات على أنه خرج في عدد قليل من الساورة ، إلا أن عدد المنضمين إليه قد ازداد وتكاثر مع مرور الوقت وقطع المراحل(46)

استطاع أن ينتصر على المخزن السعدي في أول لقاء عسكري بسجلماسة في ربيع 1611 إن انتصاره على الحاج الميرفي أول معركة حدث حاسم في حركته ، لأنه تم في بلدة نشأته وربما قد دفع بعدد كبير من الناس إلى الانضمام إليه كما أن الاستيلاء على سجلماسة يعني مراقبة الطريق التجاري الذي يربط السودان بفاس لقد حاول أن يطبق المبادىء التي ظل ينادي بها «لما دخل سجلماسة أظهر العدل وغير المنكر ، قدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنئونه بالفتح

(45) سنمت العرائس في 20 نونبر 1610 وقتل ابن محلي في 30 1613 قصر المدة والاضطرابات لم تسمح له بتنظيم الجهاز الاداري لذا لم تبق الوثائق الادارية وحتى التي حصلت فربما قد ضاعت

(46) أرقام الجيش جد متضاربة 3000 عند الخروج إلى 25 ألف عند دخوله مراكش لكن تحديدها صعب جد .

والظفر[47]» غير أننا لا نستطيع تحديد الطريق الذي سلكه من أجل الاستيلاء على درعة ، التي شكلت المرحلة الثانية في حركته واهتمامه بدرعة يكتسي دلالات كثيرة لعل أبرزها الموقع الجغرافي فهي لا تبعد كثيرا عن تافلالت ، وتشبهها في المعطيات الطبيعية وبالتالي لن تطرح صعوبات كبيرة كما أن ابن أبي محلي كان يتراسل منذ مدة مع علماء وأعيان درعة[48] وبالتالي تكونت لديه فكرة عنها كما أن درعة هي مهد الحركة السعدية ، والاستيلاء عليها يعني من الناحية الرمزية القضاء على السعديين ثم وهذا هو الأهم كان ابن أبي محلي يهدف إلى السيطرة على الطريق التجاري الهام الذي كان يمول السعديين بالواردات السودانية لاسيما التبر[49] وهكذا لما سيطر على لكتاوة ، وهي أهم مركز تجارى في تلك الفترة ، ضرب بها نقودا باسمه[50] ما هو الطريق الذي اتبعه ليعبر الأطلس الكبير ، هل تمكن فعلا من السيطرة على القبائل التي لم يستطع لازيدان ، ولا المنصور أن يخضعها[51] ؟ لقد اعتمد D. Jacques Meunié على ما أورده هؤلاء التجار ليقر ذلك من المستبعد جدا أن يكون ابن أبي محلي قد لجأ إلى العنف في الأطلس الكبير ، بل من المحتمل أن يكون قد تفاوض مع شيوخ قبائل آيت زينب ، وكلاوة قصد استمالتهم ، وإلا كيف نفهم موت القائد عزوز في معركة جليز إلى جانب ابن أبي محلي[52] لقد تضاربت الأقوال وكثرت الأساطير حول دخول ابن أبي

---

(47) الوفراني ، *النزهة* 207 الذي يثير الانتباه هو مجيء الوفود من تلمسان لتهنئته مما يدل على وجود علاقات فيما بين المنطقتين

(48) أشرنا إلى ذلك في السابق

(49) أشارت المصادر إلى مجيء أحد قواد زيدان من السودان وبالضبط من كاغو حاملا معه 2000 كلغ من التبر إلى أي حد يمكن قبول هذا الرقم S.I.H.M. 1ere Serie Angleterre. T.II, P 453

(50) S.I.H.M. 1ere Serie France. T.III; P 492.

(51) لعل أهم المعلومات وأدقها التي نتوفر عليها من خلال تنقلات ابن أبي محلي نحو آسفي ، وعلى جيشه هي تلك التي تركها التاجر الهولندي Paul Van, Peloo الذي بقي في محلته مدة أربعة أيام من 12 إلى 16 يوليوز 1612 ، وقدم صورة فيها نوع من الاعجاب بابن أبي محلي ، وصفه بالتواضع وبالعلم ، وبالسياسة ، قال عنه «هو رجل حكمة وعالم فلك ورجل سياسة»

S.I.H.M. 1ere Serie Pay.Bas. T.II, PP.117 127

(52) لم يكن القائد عزوز هو الوحيد بل تحدثت المصادر عن الشيخ الكلاوي ، والقائد الزمبي لعل أشهر هؤلاء هو القائد عزوز بن مولاة الناس كان من القواد المرموقين في عهد المنصور إلا أنه غير موقفه عدة مرات فخدم أبا فارس ، ثم زيدان قبل أن يلتحق بابن أبي محلي هل هذا يعني أن عددا من أطر المخزن السعدي التحقت بالثوار ومن ضمنهم ابن أبي محلي ؟

القادري ، نشر *المثاني* ج 1 ص 188 وما بعدها ، تحقيق د محمد حجي و أحمد التوفيق

S.I.H.M. 1ere Serie France. TII.P. 197, 199..

محلي إلى مراكش وممارسته للحكم فيها[53] أعطى التاجر الهولندي معلومات أساسية حول السياسة التي نهجها ابن أبي محلي عند دخوله المدينة حيث ذكر أنه عين حاكما عليها وكلفه بالسهر على راحة الناس وأمنهم ، كما اهتم بالقضاء فعين قاضيا ونصحه بالعدل في الحكم بين الناس كما أشار التاجر إلى اهتمام ابن أبي محلي بجمع الضرائب سواء كانت حبوبا أو خيلا أم ماشية أو أموالا إلا أننا لا نعرف كيف حل مشكل الضرائب ، وقد كان يخطب في الناس ليذكرهم بأنه إنما أتاهم كضيف ليكرموه ولم يأت ليشترى منهم مساندته[54] لنلاحظ تركيز ابن أبي محلي على كرم الضيافة[55] أليس لهذا الشعور لديه بالغربة دور في فشل حركته ؟ إن ممارسة السلطة جعلت ابن أبي محلي يحتك بالواقع ويلجأ إلى منطق الحكم وهكذا نراه يستعمل القوة من أجل جمع الضرائب[56] ما هو المدلول الحقيقي لاتجاهه نحو آسفي ؟ ألم تكن له نية بل إرادة في الانفتاح على البحر من أجل توسيع حدود الخلافة التي كان يحلم بتأسيسها[57] ؟

لاحظ التجار بأن الوضعية غير مستقرة ، وأنها قد تنقلب إلى فوضى ، لأن القبائل دخلت العصيان بما فيها تلك التي رافقته من الصحراء ، وكما استغاث زيدان بالحاحي لمحاربة ابن أبي محلي ، الذي «خرج عن الجماعة» في رأى زيدان ، وخرج

---

(53) قيل الكثير وبطريقة مشوهة عن ابن أبي محلي عندما دخل مراكش «لما دخل قصر الخلافة بمراكش فعل فيها ما شاء ، ودبت في رأسه نشوة الملك ونسي ما بنى عليه أمره من التقوى والنسك» الوفراني ، *النزهة* ، 207 ويمكن أن نجد نفس الاتجاه عند كل الذين كتبوا على حركة ابن أبي محلي ، وقد اعتمدوا أساسا على اليوسي وأخذوا بموقفه من ابن أبي محلي

(54) لقد علق التاجر على هذه الخطب ، وتلك الوعود قائلا «استطاع (ابن أبي محلي) أن يحقق الكثير بفضل الخطب والمعجزات التي كان يعد الناس بها وقد اعتمد في تحقيق ذلك على سمعته ، وسياسته «فالأغلبية التزمت الصمت والانصات والانتظار لأنها تعودت هذا الموقف منذ القديم وأما الأقلية فإنها بدأت تغير من موقفها منه مع مرور الزمن ولهذا فإنني لا أعلم ماذا سيحصل»
S.I.H.M. 1ere serie Pays Bas TII P 117 - 127

(55) ابن أبي محلي بدوي صحراوي لم يعش في الحاضرة سوى سبعة أعوام أما البقية من عمره فعاشها في البادية

(56) قام بعدة حركات لمناطق الأطلس الكبير ولدكالة من أجل إجبار القبائل على أداء الضرائب
S.I.H.M. 1ere serie Pays-Bas T.II P 119

(57) لقد سمى نفسه ب «سلطان البحرين وصحاري ما وراء غينيا» وعندما استقبل التجار الأنجليز والهولنديين ، أكرمهم وأحسن استقبالهم وأوضح لهم بأن له رغبة في نشر السلم والاسلام وقطع البدع ، وأنه ينوي غزو اسبانيا وفرنسا وإيطاليا إلا أنه يريد ربط علاقات ودية مع أنجلترا وهولندا
S.I.H.M 1ere serie. Pays-Bas. T.II. P.120

الحاحي في قبائل هشتوكة وشبانة ، وبني جرار وبني كنسوس واتهم ابن أبي محلي بأنه «أدخل بتأويلاته البعيدة عن الصواب ماليس في المذهب» واعتبره متسلطا على النفس والحريم والأموال بل تعدى حدود الولاة إلى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ؟» واستطاع الحاحي أن يقضي على حياة ابن أبي محلي(58) لكن أفكاره بقيت راسخة وبقي عدد كبير من الناس لا يومن بوفاته لأنه - في رأيهم سيعود - لأن «الكرة التي يلعب بها يتبعها المائة والمائتان وأكثر وأقل من خلفها ويكثر الصياح والضجيج والهول وينكسر بعض الناس وينجرحون وقد يموتون ولا يبالون(59)

(58) مات ابن أبي محلي في معركة جليز 30 نونبر 1613 / 8 رمضان 1022هـ ، على يد الحاحي

(59) الوفراني *النزهة* ، 207 208 .

بالمشاهدة والسماع ونقص من جهة العلم ما حصل .

# فصل

[illegible]

القسم الثاني

# رحلة ابن أبي محلي من خلال الاصليت

دراسة وتحقيق

الفصل الأول

# ملاحظات أولية حول مؤلفاته وبالخصوص الاصليت

## المميزات العامة لتآليفه

دون ابن أبي محلي بعض مؤلفاته في قصيدة شعرية

أيعمل في *المهراس* خدشك خاش ... وكم دق بالمهراس مدارس نـاس

وأوضحت *بالوضاح* كل طريقـة ... كما فضح *القسطاس* درهم داس

وأجوبة *الخروبي* عنوان ما معـي ... إذا صح أني عاطف كل عاس

ومهدت في المجد الأثل قواعـدا ... ودللت بالاصليت فنعـاس بـاس

وإذا *المنجنيق* ردفـه سم *ساعـة* ... لقتـل غـوي قاتـل قـلب قـاس(1)

سنحاول أن نضع هذه المؤلفات في جدول حتى نتمكن من تسجيل بعض الملاحظات حولها

(1) *المهراس* المسجل تحت رقم ك 192 بالخزانة العامة : 25 .

| التأليف | تاريخ التأليف ومكانه | الناسخ | ملاحظات |
|---|---|---|---|
| الوضاح | ؟ | ؟ | ؟ |
| القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من المستقيم | شلالة بقصر عبد القادر السماحي 1011هـ | | |
| اصليت الخربت بقطع بلعوم العفريت النفريت | الساورة أواسط شوال 1016هـ | محمد حسني 1137هـ | |
| المنجنيق لرمي البدعي الزنديق | قرية برّ بني جومي أواخر ربيع الثاني 1017هـ | | سميتها منوها بالبنادقة ، منجنيق الصخورلهدم بناء شيخ الغرور ورأس الفجور |
| السيف البارق مع السهم الراشق | آخر جمادى الأولى 1017هـ | | |
| سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة | الساورة 14 رجب 14 رجب 1017هـ | | |
| مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدارس نفوس السفلة المنخدعة | الساورة 1018 | | |
| أجوبة الخرولي | ؟ | | |
| تهييج الأسد | ؟ | | |
| سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق | الساورة 1018هـ | | |

ملاحظات حول هذا الجدول

*أولا* ألف ابن أبي محلي مؤلفاته فيما بين 1011هـ و1019هـ مباشرة بعد وفاة أحمد المنصور وإلى حدود قيامه من الساورة ، ففي فترة قصيرة تمكن من تأليف ما يزيد على ألف صفحة

*ثانيا* بقيت جل هذه المؤلفات موجودة ماعدا الوضاح الذي أشار إليه في الاصليت وهو أول تأليف له ، اعترف هو نفسه بكثرة هفواته اللغوية

*ثالثا* من خلال عناوين مؤلفات ابن أبي محلي يمكن حصر الحقول الدلالية التالية

1 – مجموعة مصطلحات عسكرية مهيمنة (إصليت ، السيف ، المنجنيف ، المهراس ، السم ، الخنجير ، وتهييج)

2 – مجموعة مصطلحات عقائدية (الجماعة ، الشريعة ، المبتدعة)

3 – مجموعة مصطلحات صوفية (الوضاح لكل حقيقة ، القسطاس المستقيم ، السلسبيل)

4 – مجموعة مصطلحات أخلاقية (السفلة ، الزنديق ، الجهلة)

*رابعا* استعمل ابن أبي محلي في هذه العناوين حروف الصفير (س ، ش ، ز ، ج ، ص) بكثرة ، لا سيما حرف السين الذي استعمل (15) مرة ، اللجوء إلى استعمال هذه الحروف يوحي بالملاحظات التالية هل هو اختيار أخذه ابن أبي محلي عن وعي ؟ أم أنه جاء عرضا ؟ فالمعروف ان هذه الحروف توحي بالسرعة في الحركة ، وبالحدة في العمليات لماذا ركز ابن أبي محلي على استعمال الأدوات المد مرة ، أدوات التصفية (السيف ، السم الخ ) والملاحظ أن المعاصرين له استعملوا عناوين توحي بالعكس أحمد المقري ، روضة الآس ، نفح الطيب ، وابن القاضي ، درة الحجال ، وجذوة الاقتباس ، والتمجروتي ، النفحة المسكية في السفارة التركية الخ

تعبر هذه العناوين عن اختلاف بيّن ، فيما بين مزاج أصحابها ، الذين ينتمون للحاضرة من جهة ، ومزاج ابن أبي محلي من جهة ثانية

لماذا لجأ ابن أبي محلي إلى اختيار عناوين تعبر عن العنف ؟ ما هو أثر البيئة الطبيعية

والمحيط الاجتماعي على نفسيته(2) ؟

لقد تميز ابن أبي محلي بإعطاء عناوين كثيرة لمؤلفاته فما هي الأسباب التي كانت وراء كتابة الاصليت ولمن ألفه ؟ فقد خصه بأسماء كثيرة تارة يسميه بالهودج المبعوث به إلى سادة مصر أو الرسالة الشاملة أو الحكاية العائلة ، وتارة أخرى فهو الاصليت ، «وما سمي بالاصليت إلا لأنه يصل إذا ما اهتز للصيت من بيد صليل»(3)

حاول في عدة مناسبات أن يبين الأسباب التي جعلته يؤلف هذا الكتاب تارة يظهر أنه ألفه من أجل الرد على «سؤال أحد الكوكبين المنيرين الشريفين الذين هما السبب في تجهيز هذه العذراء من الغرب إلى مصر في هودج الهدى لقادة العصر والكتاب كله خطاب لهما الصدق والود وحفظ العهد في القرب والبعد»(4)

لم يقتصر في الكتاب على تناول موضوع واحد بل ناقش محاور ثقافية كثيرة ، لا شك أنها كانت تشغل بال أبناء جيله ، كما دون في صفحاته أحداثا كثيرة سنرجع إليها في حينها ، لا سيما أثناء رحلتيه الأولى والثانية إلى الحجاز ما هي المواضيع التي أخذت ببال ابن أبي محلي في الاصليت ولماذا ؟

---

(2) أورد كل من J.Berque, LILEMAS.., 46 - 47
و L. MEZZINE, *Contribution à l'Histoire de Tafilalet*, T III, 556 - 571
معطيات إيكولوجية هامة كان لها ولاشك أثر على نفسيته
ويمكن استخراج البعض منها من «ا» 79 - 95 - 106 - 107 - 108 و 111

(3) أنظر في هذا الباب ورقات الاصليت 55 115 - 117

(4) بالخصوص الميقاتي والمرصفي أنظر ترجمتهما في المتن .

الفصل الثاني

# الاصليت والمواضيع المتناولة فيه

ما هي المواضيع المناقشة في الاصليت ؟ كيف يلزمنا التعامل معها ؟ هل نقرؤها قراءة باردة ، نبحث في طيات المخطوط عن معلومات تاريخية فقط أم نتعامل مع الاصليت كخطاب انتجه المجتمع «المغربي» عن نفسه في مطلع القرن السابع عشر ؟ ما هي هموم الفئات التي كانت تكونه ؟ ما هي المشاكل التي تطرح بحدة ؟ كيف تعامل الناس معها ؟ ما هي طموحاتهم ؟ إن القارىء لكتاب الاصليت سيتتبع الخطوات التي سلكها ابن أبي محلي من أجل مناقشة الضوابط التي كانت تتحكم في مصير ما كان يسميه «بالغرب» و «الشرق» و «بالطاغوت المسيحي» وبالتالي نستطيع أن نتتبع هموم الناس من خلال مناقشة ابن أبي محلي للجهاد ، والتصوف والفقه والتبغ ، «وغزو» السودان بالاضافة إلى معاناته من دمار سجلماسة

**– دمار سجلماسة**

احتار المؤلف في التحاليل التي أوردها في موضوع «جنة الأمصار» سجلماسة لم يتمكن من ضبط اسمها هل الكلمة بسيطة أم مركبة ؟ هل هي عربية أو بربرية أم هي عجمية ؟ لقد اعترف في النهاية بأنه غير قادر على التيقن «فحسبنا العجز والاقرار بالتوقف مع عدم الجزم بكون الاسم مركبا أو بسيطا ولعله اسم عجمي لا يقبل أبحاث العربية – فكفى وعند الله علم غيبه»(5) لقد لجأ

(5) الاصليت : 112 ، وكذلك تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة م خ ح رقم 2634 .

معتمدا على فقه اللغة إلى ضبط الكلمة حاول أن يجد الدلالات التي تنبني عليها «قبل التركيب هل هي من السجل الذي يعني الدلو لا من سجل الكتاب أم لا» ؟ وهل ما بعده ركب معه وهواسم الماء المشروب بالقصر ودون آلة التعريف ؟ ثم هل كلمة سة مستقلة تعني أو تقصد عدد حرفيها أم لا ؟ إن كل ما أورده يعتبره اجتهادا منه فهو لم يذكر المصادر التي اعتمدها ، بل يذكر أنه بحث عن مصادر ولكنه لم يجدها «وما قدر لي حتى الآن وقد سألت عند التادلي المتقدم فأبى لعذره»(6) لنلاحظ كيف ركز ابن أبي محلي على الدلالة المائية في اسم سجلماسة على عكس حسن الوزان الذي ركز على المعنى اللاتني للكلمة Sigilla التي تعني مجموعة رسوم أو صور والمفرد هو Sigillum وهي الصيغة الواردة عند الوزان ويعني به سمة ، أثر ، علامة ، وبالتالي فهو يرى أن الكلمة دخلت إلى العربية(7)

لنلاحظ الاختلاف الوارد عند الرجلين ، ألا يخضع هذا الاختلاف ، في غياب الوثائق التي تؤكد ما قدمه كل واحد منهما ، للهموم التي كانت تفرض عليهما لذا لجأ كل واحد منهما إلى البحث عما قد يزكي أقواله(8) ؟

احتار ابن أبي محلي كذلك في تقديمه لتأسيس المدينة فأعطى معلومات معروفة لكنها متناقضة «قالوا وبنيان سورها المحيط بكلها على قدر محلة ذى القرنين حين نزوله بها وأهلها من بقايا عسكره *والله أعلم بصحته* وهي مبنية قبل مدينة فاس بنحو أربعين عاما ، وقبل ذلك كانت مرجا ومرتعا لأهل العمود البربر ثم سورها اليسع بن مدرار من ملوكها ثم انقرضوا بقيام المهدي العبيدي»(9)

كما ركز ابن أبي محلي على سجلماسة وهو على وعي بأنها أصبحت تعرف في عصره «والآن» بتافلالت ، لقد هاجرتها عائلته لأنها أصبحت « اليوم جسد بلا روح» بحث عن أسباب هذا الدمار مركزا على شكل الماء وانفرد بذلك عما

(6) الأصليت : 111

(7) «إن مؤسس هذه المدينة قائد روماني فبنى المدينة وسماها سجلوم ميسى...» حسن الوزان ، *وصف افريقيا* ، ترجمة د محمد حجي ومحمد الأخضر ، 2 127

(8) ربما غادر ابن أبي محلي المدينة لقلة الماء بها ، لأنه غار ، غير أن سكانها ظلوا يعتقدون دائما عودته ، فأهمية الماء كما رأينا كانت حيوية في حياة الناس لذا لجأ إلى البحث في هذا الاتجاه السجل يعني الدلوسة ، ربما عدد السنوات أو التاريخ الذي غور فيه ماؤها وأما الوزان فقد ألف الكتاب وهو في إيطاليا ، سعى ربما إلى تمجيد تاريخ روما لاسيما وأن الحركة الأنسية وفي إيطاليا في هذه الفترة بالذات كانت تلح على الرجوع إلى تاريخ روما القديم ألا يمكن أن نجد لهذه الحركة صدى عنده ؟

(9) الأصليت : 111 - 112 .

هو معروف كالهجومات القبلية أو فياضانات واد زيز إن الروايات التاريخية المعروفة تشير بطريقة أو بأخرى إلى التأثير الروماني أو المصري لكن هذه الروايات قد تؤكد أو تنفي بالتنقيب في الموقع الأثري لسجلماسة(10)

**- المذاهب الفقهية**

إن بعد ابن أبي محلي الصحراوي هو الذي يبرر اهتمامه بمدينة سجلماسة غير أن هذا الاهتمام لم ينسه و لم يبعده عن مواضيع أخرى كانت أكثر حساسية لا بالنسبة للمغاربة فقط ولكن بالنسبة لكل المسلمين ويتعلق الأمر بالدور الذي لعبته المذاهب عن طريق التعصب ، في تفرقة المسلمين إن التشبت الأعمى بالمذاهب أنسى الناس الأصول فنراه يقول في هذا الصدد

« قلت ومن أجل هذا ونحوه قديما ، وحديثا نجد كل ذي مذهب يتعصب بالطبع المذكور لصاحبه غالب ومغلوب ، والحق خلافه»(11) حاول أن يوضح لماذا انتشرت المذاهب ووزعت على الشكل الذي نعرفه مبينا في نفس الوقت أن انتشارها وهيمنتها مرتبطان بارادة السلطة الحاكمة وكمثل على ذلك انتشار المذهب الحنفي وتقوية الأتراك له(12) انطلاقا من هذه الحالة نراه يلجأ إلى الانتقاء بمعنى أنه كان ينادي بأخذ أحسن ما في كل مذهب لأن في ذلك خير للأمة بدل التعصب لماذا لجأ لمنهج الانتقاء ؟ لماذا عارض التعصب المذهبي ؟ ألم تكن لديه خلفيات سياسية ؟ ألم يكن يهيء للمطالبة بالخلافة(13) ؟ ألا يمكن أن نجد في تحوله من التصوف الشعبي إلى السني علامة من العلامات التي توضح ما نرمي إليه ؟

(10) تتلخص الروايات المتعلقة بتأسيس مدينة سجلماسة في - الرواية التي نجدها أساسا عند البكري وعنه أخذها أغلب الذين كتبوا عن سجلماسة ، قد بناها أبو القاسم سمجو ابن واسل المكناسي بن اليسع سنة 140 هـ ثم رواية عيسى الزنجي وحولها وقعت مناقشات كثيرة هل هو سوداني ؟ أم من الخوارج الصفرية ؟ أم من أصل مسيحي ؟ أم من الخراطين ؟ وأخيرا رواية عن مدرار الذي كان حدادا هل جاء من الأندلس ليبني سجلماسة ؟ أم ذهب من سجلماسة إلى قرطبة ثم عاد ليؤسس المدينة من بعد ثورات الأندلس ؟ لكن هذه الرواية كثيرة الاضطراب ولا نجدها عند ابن خلدون مثلا ، ثم نجد روايتين أتى بهما حسن الوزان ونجد لهما صدى عند ابن أبي محلي ربط بناء سجلماسة بالقائد الروماني ، وأخيرا الرواية عن الاسكندر ؟ هل هو المقدوني ؟ أم قائد عسكري روماني كان يحمل نفس الاسم لكن المهم من كل هذا أن باب البحث لا زال مفتوحا لا سيما أمام الحفريات

(11) الاصليت 127

(12) أنظر المتن ص 43 - 44 وهامش 1

(13) عدة مؤشرات توحي بذلك انتحاله الانتساب إلى آل العباس ، ذكره بأن الأتراك هم مجرد منفذين لسياسة الخليفة العباس ، اعتباره أن المهدي المنتظر سيستعمل الأتراك كوزراء .

- **التصوف**

لقد خصص صفحات من كتاب الاصليت للتصوف[14] إلى أية طريقة كان ينتمي ؟ ما هي خصوصيات تصوفه وما هي المراحل التي مر منها في حياته كمتصوف ؟ هل اعتنق التصوف صدفة ؟ لقد أخد المبادىء الأولية في التصوف في فاس وبالضبط في مدرسة العطارين وقد أخذ هذه المبادىء عن الفقيه أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي عبد الله المديوني التلمساني ، وقد قرأ عليه كتب الساحلي ، وكتب زروق ، كما كان يحضر تجمعات المتصوفة ، ويبدو أن استفادته من هذه الاتصالات كانت كبيرة «فانتفعت بذلك أي انتفاع»[15] لكن هذه المرحلة من حياته تميزت بتردد كبير حتى من بعد سفره الأول إلى زاوية الشيخ محمد بن مبارك الزعري التستاوتي[16] وقد بقي مدة في هذه الحيرة وهو لا يفقه فيها الكثير «وقد بقيت في صحبته (شيخه الزعري) نحو من ثلاث سنين لا أعرف من علم الحقيقة حتا وإنما كان يدعوني بعض اخواني يومئذ يا حمار لقلة علمي وكثرة غمي[17]» لكن موقفه تغير وهكذا يكون باتصاله مع الزعري قد اعتنق الطريقة الحرارية الجزولية الساحلية

على كل ، بعد تعرفه على الزعري عرفت حياته تحولا أساسيا[18] حيث دخل مرحلة جديدة دامت إلى حدود خروجه للحجة الأولى 1001 / 1002هـ تزامن دخوله زاوية الشيخ الزعري ومرحلة الشباب حيث كان عمره حين اتصل بالشيخ تسعة عشر عاما وبقي في الزاوية حوالي اثنتي عشر عاما ومن خلال ما كتبه عن هذه المرحلة يبدو أنه اهتم أساسا «بالأحوال» «الغيبوبة» لقد كان يشعر مرارا بأنه في حاجة إلى الخروج إلى الناس في السوق أو أن يصعد صومعة لينادي على رؤوس الأشهاد بدعوة هائلة إلا أنه لم يفعل ذلك لرعاية الشيخ له «فحفظني الله من ذلك ببركة شيخ التربية حيث يقول عن شيخه غيرما مرة الأحوال بحر من الطمع من هام فيها وقع في البدع» ؟

(14) بل ألف كتبا في التصوف الوضاح ، القسطاس ، بالاضافة إلى الصفحات الكثيرة التي تناول فيها هذا الموضوع في كل كتبه ، ألا يمكن أن نجد علاقة فيما بين ازدهار التصوف والأزمات ؟

(15) الاصليت 61

(16) يظهر أن الاتصال جاء صدفة لكن لماذا اقترح عليه المديوني زاوية الزعري بالذات ؟ ألا يمكن أن تكون الزاوية معروفة بالمدينة «البيضاء» ألا يمكن أن تكون الزوايا ممثلة بالقرويين وأنها كانت تعمل على إيجاد من يعرف بطرقها وينشر تعاليمها ؟

(17) إلى أي غم يشير ؟ هل يشير إلى الخوف من نتائج معركة واد المخازن ؟ أم وهو المحتمل أنه كان يشعر بالغم نظرا لموقف أبيه منه ؟ بعد ما اعتنق التصوف ؟ الاصليت 60

(18) يظهر أن القرار كان أول قرار يتخذه في استقلاله عن أبيه وعن أخيه الذي كان معه بفاس

بعد الحجة الأولى بدأ يتراجع ويندم عن تلك المواقف وتلك الأحوال بل أصبح يهاجمها «أقوال أهل الأحوال تحفظ ولا يقاس عليها بل قد يلتذ بسماعها ولا يعول عليها لأن أكثرها زائف وزائل» فقد ندم على الليالي التي كان لا ينام فيها ، لأن الأحوال إذا هاجت عليه كان يخرج عاري البدن[19] ، والشيخ الزعري يرعاه ويحذره حتى «شفاه الله منها» وقد كاد أن يهلك «أشرفت منها على التلف حسا ومعنى دينا ودنيا» وقد شفي بعد الحجة الأولى ، بعد ما شرب من ماء زمزم «بنية صحو البال» ثم زاد من التأسف علي تلك الفترة إلى أن قال «فرد الله إلي من بالي ما حفظ معه على حسي بعد بأسي»

لم يكتف بهذا الموقف بل أصبح يتبرأ من تلك الممارسات وتلك الوساوس التي تعرض لها «فما صدر منافي الأحوال فسبيله التوقف فمن سمع مني شيئا فيه أو في غيره فلا سامحني فيه البتة[20] فهو إذن يريد أن يبدأ صفحة جديدة لماذا هذا التراجع عند ابن أبي محلي ؟ هل هو ناتج عن وعي ونضج ؟ أم أن الأمر مرتبط بمخططاته الجديدة فهو لم يتخل عن المشيخة[21] «معرفة العلم لا تنال إلا مع شيخ رباني مثل سيدي وقدوتي ، وأستاذي الجامع بين الحقيقة والشريعة والكرم والشجاعة أبي عبد الله محمد بن مبارك»

جزى الله عني الجزاء بفضله إمام الهدى الزعري شامخ رأس
فما أنا إلا نقطة من مداده ولو كل نفس قد سقيت بكأس
وإن شئت قلت قطرة من سمائه ولو كل بحر قد غرفت بكأس
عليه سلام الله ما بان فضله علي ودام تاجه فوق رأس[22]

(19) «الكرامة تعطي العباقرة وفي نفس الوقت تعطي المجاديب»
Henri de Castries. - les Sept Patrons de Marrakech, *Hesperis*, 1924, T4; P 245.

(20) الاصليت 55

(21) مشيخة ابن أبي محلي كما أوردها
1 – أحمد بن عبد الله بن القاضي ابن أبي محلي
2 – أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري
3 – أبو عمرو المراكشي من ذرية أبي الدراج القسطلي الأندلسي
4 – سيدي عبد الكريم الفلاح
5 – سيدي عبد العزيز التباع
6 – أبو عبد الله سيدي بمحمد الجزولي
ثم قال هاهنا انتهى علمي المأثور ونسبي المشهور إذ نسبة الجزولي للامام الشاذ لي غير خافية وإنما توقفت أنا والشهرة والاستفاضة كافية الاصليت ، 8 .

(22) ابن أبي محلي ، المهراس 25

لقد غير حتى من خطابه فأصبح بالاضافة إلى التبرؤ من الأحوال يسعى من جهة ثانية إلى الابتعاد عن التصوف الذي يقرب من العامة بل يجرد قلمه لمحاربة التصوف الشعبي ، واعتبره أساس البدعة

وهل أفسد الاسلام إلا ثلاثة فقير جهول أو فقيه مداهن
وآخر وال جائر وجميعهم على الجيفة الدنيا يجري ويفاتن(23)

إنه يريد تصوفا صافيا لا يتنافى والحدود الشرعية فالصوفي العارف الحكيم له معرفة ذوقية بعد العلمية السمعية العقلية قطب دائرة الوجود عليه مدارك فلك الاسلام(24) إن موقف ابن أبي محلي ليس بغريب إذا ما وضعناه في إطار الصراعات المزمنة والتعارضات التي حذر منها الفقهاء دوما فهو فقيه سني محافظ عن الحدود الشرعية بيد أن الممارسات اليومية كانت على النقيض من ذلك لكن لماذا انتشر هذا النوع من التصوف وبالخصوص في البوادي ؟ لم يتمكن الفقهاء رغم تحذيراتهم من القضاء عليه لأنه نما وترعرع إلى جانب وفي ظل التعاليم هل انتشر وتعمق في الوسط القروي لأنه اهتم بالجماعة لا بالفرد على عكس التصوف السني(25) ألم يشكل هذا النوع من التصوف مجالا من مجالات الصراع الاجتماعي ؟ ألا يمكن أن نبحث له عن جذور في الهيمنة المسيحية ؟

- الجهاد

هل نعرف كل شيء عن الجهاد ؟ لماذا ركزت المصادر على الجهاد ضد الايبريين ؟ ما هو الدور الذي لعبه الجهاد في تمركز وتقوية حركة السعديين ؟ ماذا نعرف عن موقف المغاربة من تقارب عبد الله الغالب من فليب الثاني ؟ ماذا كان موقف المؤرخ المجهول حين أشار «ولم يقع في أيامه (عبد الله الغالب) أشر من بيعه بادس واسلامه البريجة وفعله بأهل الأندلس ما فعل بهم من قطع نصرة الدين عنهم والدنيا وغشهم لأجل صلاح ملكه(26)» أليس في هذا الموقف شعور بتحول عميق في سياسة السعديين ؟ ألا نجد في سياسة عبد الله الغالب هذه ، بوادر لما سينهجه المنصور لاسيما في توسعاته نحو الجنوب ؟ أين نحن من الجهاد كدعامة أساسية للدولة السعدية ؟ إذا كان الموقف الرسمي يتميز بتبني الجهاد على المستوى

(23) ابن أبي محلي ، *المهراس* 28

(24) المصدر السابق 34

(25) A. LAROUI; *le Maghreb*, P 229. J. Berque, Ulemas..., P 54 - 57.

(26) المؤرخ المجهول نشر كولان : 33 و G. Drague, *Esquisse...*, P.67.

الخطابي وباللجوء للمناورة على مستوى الممارسة فما هو موقف العلماء من الجهاد وكيف تناول ابن أبي محلي هذه الظاهرة ؟

### أ - ظاهرة القرصنة

لعل ظاهرة القرصنة كانت من الأمور التي شغلت بال معاصريه[27] وفي شأنها قال «فمالطة بين الغرب ومصر في البحر تأسر الحجاج وتلقفهم كالثعبان»[28] ثم في مناسبة أخرى نراه يقول «وقد ذكر لي بعض أهل مسراته من سواحل طرابلس عام حججت (1001 ـ 1002هـ) عن بعض قسيسي النصارى لما قام السائح فيهم وادعى كونه المهدي ـ فبادر إليه النصارى بالهدية من مالطة ليعينوه على الترك مكيدة منهم على الاسلام»[29] فهذه ملاحظات ومعلومات أوردها شاهد عيان، توضح مساهمة فرسان مالطة، لكن الأهم هي الممارسات التي كان يلجأ إليها هؤلاء من أجل مساندة القائمين على الأتراك لأن خطر هؤلاء كان ملحا على مالطة في البحر الأبيض المتوسط ألم تكن للبابا يد في هذه الممارسات ؟ هل ازدهرت القرصنة لأنها كونت عبر العصور «الحرب المباحة»، أو «الحرب الصغرى»[30] لقد شكلت الحروب عموما والقرصنة بالخصوص موردا من

(27) دار نقاش كبير حول هذه المشكلة هل هي جهاد بحري أم قرصنة ؟ من المسؤول عنها ؟ يمكن حصر هذا النقاش في ثلاث مواقف الكتابة الاستعمارية وبعض الكتابات الأوروبية حاولت أن تلصق الظاهرة بالمسلمين عموما وبشمال افريقيا بالخصوص نرى بعضهم يقول «موانىء شمال افريقيا عبر العصور مخابىء لسفن القراصنة الخفيفة والتي لجأت على الدوام لاصطياد المسيحيين»
Gaston Zeller, *les Temps modernes* De CHRISTOPHE COLOMB A CROMWELL Hachette 1961. P 55.
وأما الموقف الثاني هو الذي يقدم العكس أن القرصنة هي ظاهرة أوربية «القرصنة أوربية الأصل لأنها نشأت على إثر أزمة الجنوب الذي أصبحت تخنقه الدول القومية الكبرى» فبالرغم من الانتقادات التي وجهها عبد الله العروي ل P. HUBAC, *les Barbaresques* Paris 1949 فإنه أخذ بهذه الفكرة واعتبرها «صائبة» أنظر A.LAROUI, *L'Histoire du Maghreb*.., note 21.
أما الموقف الثالث فهو الذي يعتبر القرصنة ظاهرة عالمية «ليست القرصنة ملكا لضفة دون أخرى أو لجماعة دون أخرى ولا يتحمل مسؤوليتها جانب واحد أو متهم واحد بل هي ظاهرة ظرفية وبيئية» Fernand Braudel, *la Mediterranée*.. T II.P 191.
يبدو أنها إذن كانت تدخل ضمن صراع الفقراء ضد الأغنياء

(28) الاصليت 18

(29) الاصليت 26

(30) بين Fernand Braudel أن القرصنة ظاهرة قديمة في البحر الأبيض المتوسط، تكلم عنها Homere مثلا وقد عرفت بأسماء أو مصطلحات كثيرة، وأشار إلى أن النصوص خصصت كلمة قرصنة للحديث عن المسلمين (Course) في حين أن العمليات الأنجليزية عرفت في النصوص بكلمة Piraterie
F.Braudel, *la Mediterranee*.., TII P 191.

الموارد الأساسية إلى درجة اعتبر معها الأسير كطريدة مربحة بالنسبة للقراصنة[31] إن سيطرة الغرب على البحر خلال القرن XVI كان لها وقع كبير، جعلت الناس يشعرون بتفوق الضفة الشمالية وأن الاختناق الاقتصادي الذي أشار إليه عبد الله العروي أصبح أمرا ملموسا[32] وقد عبر ابن أبي محلي بطريقته على الشعور بهذا التفوق حين قال متكلما عن ضرورة ظهور المهدي المنتظر لينقذ من «غلبة العدو عليه (أي السلام) حتى ظن المشركون أن دين الاسلام ليس بشيء[33] إنها الحسرة والاعتراف بالضعف واللجوء إلى القوى الغيبية من أجل ايجاد القوة القادرة على الوقوف أمام الهجومات الأوربية التي أصبحت تلاحق المسلمين في البر وفي البحر «البحر بأفلاك الكفرة ملئان والبر بسواحله في غاية الذل من عبدة الصلبان»[34]

## ب ـ معركة وادي المخازن

إن حماس ابن أبي محلي هذا يتعارض والموقف الذي وقفه في معركة وادي المخازي[35] التي عرفت اجماعا مغربيا مكنت الأشراف السعديين من تدعيم ملكهم لقد أظهر في هذه المعركة الأمير عبد الملك حنكة ومهارة في الشؤون الحربية أدهشت عدوهم[36] لقد شارك في المعركة خلق كثير ومن كل طبقات المجتمع بالرغم من الخوف الذي عانى منه الجميع لكن ابن أبي محلي لم يشارك بل قرر مغادرة فاس لأنها كما يقول كانت مهددة بالحصار وتوجه إلى بادية كريكرة «وكان سبب اجتماعي به[37] أني كنت شابا[38] حريصا على العلم في حضرة فاس في حدود ستة وثمانين بعد تسعمائة قمت بفاس كذلك أربع سنين أو خمسا إلى أن جاء النصارى مع الأمير محمد بن عبد الله من طنجة فغنمهم المسلمون

(31) J.Berque, *l'Interieur du Maghreb XV-XIX*. P 154

(32) A. LAROUI, *l'Histoire du Maghreb*.., 235 236.

(33) الاصليت 29

(34) الاصليت 18

(35) كان يسميها أحيانا بهذا الاسم الاصليت 28

(36) المثير هو كيفية تناول المصادر البرتغالية لهذه المعركة، لقد تجنبت أغلب المصادر الكلام عنها، وحتى تلك التي أشارت إليها فإنها همشت الحماس الشعبي المغربي مركزة بالخصوص على أخطاء البرتغاليين ولا سيما بعض الفئات الدينية التي كانت مسؤولة عن تربية الأمير Dom SEBASTIEN ، واتهمت كبار الدولة بالانغماس في الرشاوي والرذائل لذا جاء الانهزام كعقاب من الله وأن الملك لم يمت وأنه سيعود لنلاحظ فكرة المهدي المنتظر

(37) يقصد شيخه محمد بن مبارك الزعري.

(38) كان عمره 19 سنة.

بحمد الله تحت راية الليت المنصور السلطان أبي مروان ثم وقع الغلاء المشهور فلما خاف الناس على المدينة الحصار والنصارى يومئذ من عسكر استشرت من الطلبة أخا صالحا فدلني على الخروج للبادية ناصحا حتى يتجلى نهار الأمر ، فعند ذلك خرجت منها مضطرا إلى بادية العسل والسمن[39]»

عاد مرات كثيرة ليتحدث عن معركة وادي المخازن وأورد عنصرا جديدا في هذا الصدد ويتعلق الأمر بمن سماه بصاحب النصاري «فكانت الدائرة على محمد المذكور وجنده النصارى[40] ثم التحق (أي المتوكل) بالنصارى ولم يزل كذلك حتى غنمهم المسلمون ، وفر وقيل مات وليس بصحيح في وادي المخازن»[41] ثم في مكان آخر أضاف قائلا «والحق أنه ما مات فيه (يعني وادي المخازن) ولكنه فر مختفيا حتى مات بالسودان بعد أعوام كثيرة لأني لقيت رجلا رآه بعد خلعه في بعض الأقطار من الغرب وهو ثقة صدوق والله أعلم»[42] خصص أثناء كلامه عن المعركة أوصافا خاصة لأبي مروان فهو في نظره «أبو مروان الشجاع» ، و«صقر الملوك» و«الليث المصور» ، في حين أن كلامه عن المنصور الذهبي كان كلاما باهتا فلم يذكره إلا بصنو أبي مروان في حين أن الكتابات الرسمية الفشتالي ، ابن القاضي ، المقري الخ) قدمت لنا أوصافا للمنصور أحيانا لا يقبلها العقل هذا النموذج يوضح بجلاء أهمية الكتابة المحلية أو العائلية لأنها تعمق وتوضح الكتابة الرسمية فكلام ابن أبي محلي عن معركة وادي المخازن ، قد أعاد الأمور إلى حجمها لأن المنصور أثناء المعركة كان في موقع ثانوي ، وحتى بعد المعركة فإنه كان يخاف تدخل الأتراك أو الجيش ضده

أثناء حديث ابن أبي محلي عن المعركة نراه يبرز غنيمة المسلمين «كما غنمهم المسلمون غنيمة قل مثلها[43] والمثير في كل هذا تخليه عن أنانيته في كلامه عن المعركة بل ركز على الدور الذي لعبه عبد الملك ، ولم يحاول أن يبرز الحماس

(39) الاصليت 6 و 7 لنلاحظ المعلومات التي سجل الغلاء ، فرار الناس للبوادي الخ

(40) الاصليت 28

(41) الاصليت 58

(42) الاصليت 116 المهم هنا ليست ، صحة ما قاله ابن أبي محلي لأنه أورد معلومات قد لا تقبل لأن المتوكل ذهب إلى فزان وطرد منها ، ثم ذهب إلى الهند ، وأنه توفي في بورنو من السودان ، ولكن الملاحظة الأساسية هي أن ما نعرفه عن تاريخ المغرب ، لا زال ضئيلا ، لأن حتى الأحداث البسيطة لا زال فيها شك

(43) الاصليت 28 و34 و58 و76 .

الشعبي ، ولم يشر إلى العلماء والمتصوفة الذين شاركوا فيها[44]

فعوض المشاركة اتخذ قرارا ، ربما منفردا مما تسبب له في نوع من التهميش الاجتماعي من جهة والقطيعة مع أبيه من جهة ثانية وإلا لماذا هذا الانعزال لمدة 18 سنة في التصوف الذي سيندم فيما بعد على جانب منه ؟ لنسمعه يتحدث عن هذه المرحلة «ثم جاء الله بالنفحة من عندها فارقت مجالس العلم الظاهر لا رغبة عنها بل فليس عليها لَمَا أتا فيه ، فكان ذلك سبب انحياشي بالكلية فإليه[45] فبلغ الخبر والدي ـــ عفا الله عنه ـــ فكتب إلي كتابا يبالغ في ملامي ومفارقة دروس العلم وأهله بالحضرة الفاسية وإنكاره علي أشد الانكار قائلا ويحك كيف استبدلت العلم بالجهل والحاضرة بالبادية[46]

## جـ - حض القبائل على الجهاد ضد اسبان وهران

ألا يمكن أن نجد في موقفه الجديد في مطلع القرن السابع عشر رد فعل ومحاولة لرد الاعتبار ؟ أم أن الموقف الجديد كان وليد الظرفية الجديدة لا سيما من بعد عودته من الحج ومعاينته لوضعية المسلمين سواء في الشرق أو في الغرب لعل أكبر حدث في حياته فيما يخص الجهاد يكمن في موقفه من احتلال وهران ؟ هل موقفه هذا كان مبنيا على الصدفة ؟ أم أن المنطقة التي كان ينتمي إليها كانت على اتصال وثيق بوهران ؟ ثم ما معنى اتصال الغزاة المسلمين به وطلبهم اياه تحريض القبائل على الجهاد ؟ هل هذا يعني أن مكانته في المنطقة كانت مرموقة ؟ وفي هذا التحريض نراه يقول « واستنفرت مع ذلك كل راشدي وزناتي... لما حكى لي ما فيه بنو عامر من المذلة أحد الغزاة في سبيل الله[47] هنالك سالت دموع القلم على أخذ الطاووس... إلى من تقع بيده من خواص الاسلام وعامة الكرام وخصوصا من هو أهلا لابلاغها إلى حضرة ملك البحرين وإمام الحرمين الشريفين أحمد بن عثمان وأسد الأتراك ، أي خاقان – أيده الله بتوفيقه – فإن مرت على أمير تلمسان فالمرغوب منه سبحانه أن يوقظه ويلهمه لما فيه خراب دار طاغوت وهران وإن سلكت إليه عن طريق الجزائر فسلطانها الموفق إن شاء الله ينهيها» بل ألف قصيدة شعرية وجهها للأتراك في نفس الموضوع ومطلعها

(44) ربما يرجع موقفه هذا لعدم مشاركته في المعركة لذا تجنب الحديث عن المشاركين فيها ، ولا يستبعد أن يكون انعزاله للتصوف وعدم رجوعه إلى فاس لنفس للسبب ، لا شك أن جو الانتظار في المعركة أعطى مكانة وجاها للمساهمين فيها وبالخصوص في جامع القرويين

(45) يقصد شيخه الزعري

(46) الاصليت 60

(47) يقصد المجاهد أحمد بورويس الذي قاد الجهاد ضد الاسبان في وهران .

ومن مبلغ أيضا ملوك الأقـاليم     وكل رئيس من رؤوس العمائم(48)

لم يقف عند هذا الحد بل أرسل رسائل مماثلة إلى شيوخ القبائل ، يحثهم فيها على الجهاد ، وألف قصيدة رائية جد معبرة في الموضوع(49) حتى « أوقظ بها هماما هامدة وقرائح جامدة» بدأها بقوله «إلى من سيقف عليها من رؤساء القبائل ، وفرسان الحمائل مثل الشيخ عبد القادر الراشدي وأضربه من كل قبيلة» إلى أن استهل القصيدة بقوله

فمـن مبلـغ عنـي قبائـل عامــر     ولا سيما من قد توى تحت كافر(50)

إذا اكتفى بالقلم بالنسبة لوهران فإنه سيأخذ السيف عندما سمع بتسليم العرائش من طرف المأمون إلى إسبانيا ؟

### د – تسليم العرائش

لقد اعتبر تسليم العرائش الضربة القاضية على الدولة السعدية وحول هذا الانهيار أثيرت نقاشات كثيرة ، هل انهارت الدولة السعدية غداة وفاة المنصور لأن المخزن كان مرتبطا بشخص السلطان الذي لم يترك أبناء في مستواه(51) أم أن الانهيار

(48) تاريخ هذه القصيدة ربيع الثاني 1016 أنظر الاصليت 17 – 18 و 19 نلاحظ أنه اتخذ الاعتدال عند كلامه عن سلاطين الأتراك على عكس ما قاله في حق السعديين كما سنرى ، فقد تكلم عنهم «كليوث بني آدم في الحروب وعصابة الجهاد» لماذا وقف هذا الموقف من الأتراك ، مع العلم أنه كان على علم بضعفهم سواء حين كان مسافرا وعائدا من الحج أو أثناء مكاتبته لهم فهو يخاطب أحمد خاقان ، ولكنه يعلم أن تلمسان يحكمها أمير وأن الجزائر فيها سلطان كما ذكر ، ألا يمكن أن نبحث في موقفه هذا عن إيمانه بتأسيس الخلافة الاسلامية لرد الاعتبار كما أشرنا للمسلمين ؟ وهل كان يقبل خلافة الأتراك ؟ ثم لماذا اختار النسب العباسي ودافع عنه ؟ لنسمعه يتحدث في موضوع الخلافة «الأتراك العثمانيون – أيدهم الله – هم أعظم ملوك الاسلام اليوم وأن الخليفة العباسي هنالك ، كلما مات عباسي استخلفه آخر مكانه ، فالسلطان على هذا إنما منفذ عنه فقط» الاصليت 26

(49) أشار J. Berque أنه توصل من عند المؤرخ الجزائري بوعبدلي بمخطوط «تهييج الأسد» غير أننا لم نتكمن من الاطلاع عليه ، لأنه غير معروف ، ألا يمكن أن يكون مجرد مجموعة الرسائل التي بعث بها ابن أبي محلي إلى القبائل في موضوع الجهاد ؟ J. Berque, ULEMAS..., P 273. note 11.

(50) الاصليت 19 – 20 – 21

(51) «لم يكن أي واحد من أبناء المنصور الثلاثة مؤهلا لاستخلافه»
Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, Hatier, P 217
هل المشكلة مشكلة كفاءة ؟ لا نعتقد أن زيدان تنقصه الكفاءة ، ألا يجب الوقوف عند التوترات الاجتماعية التي كانت من الثوابت الأساسية حتى في عهد المنصور ؟ لم يفلح المخزن السعدي في إخضاع القبائل التي كانت على استعداد دائم للخروج على السلطة «قبائل جشم» لا حاجة لهم «إلا في الميل مع أهل الأهواء أو خروج على الملوك والخلفاء» عبد العزيز الفشتالي ، *المناهل* 102
ثورة الناصر بن عبد الله ، التي هزت كيان الدولة ، كان مساندا من طرف إسبانيا ، ولكن القبائل كانت إلى جانبه «وجاء بالخروج ليخرج عن سمة الممالك الشريفة... وليعل يده بالعرب الأجلاف والخفوف إلى القيام مع أول ناعق بالفتنة ... فطاروا إليه من كل أوب وصوب». نفس المصدر ص 171 .

كان طبيعيا لأن معركة وادي المخازن مكنت المنصور من الحصول على وسائل مكنته من الاستقلال مؤقتا على المجتمع في الضرائب وأن يحافظ على نوع من التوازن مع القوى المحلية ؟ أم أن انهيار الدولة السعدية كان مرتبطا بالتحولات التي عرفها العالم عموما وعالم البحر الأبيض المتوسط بالخصوص

لما لجأ المأمون إلى تسليم العرائش كيف كان رد فعل المجتمع المغربي وبالخصوص منه العلماء ؟ لقد حاول تبرير تسليم المدينة بإرساله سؤالا إلى علماء فاس هل يجوز أن يفدي أولاده من أيدي الاسبانيين بإعطائهم العرائش أم لا ؟ كان الرفض تقريبا بالاجماع ، قلة قليلة أفتت بنعم خوفا على نفسها ، وجماعة كبيرة فرت إلى البادية حتى تنجو بنفسها ومنهم المقري ، وأخيرا جماعة حملت القلم والسيف لمحاربة القرار كالشريف أحمد بن إدريس العمراني الذي حاول تنظيم الجهاد غير أنه قتل على يد قائد المأمون بفاس ، ثم ابن أبي محلي الذي تزعم حركة ربما أودت بحياة المأمون نفسه ، ولما علم الخبر لجأ إلى مناقشة المسألة نظريا

إذا لم يستطع السلطان القيام بالجهاد وجب عزله «استنصار أهل العرائش لاخوتهم المسلمين من حاضر وباد والسلطان إن عجز عنهم عجوزا. فولايته لا تجوز ، فأحرى إن أبى اختيارا فإن فيه قدحا بينا لاعانته الكفار[52]» إنه يبرر ضرورة نقض البيعة التي هي تعاقد واضح فيما بين الأمير والرعية لأنها كما يقول معاهدة على الوفاء على ما تقتضيه السنة الشريفة»[53] لا يجوز نقضها إلا بحقها ، وكذلك فإن الخروج على السلطان والقيام عليه لا يتم إلا بشرطه المعروف بين أهل العلم[54] ثم لجأ إلى مهاجمة المترددين في القيام للجهاد في غياب أمير ، أي في غياب سلطة شرعية ، نظرا لكثرة «أمراء الوقت»[55] لم يستطع المأمون أن يقنع ، لأن الرفض كان بالاجماع ولأن المطالبة بالجهاد عمت جميع الجهات

(52) ابن أبي محلي ، *الهراس* ، 7

(53) ابن أبي محلي ، نفس المصدر 196

(54) ابن أبي محلي ، الاصليت 27

(55) محمد حجي ، *الحركة* ، 1 : 197 - 216 وبالخصوص 206 و207 .

# الفصل الثالث
# خصوصيات الكتابة عند أبي محلي

احتوى الاصليت على مجموعة من الرسائل ، بل يشكل الكتاب برمته رسالة ، وقد كانت الرسائل من الوسائل المفضلة والمحببة عند العلماء ، عن طريقها يتبادلون الرأي عندما يثار النقاش حول مسألة علمية أو حادثة اجتماعية(56) والملاحظ أن الاصليت – كباقي مؤلفات ابن أبي محلي – يخلو من المراسلات الرسمية ، أي المراسلات الصادرة عن الديوان المخزني والمتعلقة بأمور الدولة ومراسمها ، وتنظيم شؤونها أو علاقاتها مع الدول الأخرى(57) هل هذا يعني أن الكتاب لا يتوفر على مراسلات ؟ ليس هذا هو المقصود لأن الاصليت يتوفر على مراسلات اخوانية وبفضل هذه المراسلات يكون قد سجل سلسلة من الأحداث الاجتماعية والسياسية بالاضافة إلى المناخ الثقافي لأن الطابع التعليمي قد طغى على الكتاب لهذا نراه يتعرض بالشرح والتحليل والبيان لما عرض على ابن أبي محلي من المسائل ومن المشاكل ، وقد يلجأ إلى إعطاء النصيحة ويوجه ويوعظ الطلبة والعلماء والمريدين

لعل من أهم ما تميزت به كتب ابن أبي محلي وحدة الموضوع ، فكل كتاب

(56) أورد ابن أبي محلي عدة مراسلات في مواضيع فقهية ، واجتماعية أو في التصوف (حول دعاء الصمدانية ، في البسملة ، وفي التبغ الخ) وقد راسل علماء من «الغرب» ومن «الشرق»

(57) خلال الكتاب تكلم كثيرا عن المخزن إلا أنه لم يورد أية مراسلة ، وهذه الملاحظة تعطي كتابة ابن أبي محلي ميزة «الهامشية» التي ركز عليها كثيرا J.Berque .

يختص بموضوع[58] ومما يدل على ذلك سهره على ترتيب كتبه وتفصيلها إلى أبواب وفصول وفروع[59] وهذه طريقة متقدمة في التأليف بالنسبة لعصره ومما يزكي ما نقول حرصه على تجنب التكرار ولجوؤه باستمرار إلى إحالة القارىء على أبواب المسألة – التي تذكر عرضا أو للتذكير – في المكان المخصص لها والمعروف منذ بداية الكتاب ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى أمثلة كثيرة لنبدأ بالاحالة على ما سبق «ففي أواخر دولة المنصور ظهرت الشجرة المختلف في حكمها وهي تبغ على وزن ضرب ، وقد *تقدمت* بما معها من الفتاوي آخر الباب الثاني فلا نطيل بإعادتها هنا[60] وأما في الاحالة إلى ما سيأتي في الكتاب وفي مكانه المناسب فنأخذ النموذج التالي «وقد خضت معه ومع مثله من أعلام المالكية والشافعية فأجاب – وفقه الله – بما ستقف عليه – إن شاء الله – في الباب الرابع الذي به الختام حيث *يناسب* الكلام»[61] مما يميز كتابة ابن أبي محلي لجوؤه باستمرار إلى طرح الأسئلة لأنه في نظره «لا تمكن المعرفة إلا بالسؤال إذ العلم بالتعلم فلا بد من المراجعة فيما أشكل ما أمكن وإلا بقي على جهله وهو مأمور بدفعه»[62] كان يعتبر طرح الأسئلة ضروريا ومناقشة العلماء فيما نجهله أولا نفهمه أساسيا[63] ثم إن دور العالم هو تلبية شغف السائلين والمناقشين لأن ذلك واجب عليه «وقد قالوا العلماء مؤتمنون على ما ينقلونه ومبحوث معهم فيما يقولونه»[64] هل

(58) *القسطاس المستقيم في التصوف*
*السلسبيل* في المهدوية والامامة
*الوضاح* في التصوف
*أجوبة الخروبي* في الدفاع عن أبي عمرو القسطلي شيخ شيخه ، الخ

(59) بالنسبة للاصليت انظر هامش 100
أما منجنيق الصخور مثلا ففيه مقدمة وثلاثة أبواب
الباب الأول ذكر حال هذه الطائفة الزائغة بالمغرب
الباب الثاني في الطائفة الأخرى
الباب الثالث في جواب من سألني عن المهدي.
الخاتمة في مسائل شتى.
قد أخر الكلام عن المقدمة في تقديم الكتاب لينطلق بها مباشرة
أنظر ، المخطوط ضمن مجموع الخزانة العامة عدد 338 ق ورقة 130 - 131

(60) الاصليت 115

(61) الاصليت 87

(62) الاصليت 140

(63) لقد تسبب له هذا الموقف في مشاكل كثيرة لا سيما حينما كان غير معروف سواء في مصر أو في فاس

(64) الاصليت 137 .

طرحه للأسئلة راجع لطريقة تكوينه ؟ إذ أنه افتخر كثيرا باعتماده على نفسه في العلم الظاهر «إني ما حصلت على شيوخ التدريس إلا النحو فقط فاستدركت بعد ذلك ما فاتني بالمطالعة أحيانا وبالرحلة»(65)

لماذا لجأ إلى تسجيل الأحداث ؟ هل سجلها عرضا أم سجلها عن وعي ؟ ففي هذا الموضوع بين بكل وضوح أن تسجيله للأحداث كان يهدف إلى غايتين الأولى تعليمية والثانية ذات بعد تاريخي «وإنما اعتمد في التاريخ ما قرب من الشيء لتعذر تحقيق شهره ويومه وسنته ولكن *أتحرى ما يهدي إلى الحق*(66) فذكر دولة معلومة وآية مشهورة ترشد الطالب إلى زمان ما يريد تعيينه، فلذلك كان حقا على أهل كل *زمان أن لا يضيعوا ما يظهر فيه*»(67) وحتى يكون أمينا فيما يقوله كان ابن أبي محلي يذكر دائما مصادر أخباره، وإذا لم يكن متيقنا منها، نبه على ذلك، ولجأ مرارا إلى استعمال الشهادة العينية أو الرواية الشفوية(68)

كان ابن أبي محلي يتدخل في النصوص التي يوردها في الكتاب، إما ليسوقها في منطق النقاش وإما ليستدرج القارىء إلى مايريد أن يصل إليه لذا كان يلجأ باستمرار إلى التضمين والاقتباس من القرآن والحديث ويورد الأشعار والحكم الصوفية وأمثلة من الاشارات التاريخية التي عاصرها وإما بالتأكد من صحتها فكان يرجع إلى نسخ كثيرة إذا وجدت ليقارن فيما بينها ليعطي في الأخير النص الذي يعتقد أنه أسلم وأحسن(69) كما كان يذكر للقارىء العيوب والأخطاء التي كان يجدها في النصوص(70)

---

(65) الاصليت 65

(66) لا يقصد بالحق هنا المفهوم الصوفي ولكن يقصد الحقيقة

(67) الاصليت وبالخصوص 114 و 115 ويمكن الرجوع كذلك إلى ورقة 67

(68) الاصليت 114 «أوقفني بعض من شاهد ذلك» أو «لست فيه الآن على يقين لبعد من أراجعه فكفى الأشعار به عن علمه ولا ضرر مع الاعتراف وإنما القادح الاقتراف»
«» 15 أو «وقد أجبته بما لم يحضرني الآن» الاصليت 86
أما عن الرواية الشفوية فعند كلامه عن تغوير ماء سجلماسة قال كما «أخبرتني به جدتي»

(69) لجأ إلى تصحيح الدعوة الصمدانية قبل أن يرسلها إلى علماء الشرق «بعد *انتخاب* ألفاظها من عدة *نسخ* وقفت عليها *فأثبتها* لمن شاء انتهت الدعوة الصمدانية على الوجه الذي *رأيته أو ارتضيته لنفسي*» الاصليت 119

(70) كان يلجأ كذلك إلى تلخيص ما في النصوص إما لانخرامها أو لأنها تكون غير واضحة مثلا «ولكن قبل هذه المقالة كلام سابق لم أقف على أوله *لانخرامه* من أصله إلا أني إن ظهر إلي تصحيف شنيع في لفظه والمعنى مفهوم من بيانه ربما *أصلحته* أو أخذت مفهومه *ملخصا* أو ضربت عن المشكوك فيه من غير تبديل للمعنى» . الاصليت 32 .

غلب على أسلوب ابن أبي محلي السجع ، فكان لا يلجأ إلى تبسيط كتابته ، ربما لأنه كان يخاطب النخبة العالمة ، ولأن من مميزات العالم المقتدر استعمال السجع ويظهر من خلال الكتاب ومن مناقشاته أنه كان على دراية كبيرة باللغة(71) والشعر انتقد بأدب شعرا مدحه الطناني به «قلت وقد حام في بيته هذا على معنى غريب من التضمين إلا أنه أسس قافية بالألف... وهو لا يجتمع مع غير الموسوس فاطلب معرفته في عيوب القوافي. وقد يغتفر هذا من مثل هذا الامام ولعله يرى أنه ليس بعيب من اجتهاده مع الخليل أو لسهو وهو الأشبه والله أعلم»(72) وقد لاحظ نفس الشيء على الامام المصرفي الذي قال فيه كذلك شعرا حين قال «وفي قوله تختم وتقطع وتأسيس القافية ليس بعيب وإنما نبهت أنا عليه لئلا يتجرأ عليه بالاعتراض عبدة الأعراض كما قيل»(73) بل لجأ كذلك إلى فقه اللغة ليشرح أشياء أشكلت «وقوله في ولي يحصل في الغرب تمام نصاب زكاة هكذا أثبت في رسالتكم دون ألف ولام في زكاة وهو مشكل بإضافته لما بعده وإن نكرته فقد يحتمل أي زكاة ما من الزكاة فكان التنوين فيه التنويع على هذا أن قصده قائله ونطق به كذلك منونا وإلا فنحن نتكلم على ما يفهمه اللفظ المنطوق به ، وهو الذي وصل إلينا دون قصد المتكلم فلا علينا منه إذ لا يلزمنا»(74)

يمكن القول في الأخير بأن أسلوب ابن أبي محلي يعبر عن شخصيته المعقدة ، المتقلبة المزاج ، لأنه كان يلجأ إلى استعمال الجدل والعنف والليونة بحسب الظروف والمخاطب إلا أن «الأنا» قد احتلت مركز الخطاب من البداية إلى النهاية فكان يتكلم عن نفسه باستمرار إلى درجة كانت تجعل النص أحيانا خانقاً وأما الآخر في الخطاب فكان لا يظهر إلا كمكمل أو كموضح لِشَخْصية الأنا المركزية

(71) نصحه أبوه عند دخوله فاس لأول مرة أن يركز على اللغة والنحو لأنهما مفتاح كل العلوم

(72) الاصليت 48

(73) الاصليت 89

(74) الاصليت 52 وهنا نجد الجواب على السؤال الذي طرحناه عند حديثنا عن اختياره للعناوين التي كانت توحي بالهدم

الفصل الرابع

# مميزات الرحلة وطريقة التحقيق

## - مميزات الرحلة

من خلال المواضيع التي تناولها ابن أبي محلي نستطيع أن نخرج بفكرة عن هموم معاصريه ومشاكل عصره لأنه لم يكن بعيدا عنها بل ساهم في بلورة بعض أحداثها لا في «الغرب» فقط بل وكذلك في «الشرق» أثناء رحلتيه فما هي أهم خصائصهما ؟ وما هي مكانتهما بالمقارنة مع رحلات أخرى ؟

تميزت الرحلتان بتركيزهما على الجانب التعليمي ، لقد فصل ابن أبي محلي في الكلام عن المناخ الثقافي الذي وجده في الشرق وبالخصوص في مصر[75] فعرف بشيوخه المشارقة ، وقدم الحلقات التعليمية بالجامع الأزهر ، وكان يفتح نقاشات كثيرة على هامش ما يقول وما يقدم «وأما ذكر ما اتفق لي في الحجتين ومن لقيته من الفضلاء في الرحلتين فهم شيوخي المشارقة الذين تقدم ذكرهم في مقالتهم من الباب الثاني ، فانظره مع ما يتبع ذلك بالاستطراد»[76]

ألح ابن أبي محلي على الصعوبات والمتاعب التي واجهته في رحلته الأولى بالخصوص ، لأن ظروف السفر في الرحلة الثانية كانت أهون[77] فهو يقول في

(75) لا نطيل في هذا الموضوع لأنه يوجد مفصلا في تحقيق المتن

(76) الاصليت 113

(77) كانت الحجة الأولى سنة 1001 / 1002 هـ والثانية عام 1014هـ حج في المرة الأولى مباشرة بعد خروجه من زاوية شيخه الزعري ، وأكد بأنه حج طالبا الصحو من الحال الذي أصابه منذ مدة ، وأما الحجة الثانية فقد تمت في ظروف أحسن من بعد وفاة والده ، ورجوعه إلى بلده ، أليس للارث دور في تحسين هذه الظروف ؟

الحجة الأولى : « ... فكانت مع طريق الصعاليك لفقد الركب يومئذ مع هجوم الحال وقوة السبب القاذف بالعزم في يوم الترحال دون شروط الوجوب» . لقد أعطى تدقيقات عن متاعب هذه الرحلة ، كما أورد الظروف المعاشية للمناطق التي كان يمر منها ، والذي طغى على وصفه ، هو القلة في الزاد[78] وبالاضافة إلى عنف الطبيعة ، فإن بعض المناطق العثمانية التي مر منها كانت تعاني من اضطرابات اجتماعية ومن ثورات كتلك التي قادها السائح بطرابلس ، وقد ادعى هذا الثائر أنه المهدي المنتظر ، بل أشار ابن أبي محلي أنه كان مساندا من طرف مسيحي مالطة . كان لقيام السائح هذا ذوي كبير ، ومما يؤكد ذلك خوف ابن أبي محلي أن يتهم بأنه من أصحابه لأن الأتراك يقول : «وما بلغنا قابس إلا عن مشقة عظيمة وفي خوف مفرط من القائم السائح مع الترك والأعراب لأنه يومئذ بقيد الحياة والأرض الافريقية من القابسية في هول وهرج – فكفى الله شرهم ... فمررنا ساحة البلقاء وهي مدينة طرابلس وما دخلناها من الترك وأصلها لما فعله بهم القائم عبد العزيز خديم السائح المذكور فحسب به كل المغاربة يومئذ حتى البراء منهم وأتم ذلك على فاعله»[79] . فهذه معلومات جد مهمة وجديدة : فالمعروف أن الأتراك قد عانوا في مطلع القرن الحادي عشر الهجري من ويلات الثورات وفي ولايات كثيرة ، لكن الجديد هنا هو ضبطنا لحالة بعينها بفضل شهادة ابن أبي محلي ، والذي انفرد به هنا هو مساهمة المغاربة في هذه الثورة ، وفي طرابلس أو بالقرب منها ، فعبد العزيز هذا من قواد هذه الثورة لأنه خديم السائح المذكور ، وأعتقد أننا أمام بعد جديد للبحث التاريخي . لقد كانت هذه الحجة متعبة على عكس الحجة الثانية التي كانت أهون بكثير : «فما لقينا «بحمد الله – مع قلتنا إلا خيرا في جميع الأحوال كلها والبلدان[80]» . وقد نظم في هذه الرحلة قصيدةِ شعرية مطلعها :

من حامل العذراء في الهودج الخود     إلى سيد الأشراف والعالم المهد[81]

بالرغم من المعلومات التي أوردها ابن أبي محلي في هذه الرحلة ، فإنها تبقى معلومات جد قليلة بالمقارنة مع ما نجده في نماذج أخرى من الرحلات كما هو الشأن

(78) لقد أكد كثيرا على هذا الجانب فنراه يقول «ونحن في غاية القلة والجوع والمحنة قد لا نقتات سوى ما تنبت الأرض أحيانا» . الاصليت 113 .
أنظر كذلك الخريطة .

(79) الاصليت 114 .

(80) الاصليت 114 .

(81) الاصليت 2 و 3 .

عند أبي سالم العياشي مثلا(82)، الذي تميز بالتدقيق وبالتفصيل في الأمور التي كان يوردها أو يصفها فنراه يقف عند شرح أسماء القبائل والأماكن (نفزاوة مثلا) بل يمكن القارىء من تتبع الحياة في الركب أطال في المسامرات الليلية وفي تبادل الزيارات فيما بين الحجاج(83) داخل الركب، وأعطانا فكرة عن التجارة والتجار فيه(84) دون أن ينسى حتى خصائص الدواب فبين مزايا البغال والابل(85) لماذا هذا الاختلاف في التدوين عند الرجلين ؟

يبدو أن لاختلاف مزاج كل واحد منهما أثر في ذلك، فأبو سالم العياشي الفقيه، الهادىء المتواضع يقف عند هذه الأمور ليصفها لأنها أساسية بالنسبة له ولمن سيأتي من بعده وأما ابن أبي محلي فهو الفقيه المدلل الأناني الذي يغلب عليه أحيانا التسرع والاندفاع فلا يستطيع أن يفصل في هذه الأمور لأنها ليست غايته

كما أن الرحلتين تختلفان في الزمان وفي الحجم، فأبو سالم سافر في ركب الحاج الذي يخضع لطقوس وقوانين مضبوطة ومعروفة لذا تكلم عنه وكأنه يقدم لنا مدينة متنقلة في حين أن ابن أبي محلي خرج إما كمغامر في زمرة من الصعاليك في الحجة الأولى وإما في نفر قليل من أهله في الحجة الثانية مع هذه الاختلافات تبقى المعلومات التي جاء بها ابن أبي محلي أساسية لأنها تتعلق بنوع خاص من الرحلات، أي الرحلات الغير المنظمة، والتي لا نعرف عنها الكثير أضف إلى كل هذا أن ابن أبي محلي ألف رسالة لم تشكل فيها الرحلة إلا حيزا قليلا في حين كان التأليف عند العياشي يستهدف التدوين «فكانت تلك الرحلة ولم يكن فيها كبير أمر يعتني بكتابة الرحلة لأجله إلا ما يشترك في معرفته عامّ الحاج وخاصهم من أوصاف المسالك وتعدد المراحل وأسماء البلدان(86) نلاحظ أن أبا سالم العياشي كان يسعى إلى تدوين كل المعلومات التي من شأنها أن تدلل الصعاب للحجاج أو تشوقهم إلى زيارة الأماكن المقدسة فمن أجل هذا ألف رحلة ضخمة، وبأسلوب أدبي مشوق، على عكس ابن أبي محلي الذي أورد كلامه عن الرحلة في سياق آخر ضمن رسالة بعث بها إلى «علماء الشرق وقادة العصر» لذا كان أسلوبها غير أسلوب العياشي ومنطق كلامها غير منطق كلام هذا الأخير

(82) أبو سالم العياشي، الرحلة العباسية – ماء الموائد – مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1977

(83) نفس المصدر، 1 24

(84) أبو سالم العياشي، *الرحلة*، 1 46 – 48

(85) نفس المصدر، 1 – 61

(86) أبو سالم العياشي، *الرحلة*، 1 : 4 .

- **طريقتنا في التحقيق**

يوجد مخطوط الاصليت في أربع نسخ ثلاثة منها بالخزانة الحسنية بالرباط ، إحداها مسجلة تحت عدد 100 وهي التي نرمز إليها ب «ا» ، والثانية مسجلة تحت عدد 4442 ونرمز إليها ب «ب» ، والثالثة مسجلة تحت عدد 4009 ونرمز إليها ب «ك» وأما النسخة الرابعة من الاصليت فإنها توجد بخزانة دار الكتب المصرية مسجلة تحت عدد 431[87] حاولنا أن نقتني منها نسخة مصورة ، راسلنا هذه المؤسسة مباشرة ثم عن طريق محافظ خزانة كلية الآداب إلا أن النتيجة كانت سلبية

قد يعتقد ، أن هذه النسخة هي الأصل لأن الاصليت ألف في شكل رسالة وجهها المؤلف إلى «علماء مصر وقادة العصر»[88] لكن سرعان ما نتأكد من العكس لأن ابن أبي محلي أجاب بنفسه على هذا الاحتمال في مكان آخر ، حين أشار ثم إن لم تصلكم منه (يعني الاصليت) نسخة بخط بدى بعد المبيضة ، فالعذر مقبول إذ لا يمكنني عادة كتب كلامي مرتين فأكثر لأن الثاني ربما ظهر لي معه في أحوالي ما يصير الأول منها كالمنسوخ لفظا أو حكما فيتسلسل التبيض فاجتنبته»[89]

لذا اعتمدنا في تحقيق رحلة ابن أبي محلي على نسخ المكتبة الحسنية والتي لا تخلو بدورها من مشاكل نقدمها فيما يلي

لعل أكبر الصعوبات هي التي تطرحها نسخة «ك» فقد ضاعت منها عدة أوراق وحتى تلك التي بقيت فإنها غير مرقمة ومصابة بخروم كثيرة جعلتها غير صالحة للاستعمال ، إضافة إلى كل هذا ، فانها لا تتوفر على أية إشارة لاسم الناسخ أو لمكان وسنة النسخ وإن كانت نسخة «ب» أقل صعوبات فإنها مع ذلك غير كاملة[90] وبالتالي فإنها لا تتوفر على اسم الناسخ ولا على سنة ومكان النسخ ، أضف إلى هذا أنها تتخللها خروم في الأطراف[91] لكن وبالرغم من هذه العوائق تبقى هذه النسخة أساسية للتحقيق لأنها مكتوبة بخط مغربي واضح ، تخلل

(87) ابن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، 2 368

(88) الاصليت 2 و 5

(89) الاصليت 126 ظ

(90) تنقصُ «ب» عشرة (10) أوراق من حجم «ا» لأن «ب» تبدأ من فصل «فالجزولي إذا شيخ العصابة بالمغرب ..» في حين أن هذا الفصل يوجد في ظهر الورقة العاشرة من «ا»

(91) المعروف أن الأرضة تبدأ بأكل أطراف المخطوطات قبل أن تهاجم وسط أوراقها

الكلمات فجوات ، رسم حروفها واضح وقد لجأ الناسخ أحيانا إلى شكل بعض الكلمات ، كل هذه المعطيات جعلت قراءتها سهلة نسبيا عدد صفحات هذه النسخة (368) في كل صفحة (24) سطرا وفي كل سطر(15) كلمة تبقى «ا» أحسن النسخ المتوفرة ، لأنها كاملة ومنظمة ومرقمة ، بل ذيلها المؤلف بمراسلات توصل بها في موضوع التبغ من بعد ما أنهى تأليف الكتاب كما أوضح ذلك[92] تتوفر هذه النسخة من جهة ثانية على المعلومات اللازمة للتحقيق فالعنوان – إن لم نقل العناوين – مضبوط[93] ، واسم المؤلف مع تاريخ ومكان التأليف معروفان بدقة[94] بالاضافة إلى هذه المعلومات فإن «ا» تمكننا من أخذ فكرة عن تنقل ملكية الكتاب فقد جاء في الصفحة الأولى من المخطوط مايلي

«الحمد لله (كلمة غير مقرؤة) من الله تعالى بالشراء الصحيح والثمن المقبوض بيد مالكه عبد ربه تعالى الحاج الطيب بن (اسم غير مقرؤ) بن العربي بن عبد المومن بوبحو بن أبي محلي السجلماسي[95] – وفقه الله بمنه – آمين ، وقيده في الرابع والعشرين من محرم الحرام عام سبعة وستين ومائة وألف (1167) عبد ربه» ثم التوقيع[96] لقد تحولت ملكية الكتاب إلى عبد القادر بن عبد الله بن مصطفى بن الشيخ المشرفي الحسني الراشدي ، وقد كتب اسمه داخل التوقيع بخط عدلي صعب القراءة «تاريخ التمليك ذو القعدة الحرام عام سبع وأربعين ومائتين وألف (1247) «والكتاب ملك لأحمد بن عبد الله الحسني»

لقد حدد الناسخ تاريخ النسخ واسم السيد الذي كلفه بنسخه له بالأجرة حين قال «الحمد لله هذا الكتاب المبارك كتبته للفقيه الأجل الأفضل سيدي محمد بن المرحوم (كلمة غير مقرؤة) بن المنعم سيدي عبد الرحمن بن برطاس بالأجرة في

---

(92) أنظر الاصليت 146

(93) أنظر ص 112 هامش 101

(94) قال ابن أبي محلي في الأخير :«ا وهذا آخر ما نورده في الهودج في أواسط شوال عام ستة عشر وألف قيد بالوادي» (الساورة) ، الاصليت 147

(95) لقد شطب على اسم ابن أبي محلي السجلماسي الوارد في عقد البيع هل الغاية من التشطيب هي انتقال الملكية الكتاب ؟ أم أن البائع ، وهو من ذرية ابن أبي محلي ، لا يريد أن يعرف اسمه لما في ذلك من إهانة ؟

(96) لنلاحظ التركيز على التوقيع من أجل تحديد الملكية لأن الكتب كانت تتعرض للسرقة ، كما تؤكد ذلك عبارة بالشراء الصحيح والثمن المقبوض لاشك أن هذه الاحتياطات قد مكنت من المحافظة على مخطوطات كثيرة لكن تبين في الوقت نفسه ندرة هذه الكتب ، لأن النسخ كان يكلف كثيرا وبالتالي فإن الثقافة كانت منحصرة في القلة في حين أن الطباعة دخلت أوربا منذ نهاية القرن الخامس عشر وساهمت في نشر الكتب وضرب مركزية ثقافة الكنيسة .

التاريخ المؤرخ به أعلاه فمن كتبته له قيد به شهادته[97]

يبدو أن الورق المستعمل هو الورق الذي كان متداولا في هذه الفترة (1137هـ) وكان يستورد من أوربا وقد كتب الكتاب بخط مغربي مجوهر سريع بالمداد الأسود الملون للعناوين بالأحمر[98] بالرغم من صعوبة القراءة بالمقارنة مع «ب» فإن الباحث يطمئن لهذا الناسخ لأنه كان على دارية كبيرة بالأمور التي كان ينقلها – فجاءت أخطاء هذه النسخة قليلة بالمقارنة مع النسخ الأخرى[99] عدد صفحات هذه النسخة (147) ورقة من القياس الكبير 5، 19 × 28، في كل صفحة 29 سطرا وفي كل سطر (17 كلمة)

عملنا في المرحلة الأولى على مقابلة النسخ ومقارنة ما جاء في كل واحدة منها من أجل اثبات النص والتأكد منه كما صححنا فيه ما يستدعى التصحيح ونبهنا على ذلك في الهامش وقد لجأنا إلى التعريف بالاعلام الواردة في النص باستثناء المشهورة منها، كما حرصنا على الوقوف عند الاشارات أو الرموز الغامضة وسمحنا لنفسنا بإعطاء تعليقات حول مواضيع اعتبرناها تحتاج إلى تعليق

لقد التزمنا في تحقيق النص بقواعد الرسم المعمول بها حاليا، كما وضعنا النقط والفواصل وعلامات الاستفهام، والتعجب بالاضافة إلى الرجوع إلى السطر كلما بدأ المؤلف في فقرة جديدة، كانت الغاية الأساسية هي إعطاء النص في شكله الكامل والمفهوم

(97) وضع الناسخ اسمه داخل التوقيع محمد حسني أما تاريخ النسخ فهو كما جاء في نفس الصفحة (1137) الاصليت 147

(98) استعمال الألوان في المخطوطات لها علاقة بترتيب النص في منطق المؤلف فاللون الأحمر يعني ضرورة الوقوف لأن شيئا يوجب الوقوف والتريث والتأمل

(99) لعل من أهم مميزات هذه النسخة هي حرص الناسخ على التعقبية أي الكلمة التي تكون في أسفل الصفحة على اليمين والتي تدل على بدإ الصفحة التي تليها وتمكن من الاطمئنان إلى تسلسل المخطوط.

القسم الثالث

# الرحلــة

# رحلتا ابن أبي محلي

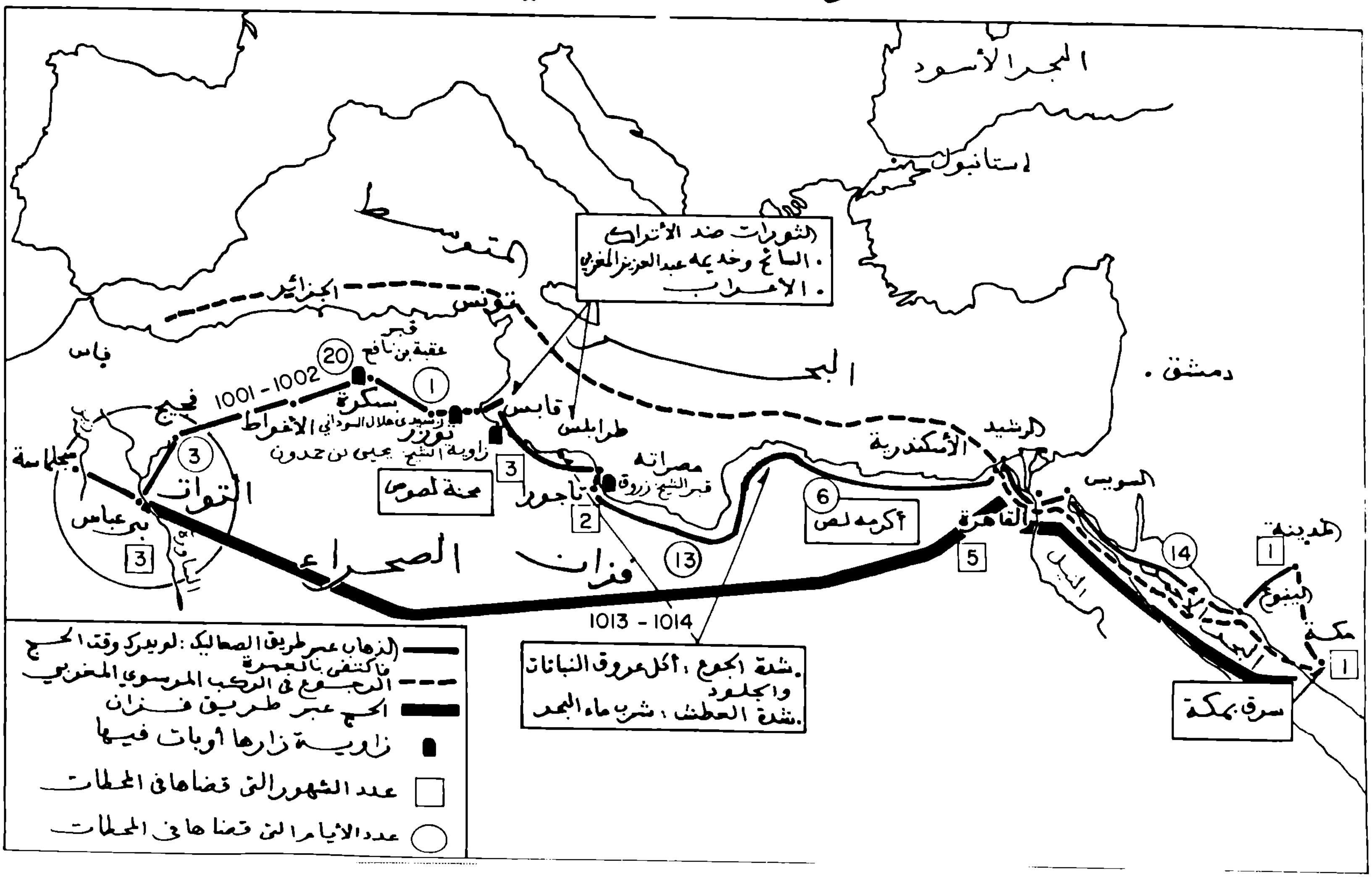

في الرسالة أو الاصليت(100) والهودج(101) ، إذ في كلها لا حرج كمرج الأرج ، فيمن أخذت عنه شيئا من العلم الظاهر من أئمة المشارقة شيد الله مفاخرهم ، وخلد في طروس العلم مآثرهم

فمنهم شيخ الاسلام ، وقدوة الأنام ، عدة الغرب والشرق ، وامام المالكة في وقته بإجماع الخلق وهو الشيخ سالم السنهوري المصري(102) – قدس الله روحه ونور ضريحه – فقد قرأت عليه – رضي الله عنه – من مصطلحهم في أصول

(100) يحتوي الكتاب على أربعة أبواب خصص المؤلف الباب الأول لذكر شيوخه في التصوف ، ثم يتلوه الباب الثاني «فيمن أخذت عنه بعض العلم الظاهر وفيه مقالتان إحداهما في ذكر شيوخي المغاربة ، والأخرى فيمن أخذت عنه شيئا من أئمة المشارقة» أ 58 ظ ، أما الباب الثالث فقد ذكر فيه ما يتعلق «بنسبه الجثماني» وأما الباب الرابع فقد خصصه ابن أبي محلي لما شاهده من «خوارق العادات»

(101) أعطى ابن أبي محلي عناوين كثيرة لعل أبرزها ما ذكره في الصفحة الأولى من ا «قد سميتها عذراء الوسائل ، وهودج الرسائل ، في مرج الأرج ، ونفحة الفرج ، إلى سادة مصر ، وقادة العصر ، أو اصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت» على أن الكتاب اشتهر *بالاصليت*

(102) هو سالم بن محمد بن عز الدين السنهوري مالكي كان مستقرا بالقاهرة ، وبها تعرف عليه كل من ابن القاضي ، وابن أبي محلي وقد جعل هذا الأخير وفاة الشيخ السنهوري سنة 1015 هـ من بين الذين ترجموا له ابن القاضي ، *درة الحجال* 3 314 وخير الدين الزركلي ، *الأعلام* ، 3 208 *دائرة المعارف الاسلامية مادة* : السنهوري .

الحديث ألفية الامام العراقي[103] إلى قرب ختمها ، عند ذكر الصحابة - رضي الله عنهم - أو قريبا منه ففارقته متوجها للحج في الراجبية من بحر سويس إذ ركبته وبقيت على ظهره نحوا من أربعة عشر يوما ثم أرسينا بالينبوع[104] المدينة قبل مكة في الحجة الأولى[105] وبها صمت رمضان كله ثم في الفطر توجهت لمكة وأقمت بها شهرا قبل مجيء الحاج على نحو ما أذكر ، إن شاء الله في الباب الثالث وغيره وكذلك أيضا ، حضرت مجلسه بين المغرب والعشاء بالجامع الأزهر[106] مدة اقامتي بمصر قبل الحج إذ فاتني ومكثت أرتقب وقته في القاهرة[107] نحوا من خمسة أشهر - وهو رحمه الله يقرىء *الشفا* للقاضي أبي الفضل عياض[108] وفي هذا المجلس ، قالوا ، ألقيت عليه بعدى صخرة من كوة في السطح تقابله لتفضح رأسه بين الناس عن حسد من أهل المذاهب بحكم الهوى - دمر الله فاعله ومغربه - فوقعت وكل الحضور قعود فسلمه الله والحمد لله وكلا المجلسين في ملأ من نجباء المالكية والشافعية الأعلام[109]

وكذا أيضا حضرت مجلسه يوم الجمعة بالأزهر مع كبار الشافعية وغيرهم في

---

(103) أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن زين الدين العراقي الكردي توفي سنة 806 هـ ترجم له محمد بن الحسين العراقي الفاسي في تصدير *لشرح ألفية العراقي* ص 9 - 19

(104) منطقة بالساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية في الضفة الشرقية للبحر الأحمر ، البكري معجم *ما استعجم* ، 4 : 1402

(105) حج ابن أبي محلي للمرة الأولى سنة 1002 هـ لقد أعطى تفاصيل عنها في الكتاب وبالخصوص في صفحتي 113 - 114 من «أ»

(106) أسس مسجد الأزهر ما بين 359 و 361هـ ويقع في الجنوب الشرقي من مدينة القاهرة ويعتبر أهم مركز إشعاع للثقافة الاسلامية العياشي ، *الرحلة* ، 1 124 - 126 ، الزياني ، *الترجمانة الكبرى* 105 - 203 - 379 ، *دائرة المعارف الاسلامية* مادة الأزهر

(107) تأسست مدينة القاهرة سنة 359 هـ / 969 م على يد جوهر الصقلي وهي عاصمة مصرالعربية اليوم ابن عبد الحق ، *مراصد الاطلاع* ، 2 383 ، *دائرة المعارف الاسلامية* ، مادة قهر

(108) هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، المعروف بالقاضي عياض ولد بسبتة سنة 476هـ ، وتوفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الثانية ، وقيل في شهر رمضان العام 544هـ ترجم له الكثيرون من بينهم ابن خلكان ، *وفيات الأعيان* ، 3 152 - 154 ، ابن فرحون، *الديباج* 168 - 172 ، ابن قنفد ، *شرف الطالب* 62 ، المقري ، *أزهار الرياض* ، محمد بن محمد مخلوف ، *شجرة النور الزكية* 140 - 141 خير الدين الزركلي ، *الأعلام* 5 282

(109) ناقش ابن محلي ، وفي عدة مناسبات داخل الكتاب قضية تعصب بعض العلماء لمذاهبهم كما انتقد الذين «يرجحون المذهب على السنة» وكذا أولئك الذين يتبنون مذاهب ملوكهم ، وقد قال عنهم الذين «يرافقون مذهب ملوكهم» . أنظر 85 - 92 - 127 من «أ» .

سماع صحيح *الامام البخاري*(110) – رضي الله عنه – وهو يوم خاص عنده بذلك المجلس للرواية عنه – أيده الله – وكذلك حضرت اقراءه أياما قلائل في *ألفية ابن مالك*(111) في النحو ، وابن الهائم(112) في الفرائض ، غير أني في هذا الفن الأخير ما استفدت عنه شيئا أعتد به الآن وإنما ذكرته لوقوعه فقط وكذا أيضا حضرت درسه في صدد رسالة بن أبي زيد(113) في المذهب ، وما طال ، وكذا في مختصر الامام خليل(114) ، لكنه في حال أقل من القليل وقد نبهت على هذا في مقالة المغاربة عند ذكر فن الفقه الجليل فهذه جملة ما أخذت عنه أيده الله وكنت حين الأخذ عنه في الحجة الأولى ، رث الهيئة ، في غاية الضيعة ، قد لا يعبأ بي الناظر إلا بعد سبر حاضر ، عن الحقيقة حاسر فكان لا يباليني يومئذ إذا سألته ، كغيره ، إلا قليلا حتى انفصلت عنهم نحو المغرب وقد تركت فيهم من نظمي ، ونثري ، ما نوه بذكرى ، وخبرى(115) ، فندموا على إهمالي ، فلما

(110) أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي عاش ما بين 13 شوال 194هـ و30 رمضان 256هـ اشتهر بكتابه في الحديث *الجامع الصحيح* وقد رتبه على أبواب الفقه ترجم له الكثيرون منهم ابن حجر في *مقدمة فتح الباري* ، ابن قنفد ، *شرف الطالب* 43 ، محمد بن محمد مخلوف ، *شجرة النور الزكية* 503 – 504 ، خير الدين الزركلي ، *الأعلام* ، 2 11 و6 258 – 259 *دائرة المعارف الاسلامية* مادة البخاري

(111) أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن مالك الطائي الجياني النحوي ت 672هـ ترجم له الصقاعي ، تالي *كتاب وفيات الأعيان* ، 169 ، الصفدي ، *الوافي* ، 20 *دائرة المعارف الاسلامية* مادة ابن مالك

(112) أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي ، أبو العباس شهاب الدين المعروف بابن الهائم ، مصري المولد والنشأة ت 753 هـ ترجم له ابن القاضي ، *درة الحجال* 1 63 ، خير الدين الزركلي ، *الأعلام* ، 1 218

(113) أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني عاش ما بين 310هـ و386هـ قال في حقه القاضي عياض في كتاب *المدارك* كان إمام المالكية في وقته وكان واسع العلم كتبه تشهد له بذلك وحاز رياسة الدين والدنيا». من أشهر مؤلفاته *الرسالة* ترجم له الزركلي *الأعلام* ، 6 73

(114) خليل ابن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المصري المعروف بالشيخ خليل من أكبر علماء المذهب المالكي المتأخرين ، له شرح على مختصرين الحاجب الفرعي ، ومختصر للمذهب المالكي الذي حظي بإقبال كبير توفي سنة 769هـ ترجم له ابن القاضي *درة* ، 1 257 – 258 ، وأحمد بابا *نيل* 111 – 112 وأحمد الونشريسي *وفيات* ، 127

(115) كانت لابن أبي محلي اتصالات كثيرة مع الشرق لا سيما مع علماء مصر كان الاتصال مباشرا في الحجة الأولى والثانية ، كما تم الاتصال بالمراسلة وتبادل المؤلفات يبدو أن تآليفه تركت أثرا سيئا عند بعض العلماء في الشرق وقد تكلموا في شأنها مع بعض العلماء من المغرب ، واعتبروا هؤلاء تآليف ابن محلي إساءة للمغرب كما يظهر ذلك في قوله «وإن المشارقة يضحكون من المغاربة بسبب تآليفي» ورقة 88 من الاصليت لذا نراه يطلب من علماء الشرق إنصافه فقال : ◄

عدت الثانية ثلاثة عشر وألف أو أربعة عشر ، برسم الحج أيضا في نفر ، وركب غير كبير ، بخلاف الهيئة الأولى لأني صاحب ذلك الركب ونزلنا من القاهرة بغرب جامع طولون[116] فما شعرنا إلا والامام السنهوري المذكور – رحمه الله – راكب على حماره من الجامع الأزهر يتلقانا ويهنينا فعجب الناس من فعله إذ لا يركب لأحد قبل ذلك شرقا أو غربا فهش وبش وعظم وصرح بالقطبانية[117] في حق من عليه سلم عن ظهر الغيب ، والله أعلم ، بحق ما به تكلم فشاهدت من بروره ما راعني ، واستدعاني لداره بعد المقفل من الحجاز ، فأكرم ووادع وبالغ في القبول – شكر الله سعيه فبمن أدخله بفضله الجنة بغير حساب وقد فاز – وسأذكر إن شاء الله بل أجلب نص سؤالي اياه عن حكم الشجرة الحادثة في زماننا هذا تسمى تبغا أو تبغ[118] في الباب الرابع الذي به الختام في الحوادث وما يتصل بها من أجوبة غيره عنها أو قبله

ومنهم الفقيه المحدث الشيخ طه البحيرى منسوب مصغرا قرأت عليه *ألفية العراقي* المذكورة وما فاتني منها عنه إلا قليلها كالسنهوري – رضي الله عنهما – وكذا حضرت درسه في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء ، ليالي لابن سيد الناس[119] – رحمه الله – ولم أقرأ عليه سوى ذلك إلا أني بحمد الله قد انتفعت بهما معا في مصطلح أهل الحديث أي انتفاع إذ لم تكن لي رغبة أيام اقامتي بمصر والحجاز إلا في فن الحديث الذي هو في غربنا

◄ «فما تقول سادة العصر وقادة مصر بالله لا تكتموا الشهادة» نسخة ا ، 90 من بين كتبه التي وصلت إلى الشرق يذكر في الصفحة المذكورة *القسطاس والوضاح* زيادة على *الاصليت*

(116) نسبة لمن بناه وهو أحمد طولون ما بين 263هـ و265هـ في جبل يشكر ، عبد الحق ، *مراصد الاطلاع* ، 2 355

(117) القطب أو الغوث عند الصوفية هو الانسان الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان

(118) ناقش ابن محلي تعاطي الناس ، في زمنه تدخين التبغ أو طابة بل خصص صفحات كثيرة من الكتاب لهذه الظاهرة دافع عن حليتها وأرسل عدة أسئلة في شأنها إلى علماء الشرق والمغرب ، فطابة في رأيه «قريبة العهد بالحدوث» «أ» ، 91 حدد زمان ظهورها في مطلع القرن الحادي عشر أ 136 كما جعل مكان خروجها «بلاد الكفار» أ 97 وكما ألح على كثرة فوائدها من «تسخين الرأس والجسد ، انزال البلغم والطعام للمعدة» «ا» 145
ويبدو أن ظهورها كان مرتبطا باكتشاف العالم الجديد ، ومنه وصلت إلى شبه الجزيرة الايبرية حيث انتشرت بسرعة ، ومن ثم انتقلت إلى باقي مناطق العالم

(119) فتح الدين محمد بن محمد اليعمري الاشبيلي اشتهرت عائلته بالعلم ورحلت إلى مصر توفي سنة 734هـ ترجم له الصفدي ، *الوافي بالوفيات* 1 311 ، محمد بن محمد مخلوف *شجرة النور الزكية* : 176 ، *دائرة المعارف الاسلامية* مادة ابن سيد الناس .

غريب[120] ولما أيقنت بقصر المدة ، اقتصرت من علومه على تحصيل أصوله التي عني بها ابن الصلاح[121] *وناظم كتابه العراقي* إذ بها يتصرف المحدث في روايته ودرايته حتى عدت للغرب فتلاقيت بعض ما فاتني من فروع الرواية ، كالرواية على ابن عبد الجبار[122] باللسان العربي – فأجاب رحمه الله – وكان أول ما يقرر المسألة من *نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر* ، لابن حجر[123]– رضي الله عنه – بلغة قومه العجم الحضور ، ثم يعيدها لي أنا خصوصا ، بلسان عربي مبين ، حتى ختمتها عليه أيده الله وقيدت ذلك عنه يوم الأحد التاسع عشر من ذي القعدة عام اثنين بعد الألف ، بمكة تجاه الكعبة بالحرم الشريف – واسمه رضي الله عنه الشيخ محمد بن يوسف هكذا حين سألته عن اسمه فهو إذن محمد يوسف لكنه من غير واوعطف ، فاعلمه ، وهو الذي ذكر لي ذلك حين سألته عن اسمه فهو إذن محمد يوسف بن سيف الله البدخشي[124] بالعراق من بخارى[125] كما عرفني به وبدخش[126] ، ناحية منها وهي بباء مفتوحة موحدة ثم دال مهملة مفتوحة تليها خاء معجمة ساكنة وآخره شين معجمة تكسر لياء النسب ، وإلا فهي ساكنة ، كذا عرفني به – رحمه الله –

قلت ومن غريب ما سمعته منه أن قال بقرب بلده ناحية ليلها مقدار ما بين

(120) ردد ابن أبي محلي الفكرة كثيرا في صفحات ومناسبات كثيرة من الكتاب إلى درجة أنه جعل منها إحدى خصوصيات الثقافة المغربية في عصره بل حتى العصور التي سبقته

(121) أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي النصر المعروف بابن الصلاح والملقب بتقي الدين فقيه شافعي مشهور ت 642هـ ابن خلكان ، *وفيات الأعيان* ، 2 407 – 410 ، ابن قنفد ، *شرف الطالب*

(122) أحمد بن أبي القاسم بن عبد الجبار الفجيجي ، توفي في 2 رمضان 1021هـ ختم عليه ابن أبي محلي *صحيح البخاري* في 20 دي الحجة 1008هـ كما بين ذلك في «أ» 73 ، ترجم له القادري ، *نشر المثاني* ، 1 175

(123) أحمد بن علي بن أحمد شهاب الذين أبو الفضل الكناني ابن حجر العسقلاني القاهري محدث ومؤرخ وفقيه ، توفي في نهاية ذي الحجة 852 هـ ترجم له غير واحد ، وخصه السخاوي ب «الجواهر والدرر من ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر»

(124) محمد يوسف بن سيف الله من أصل إيراني، كان من علماء بلده المرموقين لا سيما في النحو والحديث

(125) تقع بخارى في شمال شرق بحر قزوين، وبالتالي فهي بعيدة جغرافيا عن العراق، غير أنها كانت تابعة سياسيا للأمبراطورية العثمانية

(126) بدخش، نسبة لبدخشان، وهي منطقة جبلية تقع في الضفة اليسرى من المجرى الأعلى لنهر اموداريا ويطلق على المنطقة كذلك اسم بلخشان اشتهرت بنوع من اللؤلؤ لا يوجد إلا فيها وعرف هذا اللؤلؤ باسم بدخش أنظر ياقوت، معجم *البلدان*، 1 360 عبد الحق، *مراصد الاطلاع*، 1 : 135 *دائرة المعارف* الاسلامية مادة بدخش *أطلس التاريخ* الاسلامي، 24 25 .

العصر والغروب فقط أو أقل وكل زمانهم نهار الايسيرا(127) ، وأن أهل بلده يسافرون لتلك الناحية ، وأنه لاشك في ذلك والله على كل شيء قدير ، ولا أتهمه لعقله وعمله ورزانته فيما أرى وكذلك حدثني عن إمام الحرم يومئذ ونحن جميعا نصلي خلفه غير مرة ، اسمه الشيخ ابراهيم الحنفي ، وكذلك البدخشي المذكور أيضا حنفي المذهب ، عن شيخ هندي كان مجاورا معهم بمكة قبل قدومنا عليها ، من مشايخ الصوفية الأعزاء ثم عاد(128) إلى الهند وإنه يوم الحكاية فيما أرى بقيد الحياة ، إلا أنه غائب عنا وإنه يوما من الأيام كان جالسا بالحرم الشريف ، والشيخ ابراهيم المذكور كغيره في حلقته ثم أنه جرى له ذكر كرامة الأولياء وعزتهم على ربهم ، وأن لهم معه تعالى سرا وعلما مكنونا فقال له بعض الحضور ما معناه دعنا من هذا فإن كنت منهم فلينقلب هذا الحجر في يدك ذهبا فعدها لأحدهم فإذا بها ذهب ابريز ثم مضى بها الشيخ ابراهيم أو غيره للسوق فصرفها – نفعنا الله بهم حيث كانوا فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم والراوي هذا شيخنا ثقة ، وكذا الشيخ ابراهيم رضي الله عنه ، وكلاهما ذو علم ودين فيما أرى

قلت وأنا أيضا قد اتفق لي مثل هذه مع مجدوب من مجاذيب مصر(129) أظن

---

(127) أصبحت هذه الظاهرة معروفة اليوم ترتبط بميل محور الأرض بزاوية 27 °23، وبحركتها حول الشمس في السنة يبدو أن ابن محلي كان يجهل الظاهرة «وأنه لا شك في ذلك والله على كل شيء قدير الخ» وقد قدم الظاهرة بنوع من الاستغراب «ومن غريب ما سمعته» في حين نرى أبا القاسم الزياني المتوفى سنة 1249هـ يقدم الظاهرة بدون استغراب فهو يقول في كلامه عن الأهواز «وبلاد الروس جزيرة دار موشة، بها مدن، وقرى، ثم مدينة بلغرة وبها يبلغ قصر النهار والليل إلى غاية القصر والطول»

أنظر *الترجمانة الكبرى* ص 498 لماذا هذا الاختلاف في التقديم بين الرجلين ؟ لا شك أن لفارق الزمن (أكثر من قرنين) بين الرجلين تأثيرا ثم هناك كذلك علم خاص هو التوقيت أو الفلك يعرفه البعض ويجهله البعض الآخر

(128) عادا، كذا جاءت في أ وهو تصحيف

(129) أسند ابن أبي محلي الكرامة لكل من المجذوب والسالك لأنهما ينتميان في اعتقاده للمتصوفة ولقد أعطى، في مناسبة أخرى، التصنيف التالي

1 – الفقيه وهو القائم بأحكام الله في مقام الاسلام

2 – المتكلم وهو العالم بحكمة الله، وهو سيف الله على الزنادقة

3 – وأما المتصوف فيبقى بمثابة المشاهد بعين اليقين، وقطب دائرة الوجود

إن هذه الوظائف لا تتنافى، بل تتداخل وتتكامل في المنظومة الاجتماعية فإذا كان الفقيه يرعى الاسلام والمتكلم يرعى الايمان فإن المتصوف يرعى الاحسان فالأول يبدو وكأنه ضرع، والثاني يمثل اللبن وأما الثالث فإنه زبد ومن ثم فإن الوالي والمجذوب ينتميان إلى نفس الصنف، إلى فئة المتصوفة إلى الزبد

ابن أبي محلي، *مهراس رؤوس الجهلة* : 35 – 36 – 37 .

أن اسمه ريحان ، وذلك عند بروزنا في الحجة الأولى برسم الراجبية ونزلنا على العادة بالبركة ليجتمع الناس وفي قائلة من تلك الأيام خرجت من خباء أصحابي لأنفرد بنفسي وهم من القدس ومصر فأتيت حائطا فيه شجر الأثل وغيره ، والناس فيه متفرقون على ظلاله ثم تخطيت أوائلهم طلبا لمحل لامشوش فيه من ظله وقد مررت برجل حاف على رأسه خرقة يمشي كالمجنون بين الناس وما عبأت به حتى جاوزته فإذا الجسر ورائي قد تبعني فالتفت فإذا به عندي يكلمني قائلا ما معناه إلى أين تذهب ؟ هذا كله ملك الله ! فدهشت منه ! ثم إنه سايرني ساعة حتى انتهينا إلى ظل شجرة ليس فيه شاغل فجلس بي ، ثم إنه قال لي هل عندك شيء من الدراهم ؟ فأخرجت له جميع ما في ملكي يومئذ. وهي تسعة دراهم لا سوى ، فسألينها فألقيتها في يده ثم قال لي أخرجت عنها لله ؟ قلت نعم ، ولو كانت الدنيا كلها في يدي لرميت بها في كفك طيبة بها نفسي وما زال يكرر عليّ وأنا في زيادة معه حتى رمى بها في الهواء فأتبعتها بصرى ، وما وقعت في الأرض بل لا أدري ، وإن - كنت داريا - أين موقعها(130) ، ولا كيف كان أمرها فازددت رعبا وقد علاني البكاء والعجب وقبلت اليد للرجل وسألته

(130) أورد جاك بيرك نفس الحكاية في كتابه في صفحتي 53 - 54 ULEMAS, Fondateurs, غير أن تناوله لهذا الموضوع يفرض تسجيل الملاحظات التالية
الملاحظات التالية

1 - وقع جاك بيرك، في خلط فيما يتعلق بالأسماء الواردة، فالشيخ الذي تحول الحجر على يده ابريزا متصوف من الهند، لا من بخارى كما جاء عند بيرك، وأن أبا محلي لم يلتق به وإنما سمع قصته من يوسف بن سيف الله البدخشي عن ابراهيم الحنفي إمام الحرم يومئذ

2 - قدم بيرك المجذوب ريحان عاريا في حين أن ابن أبي محلي رآه حافيا

3 - أعطاه ابن أبي محلي كل الدراهم التي كان يملك وهي تسعة دراهم لا سبعة كما أورد ج بيرك

4 - انقلب الحجر سكرا في فمه، ولم يذكر النص بأنه انقلب كذلك زعفرانا كما ادعى جاك بيرك

5 - هناك ملاحظة أخيرة وتمس منطق النص نفسه فالحكاية الواردة في حق ريحان، المجذوب المصري، جاء بها ابن أبي محلي، لا ليبين الصعوبات التي واجهته في رحلته إلى الحج، كما اعتقد جاك بيرك ولكنه أوردها في سياق النص العام فهي لا تنفصل عن حكاية الشيخ الهندي المتصوف، المقصود عنده أيضا، وبالأساس التركيز على كرامات ومكانة الصوفية، وإلا كيف نفهم هذا الكلام ن على «فازددت رعبا وقد علاني البكاء والعجب قبلت اليد للرجل» ثم لماذا وضع أبي محلي نفسه بين يدي هذا المجذوب وأصبح يمتثل لأوامره لذا استعمل صيغة الأمر في الخطاب» قم وصل وأجبره على النوم قهرا.» فموقف ابن أبي محلي من ريحان المصري، هو موقف المتصوفة من المجذوب الذي «اصطفاه الحق لنفسه واصطفاه بحضرة أنسه وأطلعه بجناب قدسه ففاز بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب» . الجرجاني، *التعريفات* : 213 .

سؤالا مضطرا معترا

فقال لي قم فاركع أربع ركعات أو اثنتين شكرا لله تعالى وصلى على النبي – صلى الله عليه وسلم – كذا وكذا ثم نم في موضعك إلى صلاة العصر

فما وسعني إلا طاعته غير أني لا أعلم تأويل قوله شكرا لله إذ لم يبين لي ما أشكره عليه خصوصا وإن كانت نعمه تعالى على عبيده لا تحصى فنمت كما أمرني قهرا وما استفقت إلى العصر فدرته وما وجدته ثم لا أدري أين ذهب حتى الآن غير أن بعض الحجاج ، تلك السنة أيضا ، ذكر لي أنه لقيه ، وفعل به مثل ما فعل معي وذلك حين جالسني بالحائط المذكور تناول من الأرض عودا أو حجرا صغيرين ، وطوبا كذلك فيما أرى فألقى الكل في فمي ففتحته طوعا له وخوفا منه ثم إنه استحال كله سكرا في فمي فكدت أخرج عن حسي لذلك قلت أفي يقظة أنا أم منام ؟

ثم قام عني يدور الناس ساعة وأنا وحدي في حيرة كبيرة مما شاهدته فجاء إلى الثانية وقعد ثم أخذ[131] ، وأنا أنظر ، من الأرض ثلاث حصيات ، قدر الفوله بيض من حصباء الأرض فجلعها أيضا في فمي فاستحالت كالأولى سكرا فزال عندها الشك بالعيان والذوق[132] ثم ناولني أحجارا وأمرني بصرها وأن لا أحدث بذلك ، ولا أفتح الصرة حتى أجاوز البحر ولا قتلني[133] ففعلت بعض ما أمرني به لأكله ففتحت الصرة لا أدري لعذر أو غيره قبل بلوغ المحل ،

(131) ب أخذا

(132) هل الكلمات الواردة في النص كمجذوب، مجنون، ابريز حجر، خشب تدل وترمز إلى أشياء قد لا تظهر لنا لأول وهلة إن الكلمات المشار إليها تحمل معاني وأبعادا لابد من الوقوف عندها بالرجوع إلى قاموس الرموز والدلالات، وهو في أربعة أجزاء
لهذه الكلمات معان وإشارات متنوعة لأنها تحتل مكانة أساسية في الأسطورة وفي الوقت نفسه تعبر بطريقة أو بأخرى، عن هموم يومية للمجتمعات التي يستعمل فيها ذلك الرمز فالحجر يرمز إلى الحياة، لا سيما الحجر الغير المصنوع، لأن العمل صنع الانسان فالحجر حياة لذا فهو مشحون بحركة دائمة لقد قدست الديانات بعض الأحجار أهمية الحجر الأسود في الاسلام لا ننسى أن الانسان خلق من تراب وسيعود إلى التراب قال الغزالي «فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار «الغزالي، *إحياء علوم الدين*، 1 27 أما الابريز فيرمز إلى الصفاء، إلى الكمال أما الخشب والسكر فيرمزان إلى الحكمة فالوالي والمجذوب يستطيعان تحويل الحجر إلى ابريز، والخشب إلى سكر لماذا يملك المجذوب كل هذه الخوارق ؟ ربما لأنه فقد العقل المادي، وأصبح يستطيع أن يقف متحديا للقواعد الاجتماعية التي تضغط على الانسان، ومن هنا نفهم بأن المجذوب هو الذي يفجر المكبوت في الانسان

(133) هكذا جاءت في «ا» و «ب» لعل الصحيح هو الاقتلني

ففاتني مقصوده رحمه الله ومن العجب أن كل عذا[134] جاور في أوعيتي تلك الأحجار فاصفر وسرى فيه ذلك سريان الدهن بالزعفران ولما بلغت مكة وهي معي سرقت في جملة ما عندي على أنه لا درهم في ملكي يومئذ وأنا معي بضاعة أمانة لبعض الصعاليك من مصر فاختلسها من بيت صاحب الذي أنا ضيفه من يكافيه الله تعالى على خيانته من أهل مكة وقد كان المجذوب المذكور راودني عليها فلم تسمح له بها نفسي لأنها ملك غيري جريا على حكم الشرع ، وهو على الحقيقة ، فذهب الله بها وكأنه علم بذلك أو عقوبة منه تعالى خاصة بخاص في وقت دون آخر لكل مقام ، مقال ﴿*وما فعلته عن أمري*[135]﴾ شاهده ، ولي أنا إسوة بموسى عليه السلام ﴿*ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور*[136]﴾ وكفى

*فلنرجع إلى ما نحن بصدده بعد العارضة من ذكر شيوخي في العلم الظاهر من أئمة المشارقة أيدهم الله فأقول*

*ومنهم أيضا في النحو سبويه[137] زمانه ، محقق زمانه الشيخ أبو بكر الشنواني[138] بالمعجمة المفتوحة ، ونون مفتوحة أيضا ثم واو كذلك بعدها ألف تليها نون مكسورة لياء النسب* ، *وهو شافعي المذهب* حضرت درسه بين المغرب والعشاء كثيرا في *توضيح ابن هشام[139] على ألفية ابن مالك كالشذور* ، *والقطر* له أحيانا ، وكبراء الوقت في مجلسه ، مثل تلميذه الشيخ ابراهيم اللقاني المالكي[140] وغيره وكان رضي الله عنه غاية في الحفظ والتحقيق ما وقع بصرى

(134) هكذا في «ا» و «ب»، والسياق يقتضي ما

(135) الآية 82 من سورة الكهف

(136) الآية 40 من سورة النور

(137) هو عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر المعروف بسبويه، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو توفي سنة 180 ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، 1 385، خير الدين الزركلي، *الاعلام*، 5 252

(138) أحمد بن عثمان أبو بكر اسماعيل بن شهاب الدين عمر بن علي الشنواني النحوي، له شروح وحواش *على الجرومية والمختصرات* 1019هـ
محمد بن محمد مخلوف، *شجرة النور الزكية* 289، خير الدين الزركلي، *الأعلام*، 2 36 و6 227 228

(139) جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن هشام الأنصاري المصري توفي بالقاهرة سنة 761، من أشهر مؤلفاته *أوضح المسالك في ألفية ابن مالك*، ويطلق عليه أيضا *التوضح*، و *الموضح*
أحمد بن قنفد، *شرف الطالب* 83، *دائرة المعارف الاسلامية* مادة ابن هشام، خير الدين الزركلي، *الاعلام*، 4 291

(140) أبو سالم ابراهيم اللقاني – لقانة قرية بمصر – توفي 1040 هـ ابن القاضي، *درة الحجال* 1 196 الوفراني، *صفوة من انتشر* 59، القادري، *نشر المثاني* 1 : 289، خير الدين الزركلي، *الاعلام*، 1 : 21 .

في فنه على مثله شرقا ولا غربا مع حسن خلقه وإن سألته يصغي إلي لفطانته وقد لا أكثر من تسله[141] لخمولي وشغل البال يومئذ بوارد الحال

*قلت* وربما حضرت أيضا مجلس تلميذه اللقاني في *قواعد ابن هشام* حتى جرى به يوما إعراب قوله تعالى ﴿أم حسبتم أن تدخلوا[142] الجنّة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء[143]﴾ ثم إنه باحث الأزهري[144] أو غيره من الشراح في *هل* حب *حال* جملة[145] مستهم البأساء وأنه يمتنع جعله من واو خلوا الذي هو الضمير العائد على الذين قبله لما يلزم عليه من مقارنة زمان المس لوقت هلاكهم أو نحو ذلك ومن المعلوم أن المس يتقدم ثم يتبعه الهلاك ، أو كلام هذا معناه على مافهمته عنه في المجلس فلم أقبله وأرجعته فأبى وتركته لأني أفهمته على أن معنى خلوا مضوا ، حال كونهم ممسوسين بالبأساء وهذا الاخبار عنهم بعد نزول الوحي على النبي – صلى الله عليه وسلم — ، وكل زمانهم يومئذ يصدق عليه أنهم خلوا فيه ، سواء في ذلك زمان المس وغيره ثم عين المراد منه بما وقع فيه المس وبين حالهم فيه فاتجه كون خلوا معناه مقرونين بالمس ولا ضائر والله أعلم

وقعت هذه المسألة يومئذ للامام المحقق في دقائق العلوم ، وهو شيخ الجماعة أبو علي الشيخ حسن الطناني – بطاء مهملة مفتوحة ونون كذلك خفيفة بعدها ألف ونون مكسورة للنسب — ، فألفيته مع شيخه الميموني[146] وكلاهما شافعي المذهب وأنا لا أعرفه أي كونه شيخه فأحالني عليه من تأدبه معه فقلت له إني لا أعرفه فأقر بأنه أستاذه ، وتواضع – رضي الله عنه – فقال له الميموني ما معناه هيهات غليت الهمة ، وذلك منه أيضا انصاف رحمه الله ، لأن الطناني ،

(141) هكذا جاءت في *ا* وب، ولعلها تسآله

(142) صحفت في ب فكتبت أن تدخل

(143) سورة البقرة الآية رقم 212

(144) خالد بن عبد الله بن أبي بكر الجرجاوي من علماء اللغة المرموقين في عصره توفي بالقاهرة سنة 905هـ، ترك شروحا كثيرة على *الجرومية* وغيرها *دائرة المعارف الاسلامية* مادة الأزهري، خير الدين الزركلي، *الاعلام*، 1 281

(145) هكذا جاءت في *ا* و ب

(146) الشيخ ابراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي الملقب برهان الدين الميموني، له دراية كبيرة بعلوم التفسير وباللغة واشتهر في علم البيان والمعاني له تصانيف كثيرة منها *حاشية على تفسير البيضاوي* توفي سنة 1079هـ . محمد المحبي، *خلاصة الأثر* ...، 1 : 45، خير الدين الزركلي *الأعلام*، 8 : 302 .

وإن كان الميموني من أشياخه في البداية كالبلقيني[147] قد علت رتبته ، وتميزت نهيته بالادراك التام ، والتعبير الفائق وحسن الخلق والدين المتين في الخاص والعام فمال الناس إليه وانتفعوا به من تحقيقه ورفقه برفيقه فلما سألته كما سبق عن إعرابها ، وعدني ليوم آخر لعله يطالع في ذلك ما يجيبني به عن بصيرة فراجعته يومين أو نحوهما فحكى لي عن البيضاوي[148] في تفسيره أو عن غيره أنها جملة استينافية للبيان لا محل لها من الاعراب ، فكأنه يقول في جواب ما مثلهم لسائله «مستهم البأساء» الآية فكانت هذه إحدى المسألتين اللتين كانتا سببا للتعارف مع الشيخ المحقق حتى كان ما كان بيننا في ذات *الولي المنان*

## فصل

أما المسألة الثانية التي وصلت بيني وبينه فإني لما كنت أحضر مجلس الشيخ سالم السنهوري – رضي الله عنهما – في *ألفية العراقي* وأطالع لها شارح[149] المصنف نفسه مع الشيخ زكريا حتى انتهيت فيه مع فقيه بسكرى ممن يجالسنا عند الشيخ السنهوري – رحمه الله – في المطالعة إلى حيث ذكر حديث البسملة ، وأنها ليست من قبيل المنكر أو المضطرب أو ما أشبه ذلك لبعد العهد به ثم ساق جملة أحاديث للاستدلال والانتصار لمذهب الشافعي[150] – رضي الله عنه – في كونها آية من القرآن حتى في الفاتحة في أول كل سورة كتبت من المصحف[151] العثماني[152] ثم إني تأملتها بفهمي الركيك إذ لا دليل فيها فسألت جليسي وهو أحمد مقداد البسكري ، وقد سبقني لمصر بأزمان كثيرة ، عن أعلم الشافعية يومئذ وأنصفها وأقربها للحق وأتمها إدراكا وأشهرها مكانة ، وأرضاها فهما وعلما ، وأزكاها سمتا وحلما ، فأشار إلى الشيخ حسن الطناني المذكور – رحمه الله – ثم

---

(147) صالح البلقيني، شيخ شيوخ الشافعية، كان متضلعا في العلوم العقلية والنقلية توفي سنة 1015ه خير الدين الزركلي، *الاعلام*، 2 51

(148) عبد الله بن عمر بن علي أبو الخير ناصر الدين المعروف بالبيضاوي من كبار المفسرين توفي سنة 791هـ، ابن القاضي *درة الحجال* 3 67، خير الدين الزركلي، *الاعلام*، 4 284

(149) هكذا جاءت في «أ» و «ب» لعل صوابها وأطالع لها شرح

(150) أنظر إلى ما ورد في هامش 109 حول مسألة التعصب عند بعض العلماء لمذاهبهم

(151) يدور الحديث هنا عن مسألة البسملة وهل هي آية من فاتحة المصحف أم لا، وقد خصص ابن أبي محلي بابا لهذه المسألة سماه «باب ذكر اختلافهم في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب وهل هي آية منها «كما ناقشها هنا مع علماء الشافعية، وهو يطلب من حسن الطناني هنا أن يعطيه هنا موقف الامام الشافعي منها «أ» – 129 – 136

(152) إذا كان أبو بكر قد جمع القرآن فإن فضل جمع المسلمين على مصحف واحد بعد أن تعددت القراءات واختلف القوم فيها يرجع لعثمان بن عفان المتوفي سنة 35هـ .

إني أتيته قائلا له  إن لي عندك حاجة في الله تعالى
فقال وما هيه ؟

قلت مسألة أشكلت علي أريد أن أعرضها عليك لعلك تشفيني منها  وهي البسملة المختلف في كونها آية من الفاتحة أو ليست منها  وأريد مع ذلك أن تنوب عن الامام الشافعي منها[153]  صرت إليه وتركت فيها مذهب إمامي مالك رحمه الله تعالى  إذ لا أرضى بالتقليد في هذه المسألة

فقال – رضي الله عنه – ليفيدني  نعم يجوز عندنا الاجتهاد ولو في مسألة واحدة  قلت  ولعله على القول بتجزيته[154] ثم زادني بأن قال في الحين

هذه المسألة لا شك أن الامام الباقلاني[155] من أهل السنة المالكي المذهب شيخه أواسوته أبي الحسن الأشعري[156] إذ كلاهما مالكي المذهب كما ذكره القاضي عياض في *مداركه* – رضي الله عنهم – وقد خطأ فيها الامام الشافعي رضي الله عنه  وصاح عليه صيحة عظيمة محتجا عليه بأن القرآن أن لا يثبت إلا بالتواتر والبسملة بخلاف ذلك  ولكن رد عليه حجة الاسلام ، الغزالي من الشافعية – رضي الله عنه – وألف في ذلك كتابا[157] مضمن ما فيه  أن التواتر المذكور لا يلزم ثبوته عند كل أحد بل قد يثبت عند القائل بكونها آية دون مخالفه ، ولا يضير

قلت  وفي النفس منه شيء لانحطاط رتبتها عن سائر آى القرآن في تواترها ومتى انفردت عن كلها بهذا الانحطاط ؟ وما بالها تميزت بينها والفرض أنها منه وقد كتبت مع ما في المصحف دفعة  والعجب كل العجب من تخصيصها بالخلاف

(153) هكذا في «ا» و «ب» ولعلها فيها

(154) بتجزيته في «ب» وهي غير مفهومة والصواب هو بتجزئته يعني تجزئته الاجتهاد أي أن يجتهد الانسان ويقلد

(155) أبو بكر بن علي بن الطيب المعروف بالباقلاني من أئمة المالكية  كان على اطلاع كبير في الأدب والفلسفة اليونانية، وتأثر كثيرا بهذا الفكر  كانت له شهرة كبيرة في الجدل والمناظرة توفي ببغداد سنة 403هـ
ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، 1  481  خير الدين الزركلي، *الاعلام*، 2  *دائرة المعارف الاسلامية*، مادة الباقلاني

(156) أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري كان معتزلا في بداية حياته ثم تراجع ليعتنق المذهب السني ناظر المعتزلة وأقام الحجج للدفاع عن المذهب السني  ترك كتبا كثيرة  توفي أبو الحسن الأشعري سنة 334 هـ  ابن فرحون ، الديباج المذهب  94

(157) لعل الكتاب الذي أشار إليه ابن أبي محلي هنا هو  *جواهر القرآن*  عبد الرحمن بدوي، *مؤلفات الغزالي*  143 - 148 .

دونها فلا شك أن هذه الحالة مما يوهن الجزم بكونها آية الله أعلم ثم وعدني – رضي الله عنه ليوم آخر ليستعد بالمطالعة للقاء فأهملته وبعد يومين أو ثلاثة جئته بعد صلاة العصر أو قبلها فجلسنا بالجامع الأزهر لسارية منه ثم قال إيه ؟! قلت نعم أيدك الله أفدني ؟

فقال مجيبا ما معناه قد علمت أن البسملة مما كتب في المصحف وكاتبها ومن معه صحابي ثقة عالم(158) رضي بإجماع الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم – رضي الله عنهم – وعلموا أنهم سيقتدى بهم وبفعلهم فكيف يظن أنهم أدخلوا في القرآن بل في المصحف ما ليس منه ؟ وما نبهوا عليه ؟ فهذا من التلبيس(159) على الأمة أو الجهالة من الأئمة وكلاهما باطل فتعين بهذه القرينة أن البسملة آية من القرآن إن في الفاتحة وغيرها كيف وقد اعتضدت القرينة المذكورة بقول عائشة – رضي الله عنها – اقرؤوا ما بين دفتي المصحف كلام الله ، والبسملة من ذلك. وهو قول ترجمان القرآن ابن عباس(160) – رضي الله عنه –.

قلت مقتضى ما تشيرون إليه ويحرم(161) عليه استدلالكم أن تكون المقدمتان مسلمتين في قياسكم وأن كل مافي المصحف كلام الله والبسملة منه والحكم على الكل يستلزم الحكم على البعض وأنا أقول كون المقدمة هذه كلية باطل بالاجماع فقولكم كل ما في المصحف كلام الله ؟ لا نسلمه بل بعضه ليس بكلام الله إجماعا منا ومنكم فمن ذلك الألفات الزوائد وغيرها المغيرات للمعاني والأحكام كآلف ﴿لا إلى الله تحشرون﴾(162) بين لام الألف واللام الأخرى وكقوله ﴿لا أوضعوا خلالكم﴾(163) وكالواو من أولئك ، والألفات التي بعد واو الجمع ونحوها حتى ولو أن الحروف الزوائد على اختلافها ألفت لجاء منها أضعاف البسملة باتفاق والفرض أن من زاد حرفا في القرآن(164) لا سيما إذا كان يغير

(158) يشير حسن الطائي في حديثه هذا إلى الصحابي الذي كلفه أبو بكر بجمع القرآن وهو زيد بن ثابت المتوفي سنة 45هـ، لأنه كان مكلفا بكتابة القرآن على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الرقاع

(159) التلبيس كالتدليس والتخليط

(160) عبد الله بن عباس القرشي الهاشمي توفي بالطائف سنة 68هـ أحمد بن قنفد، شرف *الطالب*، 22 الزركلي، *الأعلام*، 4 228 - 229

(161) هكذا جاءت في «أ و ب» والصحيح لعله ويجري

(162) من سورة آل عمران آية رقم 158 وهي كاملة «ولئن متم أو قلتم لا إلى الله تحشرون» .

(163) الآية 47 من سورة التوبة

(164) كررت الألف والنون في *أ* تصحيفا .

المعنى ويحول الحكم كمن زاد فيه آية أو سورة وكذلك من نقص مثل ذلك ، إذ لا فرق بين قليله أو كثيره في الوجهين عندنا وعندكم وعليه فما جوابكم في ألف ﴿لا إلى الله تحشرون﴾ ؟ أليست من رسم المصحف بخط الصحابي المذكور ؟ وكل ما ذكرتموه من الصحابة شهود أي حضور فما بالهم تركوه وما محوه ، وما نبّهوا عليه ؟ فكيف لبّسوا على الأمة ؟ أم كيف جهلوا ذلك وبهم الاقتداء ؟ لأن من قرأ الألف المذكورة لزم عليه نفي الحشر ، وهو كفر أنتم لا تقولون ، وقس عليه ما أشبهه وأيضا فإن رسم المصحف سنة الصحابة وقد اجتهدوا وما يومننا أن يكون كتبها فيه عن اجتهاد لقوله *كلّ أمر مهمّ ذي بال لا يبتدأ فيه باسم الله* الحديث كقراءة نافع(165) فيما قال صاحب الدرر اللوامع ، ومن حرفه قراءة ورش(166) حين لا يبسمل

فكيف يتجه اسقاط آية من القرآن فيما يتلوه معلم أمته ، والمبين للناس ما نزّل إليهم – صلى الله عليه وسلم – بإسقاطها ولو حينا دون آخر يقضي بأنها ليست بآية ولابد ، بخلاف الرواية الأخرى عن نافع وهي التي يبسمل فيها لا تقضي كونها آية إذ يتخلل السورتين ، أي بينهما ذكرليس من القرآن أصلا كما يفعله ابن كثير في بعض السور والبسملة يحتمل أن تكون من ذلك بخلاف إسقاطها لا يحتمل معه كونها آية ، لأن القرآن لا يجوز إسقاط شيء منه حتى حرف واحد فكيف بالآية فما هذا ؟ وأيضا فلو كانت آية من الفاتحة كيف تخفى عن كل الصحابة أو جلهم أو بعضهم حتى اختلفوا فيها دون سائر آيات الفاتحة والفرض ، أنه صلى الله عليه وسلم يقرؤها في كل ركعة من الصلوات الخمس وغيرهن بل يجهر بها في الصبح والعشائين كما هي السنة في قراءتها مدة حياته صلى الله عليه

(165) لما دون عثمان المصحف على لغة قريش ، ظهر نزاع في قراءة بعض آياته ، فكان ذلك من بين الأسباب التي أدت إلى ظهور القراءات السبع نسبة إلى سبعة قراء ، وهم حسب وفاتهم

1 أبو محمد عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي الدمشقي ت 118هـ
2 – أبو سعيد عبد الله بن كثير المكي ت 120هـ
3 أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي ت 127هـ
4 – أبو عمرو زيان بن العلاء البصري الخزاعي المازني ت 145هـ
5 أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ت 156هـ
6 – أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الأصفهاني ت 167ه
7 أبو الحسن علي بن حمزة النحوي المعروف بالكسائي ت 189هـ

(166) من القراء العشرة وهو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري أخذ عن نافع وهو المعروف بورش ت 197 انطلاقا من هذه القراءات ظهرت علوم ارتبطت بها ويمكن حصرها في علم الشواذ ، وعلم مخارج الحروف ، وعلم مخارج الألفاظ ، وعلم الوقف ، وعلم علل القرآن ، وعلم كتابة القرآن وعلم آداب كتابة المصحف . ابن تيمية ، مجموع فتاوي ، 12 . 569 وما بعدها

وسلم وهو في كل يوم يراهم يصطفون خلفه حتى حفظوا منه الهيئة القولية والفعلية بالسمع والمشاهدة ، وما اختلفوا في شيء من آى الفاتحة سوى البسملة[167] فقد كان أبو بكر وعمر وغيرهما على ما في *صحيح البخاري* يدؤون القراءة بالحمد لله لا بسم الله الأصح تأويلا وكيف يظن بهم جهلها أو مخالفة نبيهم عليه السلام ، وكذلك أنس - رضي الله عن جميعهم - مع طول خدمته للنبي صلى الله عليه وسلم حين كان يصلي بها في كل صبح وعشائين فلا أقول بهذه القرينة من الوقف[168] ومن أين للجازم بأنها آية كسائر آيات الفاتحة وقد خالفتها في صفة قراءتها كما ترى ؟ والتواتر المفيد العلم للأمة كما في غيرها من الآي مفقود فإلحاقها في الرتبة بسواها من هذه الحيثية تخط من النظر للحقيقة والله أعلم فلهذا عجبت من قول السبكي[169] في جمع *جوامعه* «ومنه البسملة - أي القرآن - على الأصح» وسكوت المخالف عنه والأمر بين وقد تكلمت في هذه النازلة كما مضى مع الشيخ حسن الطناني - رضي الله عنه - فما أنف بل أنصف ، أو توقف وما جزم بكونها يومئذ آية لما عرف وكذا اجتمعت بعده في الحجة الثانية بجملة من فضلاء الشافعية ، ونبلائها الفقهاء الجلة مثل الشيخ سليمان البابلي[170] ، وصاحبه الشيخ موسى ، والشيخ عبد القادر الفيومي الخطيب[171] ، والشيخ عبد الهادي المرصفي وبحضور الامام الشريف الميقاتي من

(167) ناقش العلماء بكثرة مسألة البسملة هل هي آية من الفاتحة أم ليست منها ؟ وكان ابن أبي محلي من ضمن هؤلاء نستطيع ، ومن خلال ما أورده في الموضوع ، في صفحات كثيرة ومناسبات عديدة داخل الكتاب ، أن نستخلص أربعة أقوال ومواقف في شأنها وهي كالتالي

1 - نادت طائفة بوجوب قراءة البسملة ، وباعتبارها آية من الفاتحة يدخل الامام الشافعي ، ضمن هذه الطائفة التي اعتمدت في موقفها هذا ، على حديث عن أبي هريرة يقول فيه رسول الله «إذا قرأتم الفاتحة فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياته»

2 - نادت طائفة ثانية بنبذها لأن النبي كان يتركها في بعض الأحيان

3 كما طالب فريق ثالث بإباحة النطق بها لأن النبي قام بالفعل والترك معا

4 - أما الفريق الأخير فقد منع من قراءتها في الفرض ، وأباحها في النافلة لأنها واسعة

(168) إن موقف ابن أبي محلي واضح جدا من المسألة فهو على مذهب مالك وعنه يدافع ، وبه يناقش ، فهو لا يعتبرها آية من الفاتحة وسيعود ، كما أشرنا إلى ذلك في السابق ، باستمرار لهذه المسألة ليدافع لا عن موقفه فحسب ، بل ، وبالأساس ، كما برز ذلك بوضوح من خلال مناظرته مع حسن الطناني ، ليدافع عن موقف المذهب المالكي

(169) نسبة إلى سبك ، وأسرة السبكي مشهورة بالعلم وهي شافعية المذهب ، وتقي الدين هذا من مشاهير هذه الأسرة ، بل من أكبر علماء الشافعية توفي 756هـ ابن القاضي ، لقط الفرائد 208

(170) سليمان البابلي المصري الشافعي توفي 1026هـ بالقاهرة.محمد المحبي،خلاصة الأثر،2: 212 - 213

(171) عبد القادر بن محمد بن أحمد بن زين المعروف بالفيومي المصري الشافعي المذهب جمع بين العلوم العقلية والنقلية ، كان فقيها ومحدثا ، كما كان على اطلاع بالحساب والموسيقى توفي 1022هـ . محمد المحبي ، خلاصة الأثر ، 2 : 456 - 457

المالكية[172] والشيخ علي الأجهوري[173] منهم أيضا – رضي الله عنهم – فيما أرى بالقاهرة فلما حكيت لهم مثل ما هنا ، فيما اعتذروا للامام الشافعي بأنه إنما يقول هي آية القرآن عملا لا معتقدا

*قلت* وهو جواب لا يكفي ، واعتذار الكريم لمثله مقبول ، والصفح مع الاعتراف بالحق مأمول والانصاف بحمد الله لم يزل من شيم الأشراف

*فإن قلت* عدم حفظ البسملة خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة الجهرية لا يستلزم ترك قراءتها رأسا بل قد يسرها كما يقوله الحنفي وغيره

*قلت* نعم ، ولا تقرير أسرارها بها دون غيرها من أياتها – إن سلمه المخالف – لدليل قام عليه ، كاضطراب لحيته عليه السلام عند المستدل على مثل ذلك في محل آخر ، وكالجهر ببعض المتلوفية وهو أبين الاحتمال اضطراب اللحية لذكر غير التلاوة ، وقيام نص صريح في القضية بحيث المصير إليه ولابد وعلى تقدير ثبوته كما يحكيه ابن عبد البر[174] وغيره ، وأنه كان يقرأ البسملة في صلاته ولكنه يسرها ، فنفس الاسرار بها وحده يكفي في منع الجزم بكونها آية لاختلاف صفتي القراءتين فيها وفيما عداها من آي الفاتحة وإذا امتنع الجزم لم يبق إلا الشك والتوقف ، والعكس ، وهو أنها ليست بآية أصلا والمتوقف فيه لا يلتحق برتبة المجزوم به والقرآن كله قطعي المتن ، وإن كان مظنون الدلالة كما قيل فكونها تساوي غيرها من الآيات مع هذا كله فيه ما لا يخفى عن الناظر المنصف وكفى عدم التساوي في تطرق الاحتمال إليها والمحتمل لا ينهض دليلا عند الجميع ، وبالله التوفيق ، إلى وضح الطريق

*قلت* ومن أشياخي المشارقة هذا الامام العلامة الجهبذ الفهامة رئيس وقته ومكانه أبو علي الشيخ حسن الطناني تغمده الله برحمته ورضوانه وهو أحد كبار

---

(172) الامام الميقاتي المالكي كان متمكنا من علم الفلك والهيئة والهندسة ، من جملة العلماء الذين التقى بهم ابن أبي محلي في القاهرة في حجته الثانية سنة 1014هـ كما ذكر ذلك في «أ» 114

(173) على ابن زين العابدين بن الشيخ عبد الرحمن الأجهوري شيخ المالكية في عصره توفي بالقاهرة سنة 1066 هـ أنظر ترجمته في محمد بن مخلوف ، شجرة النور الزكية 303 – 304 ومحمد المحبي خلاصة الأثر ، 3 157 – 160

(174) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي من حفاظ الحديث ، ومؤلف مكثر له كتاب خاص بمسألة البسملة توصل به ابن أبي محلي من الامام الميقاتي عنوانه *الانصاف فيما بين العلماء من الاختلاف* توفي ابن عبد البر هذا سنة 463هـ ابن خلكان ، *وفيات الأعيان* ، 2 : 348 خير الدين الزركلي ، *الأعلام* ، 9 316 – 317

الأئمة الشافعية – أيدهم الله – خصوصا في فن الأصول والمنطق والبيان كالنحو والكلام ومن جملة تلاميذته في ذلك الشيخ سليمان البابلي ، ونظراؤه من الشافعية ، وكالشيخ علي الأجهوري من المالكية – أعزهم الله – وقد حضرت مجلس تحقيقه وفي المنطق بين المغرب والعشاء في الأزهر في مسائل شمسية الكاتبي[175] ليالي قلائل[176] ومعه *تلخيص المفتاح* في المعاني والبيان غير أني ما حصلت منهما عليه شيئا أعتدّ به يومئذ إنما قرأت عليه *ورقات* الامام أبي المعالي في أصول الفقه حتى ختمتها ، وعنها أجازني بعدما عرفني وخضت معه في شيء من أسرار القرآن ، وإشارات أهل العرفان ، فأذعن وأقر ، إذ هو أهل لكل مجد وفخر فـلله دره من عالم منصف ، وصفي غير مستنكف ، لغر جميع المفاخر عقلا ونقلا ، حفظا ولفظا ، دينا وتخلقا وله جاه وقبول في الأعيان ، ومكانة زلفي بين الخواص والأقران وقد جمعت أنا وهو الشيخ زين العابدين البكري[177] يوما في داره برسم الجواب عن سؤالنا في القطب والاسم الأعظم[178] وتوابعهما فبكى لما جرى في المجلس من ذكر الحال[179] ، في طي المقال وله رضي الله عنه مع مكانته في معقول العلم ومنقوله ميل للصوفية وطريقهم[180] ، وله بعض الصحبة بالشيخ محمد بن الحسن البكري والد الشيخ زين العابدين رضي الله عنهم غير أنه حكى عن نفسه أنه كان يرى لا أدري في منامه أو يقظته أن حياته إنما هي على يدي مغربي فصار ذلك من قبل اجتماعي به يحب المغاربة ويعتقدهم – رضي الله عنه وأرضاه – وعند اللقاء كان مقاله الأول في شعره

فألقت عصاها واستقر بها النّوى كما قرّ عينا بالايـاب المسافـر

(175) عنوان الكتاب – *الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية* لأبي الحسن علي بن عمر محمد القزويني ، الكاتبي المتوفي سنة 675هـ يوسف إلياس سركيس *معجم المطبوعات* ، 2 1538

(176) ب ، «قليل»

(177) زين العابدين محمد بن علي البكري ، القاهري ، الشافعي كان مدرسا ومفتيا كما كان من كبار المتصوفة ، متضلعا في اللغة والتفسير وعلوم البلاغة مدعيا الكرامات توفي في 13 ربيع الأول 1013هـ محمد المحبي ، خلاصة *الأثر* ، 2 196 – 199

(178) الاسم الأعظم هو الاسم الجامع لجميع الأسماء ، وقيل هو الله، لأنه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات أي المسماة بجميع الأسماء الشريف الجرجاني ، *التعريفات* 24

(179) الحال ، مفهوم صوفي يقصد به «ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب» ومن خصائصه أنه لا يدوم بل يزول

(180) الطريقة عند الصوفية هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله مع قطع المنازل والترقي في المقامات ، الجرجاني ، *التعريفات* 129 .

أجازني – أيده الله – إجازة رابطة بين الطالب والمطلوب ، كما تلقن هو أيضا على يد المحب أو المحبوب حسبما يعرب ذلك نثره ونظمه ويشهد به تلميذه ولا ينكر قومه

من بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله ومن والى يقول شيخنا الطناني المذكور ، في إجازة صاحبه بالنص المسطور

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه الاستعانة على كل أمر عسير ، أحمد من من على أحمد بلواء الحمد ورقاه مكانا سيما ، وأنزل على قلبه من سماء بيت العزة فرقانا بينا جليا ، وجعل من اتبعه بصدق من عوارف المعارف غيثا متعنجرا ، ولياً ، وأرسل على موات قلبه رسالة ماء حبه فصار بإحيائه عالما ربانيا ، وكشف له من أسرار الغيوب ما جاز به منهاج كل عابر فكان عارفا قدسيا ورقاه عن معراج السالكين إلى أن صار قطبا جلاليا وأطلعه عن دقائق الكتاب والسنة على ما يرويه قلبه عن ربه معنعنا مسلسلا مسندا إسنادا عاليا فنعم ذلك الاسناد[181] الصحيح الذي اشتهر التنافس فيه وعز عن كل قلب كان بدنس الشهوات صديا ولم ينقطع عنه بفضل من كان مرسلا بحسن إجازة شبحه وقلبه عن الأغيار نقيا وأسس له من أصول العقائد ما به عرف الذات والأسماء عرفانا يقينا عينيا وخصه من عموم الخلق بالاطلاق عن كل قيد فهو المبين لكل مجهول وناسخ ومنسوخ تبيينا حقيقيا لا مجازيا وأظهر له من الكتاب والسنة ، بحسن التأويل ، كل حكم خلافيا كان أو اجماعيا ومنحه من حسن الاجتهاد والاعتبار ما به يستخرج من الأحكام ، بالنظر في المناسبات استخراجا قياسيا فأدلته سالمة عن المعارضة والنقض إجماليا كان أو تفصيليا *ووطأ* لمن دون في قلبه *النكت الواضحة البيان في الارشاد لمدارك نوادر الجواهر* كل مقام وإن كان عليا *ومهدله بالتلقين لتحصيل التهذيب والتبصرة والمعونة قواعد الرسالة* فصار *كافيا* لمن أمّه وإن كان أمّيا

*قلت* وقد ضمن في هذين السطرين كتب المالكية من الموطأ[182] والمدونة إلى المعونة والرسالة ثم قفاها بكتب الشافعية المنهاج والروضة بعد ما ألمع لكل

(181) الاسناد نسبة أحد الجزئين إلى الآخر أعم من أن يفيد المخاطب فائدة يصح السكوت عليها أولا الأسناد عند النحاة هو ضم إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الافادة التامة ، وفي اللغة هو إضافة الشيء إلى الشيء أما الأسناد في الحديث فيعني أن يقول المحدث حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله الجرجاني ، *التعريفات* 22 - 23

(182) *الموطأ مالك بن أنس – المدونة الكبرى مالك بن أنس* صنفها الامام سحنون *الرسالة* لابن أبي زيد القيرواني المالكي *المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج* لأبي زكريا محي الدين النووي الشافعي المتوفي سنة 677هـ .

فن – لله دره – ثم رضي الله عنه

«وفتح لمن توسط منهاج روضة حبه بهجة بقربه بابا سنيا وأعدق من عباب بحر تنبيهه على روض قلوب العارفين ما صارت به ربا وطهر بماء القرب الصلاة. الحب ما زكى نفسه وصام عن السؤال[183] وكان حجه حجا مرضيا. وجعل من باع نفسه له نافعا بالحوالة على فضله رضي بما ضمن له من غير رهن عبدا مأذونا له في التصوف نقيا ومن أصلح بين قلبه ونفسه حتى صارت مطمئنة وارثا وموصيا ووصيا ومن قتل نفسه في الجهاد[184] في ميدان المسابقة لرضاه عتيقا بعد أن كان عبدا دنيا وأباح من أحسن النظر في مصنوعاته منطقا معربا عن كل معنى تصوريا كان أو تصديقيا وعرف كل من وقف عند حده ، ورسمه كل مفهوم جزئيا كان أو كليا وسلم قضاياه من صدق النقيض ومن كل عكس بشكله منتج كل بديع إنتاجا بديهيا وعدل أركانه فحسن المزاج والأخلاط فكأنه صحيحا من كل مرض بدنيا كان أو قلبيا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي جعل من صرف وجهه نحوه مميزا عما عداه تمييزا حاليا وتاليا»

*قلت* وهنا له بعض كلمات خفيت عني حروف هجائها فلم أنقلها إلى أن قال بإثرها إنسيا كان أو جنيا ، وبعده يقول

«أشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي صار كل مسند إليه بالذكر والتقدم على غيره حربا ، وكل من وصله بالالتفات إليه عن الفضل دائما عربا وكل مستعين من فضله باستعارته التبعية فضلا عن الأصلية غنيا – صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه – الذين ألا نوا من القلوب قسيا ، وقربوا من البعيد عن منازل الغرب قصيا ، الذين طلعت شموس تجليهم من مطالع الأسرار فهي طوالع الأنوار بكرة وعشيا الذين دائرة معدلهم مع دائرة بروج كواكبهم قد التقت لقيّا الذين أشكالهم مستقيمة الخطوط منفرجة الزوايا ليس فيها شكل إلا هلاليا الذين جعل حساب من ضرب معهم بسهم وفاز منهم بقسمة صحيحة يسيرا أو كان[185] جنيا الذين نطقت حروف كما لا تهم المنزلة في أوفاق سعاداتهم بأن مفتاحهم طابق مغلاقهم طباقا حقيقيا الذين بإكسير حكمهم ينقلب سواد صفر القلوب ذهبا معدنيا لا صناعيا الذين راية أفراحهم في بيت نصرتهم نافية لكل قبض داخل

(183) السوي في «ب» غير أن معنى الجملة لا يخلو من اضطراب

(184) الجهاد / محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع

(185) أو إن كان في «ب» .

نفيا كليا مادام العارف(186) يتلقف من الأسرار الرحمانية تلقفا روحانيا وكوكب السعادة في أفق السيادة دائرا على سمة قلبه شرقيا كان أو غربيا

أما بعد ، فإن عظمة العلم مما تسجد لها جباه القلوب سيما ما كان منه علما لدنيا ، وإن اللذة منحصرة فيه فلا توازيه إلاّ لذات الجنان وهذا مما يدرك إدراكا دوقيا(187) وكيف لا والقرب من الله لا يكون إلا به وهذا يفهمه من كان عبدا ربّيا وان من صرف عنه وإن رأى أنه فإن بما لديه كان خاسرا في صفقته غبيا ومن وقف للاعتناء به كان سعيدا في الدارين وكان معدما في الظاهر مليا وكان ممن حاز أعلى شرفه وحل أسنى غرفه وكان كالبحر الزاخر إذا كان غيره قديا ، لم يسمح له العصر بثان لأنه القطب الفرد الرباني لا زال غوثا للورى حمدانيا سجلماسيا ، شهاب الله في الأرض طولها والعرض أحمد بن القاضي بن أبي محلي أدام الله له المعالي رقيا ، شعر

فكيف تدرك عين الشمس عين فتى قد مسها رمد في حالك الظّلم

وهذا البيت حسبما ذكر لي ذلك بفيه عن نفسه ، أنه أول بيت قاله في الشعر مع سنه ووفور علمه فلم يشتغل بصناعة النظم حتى لقيته فأنشدها كما ترى مع أبيات أخرى تأتي قريبا له إن شاء الله ثم قال أيده الله

«فهو سيدي وأستاذي وعمدتي ، وملاذي وأستاذي إليه أرجوا أن يكون قويا وقد منّ الكريم بلطفه وجوده وحفظه ، أن ظفر هذا الفقير الحقير بهذا الكنز الأعظم(188) والسر المكتتم فتنزل واجتمع معه على مباحثة ورقات إمام الحرمين فعلم منه ملكة اقتدار على ذلك العلم وغيره علما يقينا وقد أجزته امتثا لا لأمره بذلك العلم وبغيره من العلوم وإن كان حق الاجازة أن تكون منه لي بكل علم نقليا كان أو عقليا لكن رواية الأكابر عن الأصاغر طريق مسلوك معلوم القلب عندهم علميا أوليا ، وأسأله أن أكون في كفالته ، ظاهرا وباطنا سائرا بسيره وظاعنا

---

(186) العارف من أشهده الرب عليه ، الجرجاني *التعريفات* 299 شروط العارف ثلاثة
1 – الرضَى عن الله
2 – الانحياش إلى الله
3 – الفرار مما لا يرضي الله
علي ابن ميمون ، *مخطوط غربة اسلام* 191 خزانة عامة ك 2123

(187) الذوق في معرفة الله عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق في قلوب أوليائه ليفرقوا به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره الجرجاني ، *كتاب التعريفات* 112

(188) الكنز الأعظم ، الكنز هو المال الموضوع في الأرض ، هنا القصد الكنز المخفي ، وهو الهوية الأحدية المكنونة في الغيب وهو أبطن كل باطن الجرجاني ، *كتاب التعريفات* ، 197

لينفي عني ما كان من الخواطر شيطانيا ، ويثبت في قلبي بموانسة سره لي ما كان منها رحمانيا وإني أتوسل إليه بسيد المرسلين وتاج الأولياء والعارفين أن لا يجعلني من نفحات أسراره خليا ، وأن يلبسني من أحسن ما يتحلى به العارف حليا ، وأن يصير مادن من الأسرار(189) بكشف صدا مرآة قلبي جليا وصلى الله عليه وسلم أولا وآخر على من رقت به الكمالات إلى العلى رقيا ، وعلى آله وصحبه وشيعته ووارثيه وحزبه الذين رقوا باتباعه مكانا عليا

## فصل

وقد تواضع رضي الله عنه في خطابه – والله رفع قدره بعلمه ودينه فوق مراتب أضرابه – فكيف بمن دونه حقق الله ظنونه ولقد انبسط معنا يوما – أيده الله – فكان مما مازح به في الحق أن قال

«قالوا كل صلاة في مذهب غير الشافعي فيها خلاف هل تصح أم لا من إسقاط البسملة أو أسرارها في الفاتحة ؟ فإن من لايقرؤها كمالك – رضي الله عنه – ومن تبعه في مذهبه ، لو قرأها صحت صلاته باتفاق منه ومن غيره ، لأنها عنده مكروهة في الفرض فقط ، بخلاف عكسه ، وهو لو تركها ، فتصح عنده دون الشافعي ومن قال بقوله – رضي الله عنهم»

*قلت* في جوابه والأمر كذلك ، لولا ما يلزم بهذا الاعتبار كل شافعي ، من كونه ما صلى قط ولا حج ولا تلا فقيل كيف ذلك ؟ قلت لأنه لا يتدلّك في غسله إذ يراه غير واجب وكذا تعميم كل رأسه في مسحه وحلقه لاقتصاره على بعضه في الفرضية فلو اعتبرنا نحو هذا لكان كل شافعي جنبا لم يتوض قط ولا اغتسل والصلاة لا تصح إلا بشرطها وهي الطهارة وقد اختفت ؟ فيلزم عنها بطلان المشروط وهو صحتها وكذا أيضا يمنع من هو كذلك من الطواف ، ودخول مطلق المسجد ، ومس المصحف لولا أن في اختلاف الأمة رحمة ، أي في الفروع ، ومراعا الخلاف على رأى مالك – أيده الله – مما خصه الله به عن كثير من الفقهاء الذين يأبونه ، مع أن الظن ، وإن جاز العمل به في الفروع شرعا ، ولا يقوم مقام العلم ، فاحتمل الخطأ والصواب وكذا خبر الآحاد لامكان أن يكون ثمّ حديث غير محفوظ يعارضه أو نحو ذلك فمن هنا والله أعلم جنح مالك في غير موضع – رحمه الله ورضي الله عنه – للقياس في غالب أحواله

(189) استعملت كلمة سر أربع مرات في هذه السطور ، والسر في المصطلحات الصوفية هو محل المشاهدة إن وفرة المصطلحات الصوفية في خطاب الطناني تدل على سعة اطلاع الطناني في علم التصوف وحسن اعتقاده في ابن أبي محلي

ولكل منهم أجر اجتهاده – أيدهم الله – والله أعلم بحق ما هنالك ولكن الأحوط عملا تلاوة البسملة كما قال المازري[190] الامام من المالكية في خاصته – رضي الله عنه – وفي الفتوى يجري كل مذهب على أصله إلا ما خطاه ؟ ، والحق أن في كل مذهب من الأربعة قويا وأقوى وضعيفا وأضعف ثم الحكم في الأفضلية للغالب في ظاهر العلم وما يعلم الغيب إلا الله

وأما في اعتقاد كونها آية فالوقف عندي إن لم يصادم الاجماع أقرب للانصاف ومن ثبت عنده ترجيح أحد القولين صار الله عن دليله وقلد متأهلا لعجزه فسبيله معروف ، والمجتهد موصوف ومن لم يقدر ائتم بقادر ، ومن تحول عن مذهب لآخر لعرض أو غرض ، عن غير علم ولا بصيرة ، فصاحب هوى يتلاعب بدينه[191] فارض بما اختار الله لك حتى تكون منه على بصيرة ، وكفى بربك هاديا ونصيرا

قلت ومن لازم التحول عن مذهبه إلى غيره كما اتفق لغير واحد من أكابر النحاة والفقهاء مثل ابن هشام[192] قالوا كان شافعيا ثم تحنبل ، والبساطي[193] مثله ، ثم صار مالكيا وكالامام ابن عبد الحكم[194] كان شافعيا أيضا ثم رجع مالكيا – رضي الله عنهم – ؛ وابن مالك[195] ، كأبي حيان ، تحول شافعيا بعد

(190) محمد بن علي بن عمر بن محمد أبو عبد الله التميمي المازري ، الفقيه المالكي توفي بما زر بجزيرة صقلية سنة 536هـ ترجم له الكثيرون منهم ابن قنفد ، *شرف الطالب* 62 صلاح الدين خليل بن إيبك ، *الوافي بالوفيات* ، 4 151 – 152 محمد مخلوف ، *شجرة النور الزكية* ، 127 الزركلي ، *الأعلام* ، 6 123

(191) حول هذه الفكرة أنظر هامش 109

(192) «ابن هشام» هو جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن هشام الأنصاري المصري ولد بالقاهرة عام 708هـ وتوفي بها 761هـ كان شافعيا ثم انتقل إلى المذهب الحنبلي قبل وفاته بخمس سنوات كان من كبار النحاة وتشهد مصنفاته على ذلك قال فيه ابن خلدون أنه أنحى من سيبويه

(193) محمد بن أحمد بن عثمان الطائي البساطي أبو عبد الله ، شمس الدين ، ولد ببساط ثم انتقل إلى القاهرة ، كان شافعي المذهب ثم تحول إلى المذهب المالكي تولى القضاء بالديار المصرية ، ولم يتخل عنه إلى أن مات سنة 842هـ من كتبه *شفاء الغليل في مختصر خليل* ترجم له ابن القاضي ، *لقط الفرائد* 249 الزركلي ، *الأعلام* ، 2 23 و6 228 229 *دائرة المعارف الاسلامية* مادة البساطي

(194) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين أبو القاسم توفي عبد الرحمن المعروف بابن عبد الحكم في الفسطاط 257هـ *دائرة المعارف الاسلامية* مادة بن عبد الحكم

(195) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك المشهور بابن مالك أندلسي الأصل رحل إلى الشرق حيث توفي سنة 672هـ بدمشق من كبار النحاة كان بالفعل مالكيا ثم تحول إلى المذهب الشافعي

أن كان مالكيا ، وقس على ذلك غيرهم فشرط كل من سبيله هذا أن لا ينقل قدمه من موضعه حتى يعلم نسبة ما ارتحل عنه مما ارتحل إليه ، وذلك لا يمكن إلا لمن مارس المذهبين معا أو المذاهب ممارسة تقضي بالترجيح لبعضها على بعض ، بحسب ما أداه إليه اجتهاده إن تأهل لذلك ، ومن قصر باعه عن هذا ، فإنما تحول لغرض دنيوي ونحوه ، أو لغلبة الهوى وقلة العلم والتقوى  فإن من المتحولين من يستهويه أهل المذهب المتحول إليه ، ليستكثروا به سوادهم ، وربما بذلوا في ذلك عرضا عريضا[196]  وكذا أيضا قد يوافقون أحيانا مذهب ملوكهم  إذا تحنفوا أو سلكوا مذهبا آخر من الأربعة  ولقد رأيت أنا من يتقرب اليوم إلى الأتراك ، في ظني ، لسلطنتهم ، بموافقة أبي حنيفة – رضي الله عنه – والحق ما تقدم ، وكفى بالله شهيدا على من ظلم  فينبغي للملك وجنده أن لا يدخلوا أنفسهم في مضايق العلم  وكل واحد يتعلق بمن شاء ، ويدع الناس فيما اختار الله لهم ، إذ الكل على هدى  اللهم إلا أن يكون الأمير فيما يدعو إليه على علم من اجتهاده فيجري مجرى مثله منهم

ولقد شاهدت بالحرم النبوي – شرفه الله – محرابين في مسجده – صلى الله عليه وسلم – الذي كان يصلي فيه أيام حياته ، قبل أن يزاد عليه في زمن عثمان – رضي الله عنه – ومن بعده  أما أحدهما فمحرابه عليه السلام ، وهو الذي بإزاء قبره الرفيع ، والآخر أحدثوه[197] عن يمينه ليصلي فيه الحنفي أو الشافعي ، مناوبة دون المالكي والحنبلي ، لقلة أتباع أحمد اليوم ، أدلة أصحاف مالك من الغربة ، لأن السلطان وجنده من الترك حنفيون ، فكانت لهم السطوة والجاه. وعامة الحجاز ، كمصر شافعي – رضي الله عنهم جميعا. فمن هنا تقوى المذهبان هنالك خصوصا دون الآخرين[198].

(196) ناقش ابن أبي محلي فكرة التعصب للمذاهب كما رأينا في هامش 109 ، ويحاول هنا أن يعطي موقفه من الذين يتحولون من مذهب إلى آخر وقد صنفهم إلى فريقين
1 – العلماء  يتحولون من مذهب إلى آخر عن قناعة يصلون إليها عن طريق العلم والاجتهاد يبدو عليه قبول هذه الظاهرة من هذا الصنف  لقد أعطى أمثلة كثيرة لعلماء تحولوا ( ص 37)  ليس هذا بجديد في تاريخ الاسلام ، ويكفي الرجوع إلى ما كتبه في الموضوع ابن خلدون (في *العبر* ، المجلد الأول ، ص 806
2  الآخرون  وهم في رأي ابن أبي محلي المتحولون إما لقلة علمهم أو لقلة تقواهم وإما لأغراض دنيوية ، ولهذا الصنف وجه انتقادات كثيرة ومتنوعة

(197) أحدث هذا المحراب على عهد سليمان القانوني

(198) اتخذ الأتراك المذهب الحنفي كمذهب رسمي ، لذا ساهموا في نشره وتقويته عبر الأقطار الاسلامية بين ابن أبي محلي تدخل الأتراك لتعزيز هذا المذهب في الحجاز  – مهد المذهب المالكي – لقد تدخل الأمير وجنده ، يقول ابن أبي محلي ، ولهذا التدخل خطورة ، لذا نراه يطالب الأمير بالابتعاد عن◄

وفي أحداث هذا المحراب المذكور الذي بسببه يهجر موقفه – صلى الله عليه وسلم – لأجله في صلاته طول حياته ، كاد يقشعر جلدى ، فكنت أيام إقامتي بالمدينة المشرفة ، أتحرى من الامامين المذكورين ، من يصلي في النبوى تقدم أو تأخر ، وأصلي معه تبركا بمقامه(199) – صلى الله عليه وسلم – وحياء من أن أرى ناكب عنه إلى غيره وأدعه مجهورا وأجعل له ندّا في الأمكنة يوازيه حتى خفت أن يظن بي قدح في أحد الأئمة لما تفطن لي بعض المجاورين ، خصوصا في صلاة المغرب ، لأن الحنفي يقدمها جدا. فإذا كانت نوبته في الحادث من المحرابين ، وقدم تعارض عندي حق المحراب النبوي فأخرها للشافعي منها مع مافي المذهب حيث يكره الجمع مرتين بإمام في مسجد واحد ، فأحار فلذلك تارة آخذ بهذا ، والأخرى بذاك وما توفيقي إلا بالله.

*قلت* ومن أجل هذا ونحوه ترجح عندي قول الامام مالك – رضي الله عنه – في كراهة أن تعاد الصلاة جماعة مرتين فصاعدا. في كل مسجد له إمام راتب. أما في مسجده – صلى الله عليه وسلم – فلأنه ما فعله أصحابه فيه قط أيام حياته فيما علمت. ومن ذا الذي يقدر أن يتقدم منهم ، في مقامه أو غيره ، قبله أو بعده أو معه بأحد من المسلمين ، وهو بين أظهرهم ، والكل واجب عليه اقتفاؤه. وقد نهينا عن التفرق وأمرنا جميعا بالاعتصام بحبل الله وأن لا نتنازع ، والاختلاف مظنته ، وسد ذريعته مثله ، لأن الوسيلة حكمها حكم المتواصل بها إليه. وأيضا فالمسألة إذا كانت مشتركة بين عامة المسلمين ، غير خاصة بأهل مذهب في الفروع ، حق المنصف من الأئمة أن يقضي فيها بالأقوى والأشبه من الأقوال بالحق كهذه القضية.

فإن عدم كراهية الاعادة المذكورة فيما له إمام راتب عند غير مالك أجرأت الناس على توزيع الجماعة والسواد الأعظم ، حتى اختلت بذلك الهيئة التي لأجلها

---

◄ «المضايق العلمية» إلا إذا كان الأمير يتوفر على شروط الاجتهاد ، إن إحدى الدراسات الحديثة للمؤرخ التونسي(MOHAMMED HADI CHERIF. - Religion et pouvoir en Tunisie (XVII^e XVIII^e S)
Annales Economies. Sociétés - Civilisations. Mai. Aout 1980 PP.581 - 597
تبين كيف سعى الأتراك إلى نشر وتقوية المذهب الحنفى على المذهب المالكي في تونس معتمدين في ذلك على العلماء السلطة تقوى المذهب وهذا الأخير يكون في خدمة الحكم لذا فالعلماء مقلدون وإن اجتهدوا ، لأنهم يبقون دائما داخل الهياكل الموروثة

(199) ركز ابن محلي في كلامه على المحراب
«فالمحراب رمز قدسته كل الديانات ، من أدواره الأساسية تحديد القبلة ، وتمكين العبد من الاستسلام عن طريق التعبد وتلاوة القرآن لخالقه ، لعل تمسك ابن أبي محلي بمناقشة وجود محرابين يرمي إلى تشبته هو أولا وتمسك المغاربة كلهم بالسنة ورفضهم المطلق للبدعة .

شرعت الصلاة جماعة مضاهاة لصفوف الملائكة في مقاماتهم العلية. ولا شك أن الأمة لو أطبقت على قول مالك فيها لهرعوا بأجمعهم في كل صلاة[200] فصل. إلى إمام تقدم بهم في محرابه الأخص بهم. فيكون للاسلام بذلك همة عظيمة خصوصا في المساجد الكبار ، ومن جوامع الأمصار مثل الأزهر بمصر ، والقرويين بفاس ، وكذا الحرمان الشريفان. لو[201] اجتمع الناس فيها على إمام واحد في صلواته الخمس ، لكانت لهم جلبة تهز القلوب ، وهيئة تجلّ في عين كل مومن يغتبط بعزة دين الملك المحبوب ، وكذا النبي – صلى الله عليه وسلم – لو كان حيا فشهد ؟ تلك الهيئة لسره أهلها. وقد يسوؤه ، أظنه ، لو رأى مشتتها أو ساعيا بقوله أو رأيه في شيء مما يوهنها.

ولو حضر الانصاف في الحرمين الشريفين ، أو في نحو الأزهر من الجوامع التي تشترك المذاهب فيها للحج أو العلم ، أو التبرك لنظروا في مستحق الامامة من المذاهب المذكورة  فمن وجدوه أحق بها من غيره علما ودينا ، قدموه جميعا ، وصلوا خلفه ومعه من أى مذهب كان حنفيا أو مالكيا أو شافعيا أو أحمديا إلا بحكم يصرفهم عن ذلك من العلم الصريح. وحق ذلك الامام أن يحتاط لنفسه ولسائر المسلمين في طهارته ، وما يتبعها ، فيحافظ على ظهوره[202] كالحنفي لأنه شديد المحافظة على ذلك ، فيما رأيته من الحنفية بمصر وغيره. ويتدلك في غسله ووضوئه ، ويعمم مسح رأسه في طهارته الصغرى كالكبرى ، كحجه أيضا وفاقا لمالك. كما يبسمل في كل ركعة في الفاتحة والسورة وفاقا للشافعي. وقد يترجح بهذا الاعتبار أسراره كما يقوله الحنفي وغيره على الجهر بها فضلا عن تركها

(200) ناقش ابن أبي محلي قضية إعادة صلاة الجماعة مرتين  فالاسلام يرفض التفرق  وينادي بالاعتصام  ولعل من مظاهر هذا الالتحام صلاة الجماعة لأنها تقوي الصفوف  وقد هاله اعتماد رجال السلطة على قول غير مالك في تحطيم هيكل الجماعة بتعدد المحارب وتفرقة المصلين لذلك يطالب العلماء أن يقضوا في المسئلة بالأقوى من المذاهب ، والأقوى في نظره هو مذهب مالك

(201) استعمل ابن أبي محلي لو – وهي أداة شرط غير جازمة أربع مرات في هذه السطور القليلة  فلو من الموصلات الحرفية استعملها ابن أبي محلي هنا ليوصلنا إلى ماض غير ممكن «لو اجتمع الناس» *«لو رأى مشتتها ولو حضر الانصاف*

إن أقوال ابن أبي محلي تندرج ضمن خطاب سني معتاد  فهو كمسلم غيور وبشخصية مندفعة يتأسف لما آل إليه المسلمون  وربما من وراء كل هذا يظهر لنا التمايز الموجود فيما بين الاسلام الصحيح والاسلام *التاريخي* أي الاسلام كما جاء في الكتاب والسنة والاسلام المطبق

(202) يريد ابن أبي محلي – بفكرة التوفيق بين المذاهب   الأخذ بأحسن ما في كل مذهب  المبالغة في الطهارة عند الحنابلة والحج عند المالكية أ لخ وذلك ليطمئن المصلون والحجاج من مختلف المذاهب في الاقتداء بالامام الموفق .

رأسا[203]. وقس على ذلك ما أذن فيه العلم لمجتهد دون مقلد ، فإن وظيفته الاتباع ونعوذ بالله من نزعات أهل الابتداع[204]. ثم ما اجتمعت عليه علماء الأمة لا يكون بالنص إلا حقا. فلذلك قد لا ينكر تخصيص كل واحد من الأئمة بمقامه المعروف في المالكي كما ذكره بعضهم ، وإلا فلولا ذلك الاجماع المتقدم لكان للمجتهد اليوم أن ينظر فيه ، والله أعلم.

*قلت* ومن مستظرفات مدينة العلوم وهي فاس ، أمنها الله في حسن ترتيبها الديني ، جريا على مقتضى قواعد المذهب في الفروع أن الجوامع الصغار فيها يقدمون الصلوات الخمس[205] أول المختار بنفس فراغ المؤذن من أذانه في كل ناحية من نواحيه – عمرها الله – إلا القرويين ، ومقابلها من عدوة الأندلس ، فإنما يصلون فيه بعد تمكن الوقت أو توسطه دفعة واحدة ، كما تقع صلاة الجمعة فتسمع للمسلمين عندها جلية كثيرة من التكبير يزداد بها المومن غبطة في الدين ، ويرغم بها أنف كل يهودي ونصراني من الحاسدين لأن هذه الهيئة مما خصت به هذه الأيمة[206] فحق المومن أن يشد يده عليها ارغاما للعدو وإرضاء للحبيب – صلى الله عليه وسلم – وتعرضا لنفحات رحمة الله مع السواد الأعظم ، واجتماع القلوب من خاص وعام ، إذ الحمامظنة النفحة وموقع الرحمة ، وكلما كثرت تقوى الرجاء في الهنية مع حسن الهيئة وعظيم الهمة فإذا انقضت الصلاة المذكورة بالقرويين – شرفه الله بذكره – أقيمت على إثرها تلك الصلاة بعينها في محراب آخر بإمامه ، من مدرسة العطاريين ، وهي خارج المسجد ، بإزائه خوفا من الكراهة بإعادتها كذلك لو وقعت بالقرويين حرصا على تحصيل فضل الجماعة لمن فاتته الأولى بالجامع الأعظم وراء إمامه الأكبر[207] ثم إذا سلم منها أيضا في مدرسته أقيمت ثالثة بجامع اللبارين حوله على آخر قرب آخر الوقت المختار رفقا

(203) في شأن الجهر بالبسملة أنظر هامش 151

(204) حول مفهوم الاجتهاد ، يمكن التمييز بين الاجتهاد المطلق افتقده المسلمون بعد القرون الأولى والاجتهاد داخل المذهب وهو باق ويلحق به ما يتحدث عنه ابن أبي محلي هنا من اجتهاد المقلدين في التوفيق بين المذاهب المختلفة

(205) تميزت المساجد في فاس ، حسب ابن أبي محلي ، بتقديمهما للصلوات الخمس في الجوامع الصغار في أول الوقت ليصلي بها القريبون منها والمستعجلون ، بينما تؤخر تلك الصلوات في المسجدين العظيمين :القرويين والأندلس حتى يتمكن الوقت (أي حتى يمضي منه نحو ساعة أو نصفها) فيتوافد عليهما عامة الناس فتحقق مظهر الجماعة العظيم لقد أعجب المؤلف بهذا الترتيب الموجود في فاس ، وتأسف لعدم تعميمه على العالم الاسلامي

(206) كذا في «ا» و «ب» لعل الصواب الأمة

(207) الجامع الأعظم هو جامع القرويين الامام الأكبر يقصد به هنا إمام الجامع الأعظم

بالصناع ونحوهم(208) ممن تفوته لشغل أو عذر صلاة الجماعة في الأولين - فالله تعالى يتغمد برحمته من سعى في ذلك الترتيب العجيب من أئمة الدين وأهل التمكين فياليت أهل مصر بل وأهل كل ذي مذهب حريصين على الألفة وفضل الجماعة من كل بلدة فعلوا مثل ذلك ، ولكن ما شاء الله كان - والحمد لله على هدى الجميع فيما أصّلوه وبنوا عليه الفروع ، وما توفيقي إلا بالله العلي البديع

ومما كتب به إلى شيخنا الطناني المذكور آنفا - رحمه الله تعالى - ونحن في أهبة السفر للمغرب ، بعد الحج ، وقد برزنا من القاهرة ، ونزلنا من الريف الغربي بكرداسة(209) حيث يجتمع الركب المغربي مع النجوم(210) وقاصدا مراكشا أو فاسه ما نصه

بعد بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا وآله وصحبه ، وسلم تسليما، أما بعد فمما جرى به اللسان عقب أن كان ما كان أن قال

على بصر أسعى شعر نعالكم وذاك فخارى إن مننتم بلثمة
وقد ذاب قلبى عند قصد ركابكم إلى المغرب الأسنى بأحسن وجهة
وكيف افتراق في الزمان وأنكم سكنتم فؤادي بل ملكتم لمهجة

قلت أنظر حسن أدبه في إبدال الأقصى بالأسنى من صفة المغرب ، مع أن الأقصى أيضا من نعت بيت المقدس في القرآن وقد يقصو أي يبعد المتصف بذلك عن الدنايا أو يحل كالعزيز واللطيف عن الادارك فليس كل قاص إذا مستكرها ذكره إلا على تعهده العامة من مطلق البعد وقد يختلف المقام كما هنا فيحسن الأسنى في التعبير فرارا من الفال السيء عند الوداع أو قصده عند الأدباء والبلاغة أن تعطي كل مقام ما يليق به لفظا ومعنى في رأى الحكماء ثم قال رحمه الله

(208) يبدو أن لهذا الترتيب الديني ، علاقة بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لعل صلاة الجماعة في وقت واحد بالنسبة للمدينة قد تضر بمصالح المسلمين لأنها قد تتسبب في شل الحركة الاقتصادية وبالتالي قد تؤدي إلى كسر الايقاع المعتاد داخل المدينة الاسلامية ، كمدينة فاس ومن ثم فإن هذه الطريقة تسمح باسترسال الحركة بدون توقف مع السهر على تطبيق الشعائر الدينية

(209) كرداسة كانت من ضواحي القاهرة في الفترة التي تكلم عنها ابن أبي محلي ولا زالت كرداسة اليوم توجد كحي من أحياء الجنوب الغربي لمدينة القاهرة

(210) الركب ، في *قاموس دوزي* ، هو اجتماع قافلة الحجاج المغاربة ، القاصدين مكة وهو نفس التعريف الذي جاء به ابن أبي محلي هنا يرجع تاريخ تأسيس الركب المغربي إلى أواسط العهد الموحدي ويعود الفضل في تأسيسه إلى الامام أبي محمد صالح الماجري المتوفي سنة 631هـ وقد ساهم هذا التنظيم في تشجيع الناس على الحج وكان سببا في الزيادة من عدد الركاب إلى أن أصبحت خمس وهي الركب السجلماسي ، الركب الفاسي ، الركب المراكشي ، الركب الشنكيطي ، الركب البحري للمزيد أنظر محمد المنوني ، *ركب الحج المغربي* ، تطوان 1953 .

وداك قليل عند خوف فراقكم وإن كنت لا أسمح بكلمة فرقة

قلت مسكّن حاء اسمح للضرورة ، وهو جائز نثرا ونظما كما قاله ابن مالك في الوقف من ألفيته – رحمه الله وكسر الكاف وسكن اللام لغة في كلمة ثم قال أيضا

فوالله ليلي قد تطاول بالبكا ولكنه شوق لأكمل صورة
سلوا الورق المكتوب ماذا مداده أحبر جرى أم كان من سيب دمعة
ووالله إني صادق في ودادكم وذاك أمان من جحيم القطيعة
وأسأل ربي أن يمن بفضله بجمع صحيح من جموع السلامة

*قلت* وقد حام في بيته هذا على معنى غريب ، من التضمين عجيب إلا أنه أسس قافية بالألف ، كما في قوله سادت ورسالت من البيت الآتي ، وهو لا يجتمع مع غير الموسوس بها في الأرض فاطلب معرفته في عيوب القوافي من العروض وقد يغتفر هذا من مثل الامام إذ لا يجلعه ولعله يرى أنه ليس بعيب من اجتهاده مع الخليل إذ قد يقع حتى لغير مولد من العرب العارفة أو لسهو وهو الأشبه في الحال والله أعلم بمذهب المفضال

ثم قال رضي الله عنه

وأعلى صلاة ثم أزكى تحية على أحمد المحمود خير برية
وأكمل خلق الله طه محمد وآل أصحاب وصهر وعترة

ثم اتفق بعد ذلك أن ورد

سهادى طويل والرقاد محرم ودمعي غزير وهو أعظم حجة
على أنني ما زلت مضطرب الحشا وما ذاك إلا من توهم فرقة
وعذري مقبول لدى كل عاقل وكيف اصطبار عن وجوه أحبة
فإن جاد ربي باللقا ورأيتهم فذاك مني قبلى وغاية منية
وأرجو إلى العرش ربّ محمد يمنّ بجمع آمن من تشتت
فإني فقير والذنوب كثيرة ولكن ربي عالم بسريرتي
وإن فاتني لثم لترب نعالهم فقد فزت منهم بالصفا والمودة
وهم سكنوا قلبي وحاشى لجودهم يحوم خرابا حول منزل سادة
سلام عليكم سار قلبي بسيركم وقد كان قصدى أن أكون رسالتي
ولولا هواكم ما شعرت ولم أكن لأنظم بيتا من بيوت القصيدة

*قلت* : وهذا يشهد لما تقدم لنا عنه مشافهة أنه ما قال شعرا قط قبل هذه العفية

وشغله عنه فاعلا خطته من التدريس في فنون المعقول لكمال نيته وقد أجبته عن هذه بما لم يحضرني الآن حين بلغت مغرّبا مع الركب أرض فزان(211) كما كاتبته أيضا من كرداسة المذكورة بما أثار منه هذه الأشجان لحال(212) هبّ من الغيب هبوب نسيم السحر على البان ، فحرك أغصانه واضطرب فتناثر ثمر الأفنان وما عدت للمشرق(213) حتى توفي - رحمه الله - عام ثلاثة بعد الألف بل أربعة ، كما عرفني به تلميذه الأجهوري المالكي في كتاب شخصه من مصر وأنا بالغرب مع الركبان نصه

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ورضي الله عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، سلام الله تعالى على الفرد الراسخ في العلم والمعرفة واليقين(214) والطود الشامخ في الحلم والفراسة والتمكين وإلى أمصار أرباب الطريقة ، مالك أقطار الحقيقة ، قطب الوقت ، الذي به يرفع إن شاء الله عن أهل الذنوب المقت ، ملاذ الواصلين وكعبة العارفين ، وبرهان المحققين ، ومرشد الموحدين سمى حبيب الله ، الذي ما سمي به قبله عليه الصلاة والسلام

قلت وهو أحمد

ثم قال - رضي الله عنه - الثابت عرفانه وخيره ، متع الله الأنام منه بطول الحياة ، وكفانا وإياه هم دينه ودنياه ، وجمع شملنا برؤياه ، إنه على كل شيء قدير

(211) ولاية واسعة تقع بين الفيوم وطرابلس الغرب قيل سميت بفزان نسبة إلى فزان بن حام بن نوح توجد بها واحات كثيرة التي تعد امتدادا لواحات القسم الأوسط من الصحراء الكبرى ياقوت الحموي ، معجم *البلدان* ، 4 260 محمد بن عبد المنعم الحميري ، *الروض المعطار* 440

(212) الحال في اللغة يعني نهاية الماضي ، وبداية المستقبل ، ويعني عند أهل التصوف ما يرد على القلب من طرب وحزن أو قبض ، والحال يأتي المتصوف من عين الوجود

(213) عاد من المشرق في الحجة الثانية سنة 1014 - 1015هـ فعدت إلى وادي الساورة وأقمت به إلى عام 1014هـ فحججت منه المرة الثانية ببعض أهلي ، 114

(214) العلم هو نقيض الجهل ، زوال الخفاء ، والمعرفة تعني إدراك الشيء على ما هو عليه وقد يراد بها كذلك معرفة الله ، وأما اليقين فهو نقيض الشك ، غير أن هذه التعريفات تبقى غامضة لأن مضامينها تتداخل ، والتدقيق فيها صعب ، يظهر أن كلمة علم تطلق على المعرفة التي تكتسب بدون جهد ، على عكس التعلم ، والمعرفة أحيانا تطلق على الكسب بناء على التجربة وركز الفقهاء على اعتبار العلم الدارية بالدين والمعرفة الدارية بالعلوم الدنيوية ، وهذا هو الذي يفسر لنا الترتيب الذي أورده الأجهوري هنا ، العلم - المعرفة - واليقين الذي يحصل ربما عن طريق العمل الصوفي وهو ما سماه البعض برؤية العيان بنور الايمان أنظر ابن منظور ، *لسان العرب* ، 9 236 الجرجاني ، *التعريفات* : 239 - 284 *ودائرة المعارف الاسلامية* مادة علم - معرفة - يقين .

وبعد ،

فإن الفقير كاتب الحروف من تلامذة خاتمة المحققين ، تلميذكم المرحوم الشيخ حسن الطناني – روح الله روحه ، ونور ضريحه – ويرجو من الله تعالى أن تقبلوه من أتباعكم ، وأن يكون في خاطركم ومشمولا بدعائكم ، وأن يكون ممن لكم به عناية فإنه كثير الخطا والحسانة(215) وأن يحصل له الشرف بأن ترسلوا له رسالة بما يكون عليه من طريقتكم(216) الحميدة ، فلعل الله تعالى يحشره في زمرتكم ، والثبات على الايمان ، والموت عليه ، مرضيا عنه ، غير مغضوب عليه هذا وقد كان شيخنا المرحوم – رحمه الله – يتمنى أن الله يحييه حتى يجمع الفقير بكم وكان يحثه على السعي في متابعتكم ، والاتصال بكم وما كان إلا ما أراده الله – وانا لله وانا إليه راجعون – ويسأل أن يحقق ما رجاه منكم – بجاه محمد ، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام – وأن شيخنا الامام ، أسكنه الله فسيح الجنان ، توفي في أوائل رمضان سنة أربع بعد الألف وترك أولادا ثلاثة ذكرين وأنثى وقد توفي الذكران واحد بعد واحد ، ووفاة الأخير منهما في ربيع الأول سنة ست بعد الألف والسلام ولا تواخذوا الفقير بإساءة الأدب كاتب الحروف على ولد(217) المرحوم عبد الرحمن الأجهوري(218) منصف *حاشية مختصر الشيخ خليل* ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه(219) كما في الحديث الشريف وعنوانه يصل إن شاء الله تعالى ويسلم للعارف بالله تعالى سيدي أحمد الفلالي م ع ر و ف ا ل ك ر خ ؟

قلت رضي الله عنه ونفعنا به ، وهذا الفقيه النحرير ، النخبة ، الثقة الشهير ، أعني حفيد الامام الأجهوري ممن اجتمعنا به في الحجة الثانية ، بعد وفاة شيخ الكل الطناني – رضي الله عنه – بمصر عام ثلاثة أو أربعة بعد الألف مشرقا ومغربا

---

(215) الحسابة في «ب»

(216) استعمل الأجهوري مدحا كثيرا في حق ابن أبي محلي ركز بالخصوص على المصطلحات الصوفية ، كاتبُ الأجهوري هنا في شأن الانضمام إلى طريقته لأن ابن أبي محلي من أخص أصحاب الشيخ محمد بن مبارك الزعري

(217) جاءت كلمة ولد زائدة في «ب»

(218) علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الارشاد نور الدين الأجهوري، فقيه مالكي، من علماء الحديث، له تآليف كثيرة وهو من أقران ابن أبي محلي، عاش ما بين 967هـ 1066هـ الزركلي، الأعلام، 1، 80 و5 167 -168

(219) والحديث بأكمله «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يقرؤون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم السكينة وذكرهم الله، فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . رواه ابن ماجة مقدمته 18 .

فكان من أظرف الأدباء ، ألطف النجباء في فقهه ، وقيله وحسن خلقه ، وصحة نقله ، وانصافه وشرفه ، ومتانة دينه وهيئة تقشفه فهو أحد فضلاء المصريين الفقهاء الجلة ، ومن صفوة المحبين في الله ولله تعالى لا لعلة وله *حاشية* مثل جده على *المختصر* لكنه ما أظهرها يومئذ ، لكونه يصححها وينميها ، وما رأيتها لعجلة السفر وقد خضت معه ومع مثله من أعلام المالكية والشافعية الكرام في حكم شجرة تبغ المضطرب فيها في هذه الأعوام فأجاب وفقه الله بما ستقف عليه – إن شاء الله – في الباب الرابع(220) الذي به الختام ، حيث يناسب الكلام في الحوادث بحسب المقام ، أو في آخر الثاني بحول الله وقوته ، وقد كاتبني أيضا بعد بلوغي الغرب سنة تاريخ كتابه الذي نصه

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سلام الله تعالى ورحمته وبركاته على سيدنا ومولانا ، وشيخنا العارف بالله تعالى ، سيدي أحمد بن عبد الله الفيلالي وبعد فالمفروض من أحقر العبيد على سيدنا ومولانا العارف الأعظم ، والفرد الأكرم ، من عمت بركاته ، وغمرت هباته ، وسعد به زمانه ، وعظم به أوانه ، وتحقق ، ونطق بعلوم الحقيقة جنانه ولسانه ، أنه يسأله أن يجعل الفقير في خاطره الخطير ، ولا يخرجه من ضميره المنير ، فإنه عبد عاص مستحق لمزيد المعونة ، والله تعالى يديم إمداداتكم المصونة ، ولا يخلي الوجود من وجودكم ، وكرم عرفانكم ، وأن يشمله بالدعاء خصوصا في أوقات الاجابة ، ويشكو إليكم من نفسه الخبيثة الكذابة ، التي شغلته بهواها الذي لم يزل ينمو ، فلم يزل خطؤه وزلله يربو لكن يرجو زواله بتوجهه لحضرتكم البهية ، وجعله في خواطركم الزكية(221) وأن الأخ في الله تعالى سيدي الشيخ العلامة سليمان البابلي ، والشيخ موسى ، والسيد الميقاتي ، والشيخ العلامة أحمد الكلبي

(220) انتشر شرب دخان التبغ في العالم بما فيه الأقطار الاسلامية لأسباب ذكرت في هامش (118 ) وكان ابن أبي محلي من المدافعين عنها وبرر تعاطيه لها بقوله في «أ» 92 «لاضطراري لاستعمال دخان الشجرة المذكورة المشهورة النفع بالتجريب في دفع مضار سموم نازلة ببغض من هو مني يعلم» كما اعتبر منع تناول التبغ ناتجا لا عن اجتهاد وبرهان، ولكن على التقليد فقط وإذا كان بعض العلماء أفتوا بتحريمها كالسنهوري فإن علي الأجهوري بعث لابن أبي محلي برسالة تحلل تناولها وفيها قال «اعلم أن العشبة المذكورة ليست من المسكر قطعا فلا يحرم استعمالها لذاتها لأن غاية ذلك أنه استعمال دخان طاهر وذلك غير محرم» «أ» 101

(221) جمع لخاطر وهو ما يرد على القلب من الخطاب وهو إما رباني، أو ملكي، ويسمى إلهاما، أو نفساني، ويسمى هاجسا، أو شيطاني وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق الجرجاني، *التعريفات* 101

وولد سيدي محمد(222) وكل منهم يسألكم أن يكون في خاطركم وأن تدعوا له خصوصا بأن الله يعطيه خير الدنيا والآخرة وقد زادت قسوة الفقير وذنوبه وكثرت خطاياه وعيوبه ، فهو أشد الناس احتياجا إلى شموله بنظركم السعيد ، وإلى دعائكم السديد ، وإن الأخ في الله تعالى الشيخ عبد القادر الفيومي(223) يسألكم كسؤال الفقير – والحمد لله العليم القدير كتب في أوائل جمادى الأولى سنة خمس عشرة بعد الألف كتبه الفقير علي الأجهوري انتهى

وأنا أقول لطف الله به وبصحبه ، فإنهم خلاصة مصر ، من صفوة العصر وكلهم اما تلميذ للشيخ حسن الطناني – رضي الله عنه – أو خليله وتربه فالأجهوري المالكي تلميذه ، وكذلك البابلي ، والشيخ موسى ، والشيخ عبد القادر الشافعيون كلهم تلاميذته ، وتلامذة شيخي شيوخ الشافعية اللذين هما الشيخ نور الدين الزيادى في الفقه(224) ، والشيخ صالح البلقيني في الفنون العقليـة والنقلية(225) وقد أدركتهما معا وحضرت يوما واحدا درس الزيادي لأستطلع فيه ما عند الشافعية في كيفية اقرائهم وتقريرهم ، وهو في ملا غير موجودة عندنا كبير من أهل العمائم(226) ، لأنه إمام أئمتهم ، كالشيخ سالم السنهوري في

(222) تمكن ابن أبي محلي من ربط علاقات كثيرة مع علماء أجلة من مصر كما يتضح ذلك من خلال هذا السرد لأسماء البعض منهم، في رسالة علي الأجهوري لم يركز هذا الأخير على تقديم الأسماء كاملة، بل اكتفى بذكر البعض منها وأحيانا كان لا يزيد على ذكر اسم واحد كما فعل حين قال «والشيخ موسى» أو «وولد سيدي محمد» فإن رسالته موجهة لابن أبي محلي الذي تعرف على هؤلاء وجالسهم ربما هذا راجع إلى نسيان قد وقع لابن أبي محلي وكل هؤلاء العلماء من أقرانه من مواليد النصف الثاني للقرن التاسع، سليمان البابلي مثلا توفي 1026هـ وأحمد الكلبي توفي سنة 1027هـ للمزيد أنظر المحبي، *خلاصة الأثر* 1 243 -266 و 2 212 و291

(223) عبد القادر بن أحمد بن زين الفيومي المصري الشافعي، أخذ عن سالم السنهوري، وعن الشيخ صالح البلقيني، وعن الشيخ نور الدين الزيادي، جمع بين فن المعقول والمنقول، كان فقيها محدثا، وصوفيا اهتم بالتدريس، له تآليف كثيرة، كانت وفاته سنة 1022هـ المحبي، *خلاصة الأثر*، 2 456 -457

(224) علي بن يحيى الزيادي المصري، نور الدين، فقيه، انتهت إليه رياسة الشافعية بمصر درس بالأزهر، وأم به، كما كان مفتيا عاش ومات بالقاهرة 1024هـ أنظر المحبي، *خلاصة الأثر*، 3 195 -196 الزركلي، *الأعلام*، 5 185، *دائرة المعارف الاسلامية* مادة الزيادي

(225) صالح بن أحمد المعروف بالبلقيني المصري كان من كبار العلماء والزهاد كانت وفاته بمصر 1015هـ، المحبي، *خلاصة الأثر*، 2 237

(226) العمامة من لباس الرأس معروفة منذ القديم، ابن منظور، *لسان العرب* 12 424 -427 لكن دوزي يحدد في قاموسه، فيجعل صاحب العمامة القاضي لا سيما في إسبانيا ربما المعممون هم كبار الطلبة الذين أخذوا يزاولون التدريس .

المالكية أو الشيخ بدر الدين القرافي(227) قاضي القضاة بالقاهرة يومئذ وقد أدركته أيضا وما أخذت عنه شيئا ، وهو مالكي المذهب - رحمهم الله جميعا -

وأما الشريف المنيف الامام الميقاتي المالكي(228) فريد دهره في علم الفلك ، والهيئة ، والهندسة ونحوهما وإليه يرجع في ذلك شرقا وغربا بإذعان الأكابر والأصاغر لا منازع له في مكانته مع كمال مروءته ، وصيانة دينه وحلواء شمائله(229) ، ورقة حاشيته ، وشفوف نهيته ، ونضارة غصنه ، وصفاء(230) عنصره فمن بيت الشرف الأعلى والمنصف الأجلى ، وقد ناولني من عام مقامه ، ما أرجو الله تعالى أن أنخرط في سلك تحقيقه من يده ليدى ، كما بعث إلي أيضا بتأليف ابن عبد البر في البسملة كالاجازة أيده الله وله معنا عقد محبة وصحبة ، وعهد أخوة في ذات الله سبحانه حسبما يعرب عن ذلك كتابه الآتي مع خدنه(231) وقرنه وهو الخطيب الامام العلم الهمام الوفي الصفي الشيخ عبد الهادي بن أحمد خطيب جامع قيسون بلغة العامة(232) ، من الشافعية أيده الله وهذان السيدان هما اللذان كانا سببا في إنشاء رسالتي هذه لقادة مصر وسادة العصر وقد تقدم في صدر الهودج ومرج الأرج عند قولي هما النسيدان الفاضلان(233) [ ] إذ رغبا مني أن أمدهما من غربي الغريب ، بما تضمنته هذه الحكاية المعربة عن بعض أحوال الكئيب وقد أسعفتهما - رضي الله عنهما - وكلاهما كان خليل الشيخ حسن الطناني - رضي الله عنه

(227) محمد بن يحيى بن عمر بن أحمد بن يونس المصري، المعروف بالقرافي أحد شيوخ العصر، كان مشارا إليه بالعلم والصلاح تولى قضاء المالكية بمصر، اعتمد أساسا على *مختصر الشيخ خليل* وشرحه شرحا عظيما سماه *عطاء الله الجليل، أعجب الجامع لما عليه* من شرح جميل توفي سنة 1009هـ أحمد بابا التنبكتي، *نيل الابتهاج* 342

(228) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي الخير الشريف الميقاتي المعروف بالطحان اشتهر بتضلعه في الهندسة، وعلم الهيئة من فقهاء المالكية في مصر -ابن القاضي، *درة الحجال*، 2 104

(229) حلوا في «ب»

(230) صفا في «ب»

(231) في «أ» خدمه

(232) يقابل مدلول كلمة العامة، مدلول كلمة الخاصة والتميز فيما بين المفهومين لا زال غير مدقق. لذا اختلف المضمون باختلاف الزوايا التي تناولته منها الدراسات أحيانا يطلق مفهوم العامة على السواد الأعظم من الناس، في حين يطلق مفهوم الخاصة على النخبة «أصحاب الحل والعقد» المقربون إلى السلطة، وأحيانا أخرى كما هو الشأن هنا العامة هم غير العلماء أي الجهال لكن المثير هنا هو إلقاء خطيب جامع قيسون الخطبة «بلسان العامة» وهذا غير معتاد عموما أنظر ابن منظور، *لسان الدين* وكذا *دائرة المعارف* الاسلامية في مادة عامة وخاصة .

(233) زيدت كلمة «هما» في «أ» .

وأما الشيخ أحمد الكلبي المالكي ، فهو شيخي في الفقه ، إذ حضرت مجلسه في *المختصر* بالأزهر بعد الفجر وقبل طلوعه مدة إقامتي بمصر في المرة الأولى[234] وهو يقرأ في مسائل النكاح من أبوابه ، وعليه في النسبة الفقهية اعتمد ، ومن بحر فضل الله تعالى بعد الوسيلة استمد ، رغما لأنف الأبي والغبي ، وخلافا لمن زعم أني قد لمستها وما أزلت نقابها بالتحقيق ، وأن المشارقة يضحكون من المغاربة بسبب تأليفي الأنيق إذ بلغني ذلك في الحين عن بعض البتر الحراضيم تفوهوا به في مجلس السلطان[235] لينتقصوا لديه طيب الجراثيم فما تقول سادة العصر ، وقادة مصر ؟ بالله عليكم لا تكتموا الشهادة ، والله تعالى يقول في آيات كتابه وللمقتبس حظه منها لرد جوابه ﴿*أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون*﴾ الآية[236] والسلام على من سيقف عليه من أربابه

فياليت شعري ما تقول المشارق وصادق فجر بالأشعة شارق
أفي الصبح شك والبدور شواهد وقولي أبك أم هدى وحقائق
وحكمى بالقسطاس في كل وارد من الله حق أم هوى ومخارق
وفي هودج العذراء فاقضوا بما ترى أئمتكم والعلم للوهم ما حق
فإن مريد الغرب يزعم أنكم إذا ما أقول تضحكوا أو تنافقوا
ويا أهل مصر هل مقالي فيكم كما قال جاف أم حديثي خارق
ونظمي من المكنون أم ضرب الخنا جرى سفها بالله ماهو صادق

قلت وها هنا أسوق بعض ما كاتبني به إمام وقته في الموقتين ، وإليه تشد الرحال من المغربين والمشرقين حتى أن أبا العباس المنصور[237] من شرفاء الغرب

(234) وصل ابن أبي محلي إلى القاهرة مريضا في الحجة الأولى واستقر فيها حوالي سنة (1000 و1002هـ)

(235) أي سلطان يعني ابن أبي محلي ؟ هل هو زيدان ابن أحمد المنصور أم أخوه المامون ؟ الغالب أنه كان يعني الأول من الذي حاول تشويه سمعته أمام السلطان ؟ لقد كان ابن أبي محلي عنيفا في طبعه وكتابته لا سيما مع عائلة بوسماحة وكانت له علاقات وطيدة مع علماء المذاهب الأربعة في الشرق وبالخصوص في مصر وقامت نقاشات كثيرة فيما بينه وبينهم ، وطالب البعض منهم بإصدار فتوى في شأن شجرة التبغ كما سلف فأجابه البعض بالتحريم وأجابه البعض بأنها حلال كما اعتبره الذين حرموا تناول دخان التبغ المسؤول عن انتشاره في الشرق وكان لهذه الضجة أثر سلبي عليه في المغرب على ما يبدو لا سيما من طرف أعدائه أو الغيورين على المغرب ومن ثم ألا يمكننا أن نرى في هذا الموقف نوعا من الاعتزاز بالهوية المغربية ؟

(236) الآية رقم 59 من سورة النجم

(237) أبو العباس أحمد المنصور الذهبي (956 - 1012) غني عن التعريف . خصه بالترجمة عبد العزيز الفشتالي ، مناهل الصفا وابن القاضي المنتقي المقصور .

قالوا ، استجازه أو بعث رائده لينال من رياض فنه قطفا دانيا على غصن دهنه وهو إما القاضي أبو عبد الله عرف واشتهر بلقبه أدك بفتح الهمزة والدال المهملة ، وضم الكاف ، ومعناه قبل النقل إلى العلمية في لغة البربر النعل(238) وإما حيسوبي فاس ومؤرخها وهو الحاج أبو العباس أحمد بن القاضي(239) الذي أسر في البحر ففداه المنصور – أيده الله – فكانت له اليد الطولى بما لديه ، لأنه كما قال فيه شيخه الميقاتي الذي نحن في سياق خطابه ، وقد تلقيت أنا ذلك منه في بعض جوابه وهو بشير بالفهم والذوق على ابن القاضي المذكور في السطر ، لما اجتمع به ، في مجازه للحج بمصر وقرأ عليه من فنه ما كتب له فقال لي عنه

أنه لديق كشيق أي ذو دوق وشوق فمما كتب به إلي – رضي الله عنه – مما يرغم أنف الحاسد أو يصم أذن الجاحد من طهات المصارين ، وعصاة الحاصرين وذلك كله بعدما أخذ من يدي *القسطاس* وقبله هو وغيره من الأئمة – كما قيل – على العين والراس وشهدوا بما شاهدوا وأقروا بما عليه استقروا فبعث إلي – أيده الله – وأنا بالغرب من مصر العلم في الركب كتابا عنوانه يصل إن شاء الله تعالى إلى بلاد المغرب يسلم لحضرة عارف الزمان الشيخ أحمد بن عبد الله بن القاضي بتافيلالت ، ومعه كتاب حزبه(240) في الله الشيخ المرصفي – أسماه الله – وعنهما نهضت – بحول الله وقوته – لشد هذا الهودج على راحلة العزم ، بحبل الحزم وفيه خود الوداد من بنات الفؤاد ، حسبما تقدمت المعنى في طالعه البارع المبني حيث قلت وما قلقلت

فمن حامل العذراء في الهودج الخود إلى سيد الأشراف والعالم المهدي آخرها وعلى جيدها من القلائد العقيانية ، عقد مفصل من دون آخرها فكان نثره ونظمه

(238) أبو عبد الله ، عرف بلقبه أدك وبه اشتهر وقع اختلاف في النطق بالكلمة ، ابن القاضي يورد أَدَكُ وهو المعروف اليوم والجمع هو إيدوكان ، معناها النعل كما جاء عند ابن أبي محلي أما اليوم فتعني في الأمزيغية «البلغة» وأما النعل فيعرف بتورزيط والجمع هو تورزين هل هذا يعني أن البلغة بشكلها الحالي لم تكن معروفة في المنطقة ؟ أم أن الاختلاف في النطق ناتج عن تحويل الكلمة إلى العامية ؟ فأدك فقيه من تلامذة المنجور ابن القاضي ، درة ، 2 237

(239) أبو العباس أحمد بن القاضي بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن أبي العافية المكناسي المعروف بابن القاضي من قبيلة زناتة من كبار علماء المغرب في عهد المنصور الذهبي ، ومن كبار مؤرخيه له أساتذة كبار في المغرب والمشرق لقد انطلق تكوينه من البيت على يد أبيه محمد بن القاضي ، وكان فعلا حيسوبيا ، لعل من أشهر شيوخه في المغرب أحمد المنجور أما في الشرق فقد درس على الفقيه السنهوري ، والميقاتي والفراضي وغيرهم توفي سنة 1025هـ أنظر ابن القاضي ، *المنتقي المقصور* ، الكتاني ، *فهرس الفهارس* ، 1 77 ، *دائرة المعارف* الاسلامية مادة ابن القاضي ، الزركلي ، *الأعلام* 1 ، 225

(240) غير واضحة في «أ» ولا في «ب» .

كما حكاه علمه وحلمه ، ويشهد به بدره ونجمه من قدم بمسك مختوم نصه

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وإلى أن قال أيده الله

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، حمدا لله رب العالمين على الآية ، والشكر له على ما أولي من فضله ونعمائه وأفضل صلواته وأكمل تسليماته على سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء وسيد رسله وصفوة أصفيائه ، وعلى آله وأصحابه وذريته وشيعته وأحبائه فالله ذو الفضل العظيم ، والكرم العميم أسأل بنور وجهه وجلال ذاته ، وأعظم أسمائه وجميل صفاته ، أن يمن على الوجود بدوام بقاء أستاذ الزمان ، وقطب دائرة ، العرفان وإمام مسلكي العصر والأوان سيدي ومولاي وأستاذي ، ووسيلتي إلى الله وملاذي ، شمس وصلتي ، و إمام قبلتي ، نور لبي ، وحياة قلبي الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن القاضي ابن أبي محلي ، أيده الله نور الكون باستمرار حياته وتوالي مدده ، وخلد ببركته فيض المعارف على قلوب من يريه على مر الزمان وتتابع مدده وأصلح بالاستقامة أحوال محبيه وتابعيه وذويه مدى الدهر إلى انتهاء أمده ولا زالت رباع العرفان ما بقي آهلة وسوابغ خلع الرضوان عليه من الله حاصلة ، وسنى المواهب الالاهية إليه منه وأصله ثم بعد تقبيل قدميه ويديه – دامت النعم لديه – أهدي إلى مقامه الأعظم ، وجنابه الأفخم ، أكمل السلام وأتمه ، وأشرف الثناء وأعمه ، وأفضل التحيات وأسناها ، وأولاها ثم إلى ساداتنا وموالينا فروعه الكرام ، ومن يسره التسليم عليه من سائر الأنام

سلام بـــدار الحبـيب وليتنـــي حلـــلت بناديـــه مكـــان سلام

هذا الذي يبديه عبده الأصغر ، وصحبه الأكبر بعد استغفاره مما اجترم ، وتجرأ عليه وهجم ، الاعتذار باضطرار العبد إلى عرض مهماته على مولاه ، ووسيلته إلى من خلقه وسواه ، هو أنه عنده من الشوق العظيم ، إلى مشاهدة ذلك الجمال الفخيم ، ما لله به عليم

ويقول كما قيل

| | |
|---|---|
| عليكم سلام قدر شوق إليكـــم | وإن كان لا يغني السلام من البعد |
| تذكرت وقتا كان فيـه فراقكـــم | ففاضت دموع العين جريا على الخد |
| رعا الله أياما تـقضت بقربكـــم | كأني بها قد كنت في جنة الخلد |
| أكاتبكـــم وأعلمكـــم بوجـــدي | وقلبـي عنـدكم والجسم عنـــدي |
| ومـــا قصدي أفارقكـــم ولكـــن | قضاء الله يغـــلب كل عبـــد |

وكما قيل

كتبت إليك يا سؤلي كتابا بما ألقاه من ألم الفراق
فأول سطره إحراق قلبي وثانية غرامي واشتياقي
وثالثة متى عيني تراكم ورابعة جميع الود باق
وخامسة فنى صبري وعمري وسادسة متى يوم التلاق

لكنه يخفف عنه جزء كربته ، ويسكن بعض لوعته ، طمعه في عودكم ولقائكم وقوة رجائه لمشاهدة ذاتكم ولما وصل إليه كتابه الشريف ، على أيد أعز الاخوان في الله ، سيدي الحاج محمد بن علي الدرعي ، جزاكم الله وجازاه عنه خير الجزاء حرك ما كان ساكنا ، وأظهر ما كان عنده خفيا كامنا ، كما قال سيدي عمر بن الفارض في تائيته(241)

تذكرني العهد القديم لأنها حديثة عهد من أهيل مودة

وحصل له به من السرور بسلامتكم غاية الفرح واتسع صدره وانشرح ، وصار يتلذذ برؤيته وقراءته حتى كأنه يشاهد ذاتكم ، ويسمع لفظكم والحمد لله على ذلك ، والمسئول من إحسان سيدنا ومولانا بلغه الله من خير الدارين مراده ، وأناله بعد أطول الأعمار الحسنى وزيادة ، أن يحسن إلى عبده ويمن عليه بدوام ارسال مكاتبته إليه *قلت* أنا ، وسأفعل إن شاء الله مادمت حيا

ثم قال رضي الله عنه ، والانعام على هذا الفقير المنكسر خاطره ، لقلة العمل والتقوى ، المفلس من الحسنات ، الحثير الخطايا والسيئات ، أضعف العباد القليل المزاد ، والعليل الفؤاد ، بنظرة رحمة تجبر قلبه المنكسر ، وتجمع شمله المنتشر ، وتمنع عنه الموانع ، وتقطع عنه القواطع وتشفى سقامه ، وتنيله مرامه وتقيمه على الاستقامة ، وتحله دار الكرامة وتصلح بها منه الأعمال وتحصل له الآمال وتبلغه مبالغ الرجال ، قبل وقوع الانحلال ، وحصول الاضمحلال

عندي حدائق أنس غرس أنعمكم قد مسها عطش فليسق من غرسا
وداركوها في أغصانها رمق فلن يعود اخضرار العود أن يبسا

غيره

يا طيب القلوب زادت سقامي أدركن ، أدركن فمنك الشفاء

(241) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار ، أشعر المتصوفين لقب بسلطان العاشقين كانت وفاته سنة 632هـ ، ممن ترجموا له ابن خلكان ، *وفيات الأعيان* ، I 383 خير الدين الزركلي ، *الأعلام* 5 216 - 217 . *دائرة المعارف الاسلامية* ، مادة ابن الفارض .

| | |
|---|---|
| فاشف قلبي بنظرة منك فضلا | بعدها ليس يعتريه عناء |
| وارفعن حجبه بها عنه منا | كي يزول إظلامه والشفاء |
| وافدينه[242] لمحبة لمليك | وأنله نورا يليه صفاء |
| من أفقر العباد إلى مولاه الغني الشريف | محمد بن محمد بن أبي الخيرالحسني[243] |

*قلت* الفلاني لخفاء حروفه عني ، ثم المالكي ، الموقت بالجامع الأزهر

ثم قال رضي الله عنه في حاشية مرسومه ، عاطفا تالي مرغوبه ، على سابق مطلوبه وأن لا ينساه هو وذريته ، ومن يلوذ به من خاطره الشريف ، ولا من صالح دعائه لهم بحسن الخاتمة وبما أحب ، فإنهم جميعا ، خصوصا ولدى عبده ، يقبلون مواطيء أقدامكم ، ويلتمسون ذلك منكم وأن يتفضل على عبده ، بقبول المجهز إليه صحبة حامل العبودية سيدي الحاج محمد بن علي الدرعي وهو مجموع كتاب *الانصاف فيما بين العلماء من الخلاف* في بسم الله الرحمن الرحيم لحافظ المغرب أبي عمر يوسف بن عبد البر اللخمي[244]

*قلت* وقد بلغني كله ، وأجبت الواسطة فيه ، بعدما خضت مع الشيخ حسن – رضي الله عنه – بنحو ما مضى لنا فيه فصله من هذه المقالة[245] وسترون ذلك بزيادة – إن شاء الله – في فصل خاص ، بشكران هديتكم ، بعد تحيتكم بالاستدراك ، على ما في البسملة من أقوال العلماء بقدر الادراك ، ولو في آخر الكتاب ثم قال – رضي الله عنه

ويليه كتاب *المنقذ من الهلكة في دفع مضار السموم المهلكة* فيه خرم من محلين ، مقدارهما ثمان ورقات ، ضاع ذلك من أصله المنقول منه ، و لم نجد في هذا الوقت أصلا غيره[246] وإن شاء الله – نسعى في إتمامه ونرسل لكم نسخة تامة ، وثلاث قدور إحداها رطل مصري من معجون النوشدار و ، وفي الثانية

(242) أوفده في «ب»

(243) محمد بن أبي الخير الحسني المالكي ، من معاصري ابن أبي محلي كان ملما بالرياضيات ، اعتبر من شيوخ الرياضيين والموقتين بالأزهر
أنظر .د .محمد حجي *الحركة الفكرية* 180 ابن القاضي ، درة ، 2 104

(244) أبو عمر جمال الدين يوسف بن عبد البر بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (368 - 463هـ) طبع كتاب *الانصاف فيما بين العلماء من الاختلاف* سنة 1343هـ بمصر ، وقد ترجم للمؤلف :ابن خلكان ، *وفيات* ، 6 64 - 69 ويوسف الياس سركيس ، معجم 159 *ودائرة المعارف الاسلامية* في مادتي ابن عبد البر والبسملة

(245) أنظر ما جاء في هامش 167

(246) كذا في «ب» وأقحمت في «أ» كلمة «الأصل» بين هذا والوقت .

نصف رطل من الترياق الفاروق ، وفي الثالثة نصف ربع رطل من الشكار(247) ومهما يكن لكم من الحوائج بهذه الديار تعرفونا به لنفور - إن شاء الله - بقضائه المرجو من كرم الله وعظيم منته أن يجمع بيننا وبينكم في خير وسلامة لنفوز بشهادة ذاتكم الشريفة قبل الممات ، وأن يجعلنا من دار كرامته في أرفع الدرجات وأسأل(248) من كرم مولانا العفو عن هذا العبد الفقير الحقير ، وعدم مؤاخذته بما صدر منه من سوء الأدب ، وكثرة ما شكا إليه من الوصب سبحان ربك ، رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين في سادس شهر جمادى الأولى سنة خمس عشر وألف ثم كتب في ظهر المرسوم ما استدركه من التعريف بوفيات الأئمة الأعيان ، أسكنهم الله فسيح الجنان ، وتغمد الكل بالرحمة والرضوان

فقال الحمد لله ، أطال الله بقاء مولانا المشار إليه باطنه ، وعظم أجره في أربعة من السادة العلماء المفتين بمصر المحروسة الشيخ عَبد الغني الحنفي ومات في أواخر سنة أربع عشرةوألف ، والشيخ منصور العبلاوي الشافعي ومات في أوائل محرم سنة خمس عشرة، والشيخ سالم السنهوري المالكي ومات في ثاني شهر ربيع الثاني منها والشيخ صالح البلقيني الشافعي(249) ، ومات في خامس عشريته أو عشرته - وعظم الله أجره أيضا في الشيخ محمد الراشدي المغربي فإنه استشهد(250) في أوائل محرم سنة تاريخه قافلا من المدينة المشرفة ، بعد الحج - فإنا لله وإنا إليه راجعون - انتهى

*قلت* وإنا إلى ربنا لمنقلبون - اللهم أو جرني في مصيبتي ، واعقبني خيرا منها

---

(247) القدور ، جمع لقدر وهي من الأواني المستعملة للطبخ ، ابن منظور ، لسان ، 5 79 - 80 و DOZY Supplément الرطل والرُّطل ، وحدة من وحدات الوزن يرجع أصلها إلى ما قبل الاسلام ، وتختلف مقاييس أوزانه باختلاف البلدان والحقب ، فهو يساوي مثلا في مصر الحديثة 100 / 1 من القنطار أي 12 أوقية الترياق اسم تفعال ، سمي بالريق لما فيه من ريق الجبات يقال أكلت ريقا أي بغير ادام ابن منظور ، لسان ، 10 135 - 137 لكن DOZY استعمل الكلمة كمصطلح صيدلي ، قديم ، وقد دخلت الكلمة العربية إلى الفرنسية فهو دواء يستعمل ضد كل أنواع السموم ، لعل ابن أبي محلي كان في حاجة إلى هذا الدواء لأنه اعتقد بأن عبد القادر السماحي حاول قتله بالسم كما أشار إلى ذلك في عدة مناسبات

(248) والسؤال في «ب»

(249) توفي صالح البلقيني سنة 1015هـ ترجم له ابن القاضي ، درة ، 3 32 والمحبي ، خلاصة الأثر ، 2 237

(250) الشهيد في الأصل من قتل في سبيل الله لأنه حي لم يمت لا شك أن المقصود بالشهيد أنه مات بالطاعون أو نحوه اعتمادا على الحديث القائل «إن المطعون والمبطون والغريق والنفسا ، وصاحب الهدم ... كلهم شهيد» .

﴿عسى ربنا أن يبدّلنا خيرا منها أنا إلى ربنا راغبون﴾(251)

يقال أجره الله على مصيبته – كأخذه – أثابه بأجره ليأخذه أجرا أي أخذا والأمر منه أوجر كأوخذ على لغة من لم يحقق همزته التي هي فاء الكلمة ، بل سكنها على الأصل ، واجتلب لها همزة وصل ، كما هي القاعدة في التوصل للابتداء بالساكن ثم أبدلت من جنس حركة همزة الوصل ابتداء فإذا وصلته بما قبله كما في قولك اللهم أوجرني ، سقطت همزة وصله في الدرج دون الابتداء ، وسكنت الهمزة الأصلية المبتدلة واوا كما في قوله تعالى ﴿فليؤد الذي أؤتمن أمانته(252)﴾ على قراءة في الوصل ، وأما في الابتداء فيبدلها واوا كغيره ولك القياس هنا أيضا أن يبدل في الوصل لفظا همزة قطع أوجرني ، بعد اللهم ألفا من جنس حركة ما قبله وهو الميم وتسقط قبلها همزة الوصل فتمد على الميم مدا هوائيا للألف المبدلة من الهمزة الأصلية الساكنة على رأي ورش(253) ومن وافقه من العرب إلا أني أرويهما عن الشيخ سالم(254) السنهوري – رضي الله عنه – حين سألته بمصر عن ضبطها في هذا الأثر نفسه من الحديث النبوي بسكون الهمزة الأصلية وإسقاط الأصلية في الدرج على وزن اللهم ارزقني فاعمله

ومع هذه الرسالة الميقاتية الشريفة بلغه بدرها وعروس حدرها وهي المرصفية المنفية نصها

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي ، لولا أن هدانا الله الحمد لله الملك الوهاب ، الهادي للصواب وأفضل الصلاة وأتم السلام ، على أفضل الخلق وسيد الأنام ، محمد وآله الكرام ، وأصحابه الأئمة الأعلام ، وبعد ، فاسأل الله الكريم المنان ، المان بالفضل واللطف والاحسان أن يديم علينا طلعة بهجة عارف هذا الزمان ، وقطب دائرة مسلكي العصر والأوان سيدي وأستاذي ، ووصلتي إلى الله واعتمادي ، وحياة روحي ونور فؤادي ، هو مولاي الشيخ أحمد ابن عبد الله الفيلالي ، المعروف نسبه الشريف بابن القاضي أدام الله ضياء الوجود بطول بقائه وأضاء قلوب المريدين باشراق نجم سمائه وأفاض على قلبي خصوصا من فيض حاله وناله ما يبصر به بعد عمائه آمين

(251) الآية 32 من سورة القلم

(252) الآية 283 من سورة البقرة

(253) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش توفي سنة 179 هـ ، محمد مخلوف ، شجرة 19 ومحمد حجي *الحركة الفكرية* ، 1 : 66 .

(254) السالم في «ب» .

ثم أهدى لديه ، بعد تقبيل قدميه ويديه ، أشرف تحيات ، طيبات نشرها ، وأوفى تسليمات عنبريات عطرها  مستغفرا من إقدامي على هذا الأمر العظيم ، وتهجمي على حضرة هذا المقام الفخيم ، وهو أني أكاتب هذا القطب الرباني ، والعارف الكامل الصمداني(255) مع أني لست لذلك أهلا ، ولا لمخاطبة مثله فحلا  ولكن حملني على ذلك شدة شوقي إلى ذاته الشريفة ، وطمعي في أن أندرج في سلك من انتمى إلى تلك المقامات المنيفة  وأوسم بين أحبابي بأني أحد أتباعه وأعرف من العالمين بأني من جملة أشياعه  وربما وصل كتابي هذا إليه في حالة إفاضة وإشراق  فنظر نحوى نظرة رحمة ورأفة وإشفاق  فنار قلبي وانشرح صدري ، وذهب عني ظلام الشقاق  ثم أعرض على مسامعه الكريمة ما عندي من كثرة الأشواق وهيبة الفراق ، وألم طول عدم التلاق ، قائلا

سلام عليكم ما أمرّ فراقكم  وأحلى ليالي بالوصال تحلت
لقد ضاق صدري عند ذكر فراقكم  وضاع اصطباري إذ تحققت فرقتي
فلا حيل لي يقوى على طول بعدكم  ولا صبر لي يرجى إذ النون قلت
ولا عقل لي يبقى إذا سار ركبكم  ولا عيش لي يهنى إذا العيش ولت
أيا سيدي عقلي لقد سار بعدكم  لنحو ديار بالحبيب تمتلت
وروحي ولت لا تأمل عودة  فجسمي إذا يبقى على أي حالت
فسقمي تحتّم والدواء لقاؤكم  قلبي تقطّع والعماء لمقلت(256)
إذا نظرت يوما لنحو دياركم  وما أبصرت ذات الحبيب تجلت

(255) يمكن تصنيف المصطلحات الصوفية التي استعملها عبد الهادي المرصفي في حق ابن أبي محلي إلى

1 – مصطلحات ترمز إلى الكون مثل (الزمان – الدائرة – النجم .)
2 مصطلحات ترمز إلى الانسان مثل (القلب – الروح – الحياة)
3 – مصطلحات ترمز إلى ما يرتبط بالأرض (العنبر – العطر)

توجد علاقات كثيرة ، وفي مستويات متعددة بين الكون والانسان والأرض  الذي يهمنا هنا ومن هذا الخطاب الصوفي هو البعد الرمزي لهذه المصطلحات ، فالدائرة مثلا هي النقطة الممتدة  وبالدائرة نرمز للحركة الدائمة التي لا بداية ولا نهاية لها  والذي يهم في هذه الحركة هو الوحدة والكمال  فهي إذن توحي برمز معاكس للزمان الذي يعتبر كحد فاصل بين عالمين العالم العلوي ، والعالم السفلي ، عالم الخلود وعالم الزوال ومن ثم فالدائرة هي الكمال والزمان هو النقصان ، والقطب ، أو النجم هو ذاك النور الذي يتصارع ليعطي النور للعالم المظلم ، للعالم المادي ، السفلي فهو القلب النابض ، هو الحياة  فالعطر هو رمز للذكرى التي قد يتركها القطب وبالتالي هي الاستمرار  فالخطاب المستعمل إذن هو خطاب تصوفي معهود ، أنظر *قاموس الرموز* ، مادة  زمان ، نجم ، قلب الخ

(256) كتبت العلماء في «ب» وهو تصحيف .

قلت  وفي قوله تحتّم ، وتقطع إجراء الوصل ، فجرى الوقف وهو جائز نثرا ، فاش نظما  وقد يكونان فعلي أمر أيضا ، مع التفات وتأسيس قافية حالت من البيت الثالث ، ليس بعيب – إن شاء الله – في قول مثل هذا الامام – رضي الله عنه – وإنما نبهت أنا عليه لئلا يتجرأ عليه بالاعتراض ، من لا يعرف مقامه من طلبة الأعراض أو عبيد الأغراض كما قيل

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة  كما أن عين السخط تبدى المساويا

وقد تقدم نحو من ذلك في أبيات الامام الطناني – رضي الله عنهما – ومن أنا حتى يقولان شعرا في مدحي ، هما ونحوهما من الأئمة ؟ لولا فضل الله ورحمته علي في مسائي وصبحي ، مع أني ما اجتلبت في هذا الهودج ، والاصليت ، ولا أثبت مما قيل في البائس الفقير مؤلفه من حسن الصيت ، إلا ما كان كالاجازة أو الشهادة من شيوخ الزمان ، وقادة الأركان ، دون من دونهم في الرتبة من عامة البلدان ، وخاصة الاخوان وإن كانوا من صفوة الأعيان  فإنما أعتد بما يرغم أنف الأباة الذين لا يمكنهم رد شهادتهم لعمليتهم الشهيرة في القادة الهداة شرقا [ ][257] وغربا بالبرهان والعيان ، لاسيما و زعم أحد الحساد المناكيس[258] أن وصول كتبي للمشرق مما يضحك أهله في المغاربة من عمى المنطق  لأني في رايه باد في سبيل العمل والعرفان ، وقد ذكر ذلك في حضرة السلطان ، مع أني بحمد الله لا أبالي بالخشاش[259] في الأرض ولا بالفراش المتهافت في النيران يعبدون غير من سواهم طعما في غير معروفه تعالى لما خذلهم وما أيدهم ولا قواهم[260]  والله تعالى قد سلى نبيه – عليه السلام ، في كتابه الذي به الاقتداء والاهتداء بالدوام ، حيث قال إذ تجاهل عليه المجرمون ، وصدق عن آياته المتمددون ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون  فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون[261]﴾

(257) زيدت كلمة غربا في «ب»

(258) لاشك أنه يشير هنا إلى عبد القادر السماحي الذي اعتبره ابن أبي محلي كأخطر عدو له  لقد تقرب منه في البداية بل تزوج إحدى بناته  غير أن الصراع فيما بين الرجلين كان عنيفا اعتبره (J.BERQUE) صراعا بين الاسلام السني ممثلا في ابن أبي محلي ، والاسلام المغير فيه  أنظر *المنجنيق* ورقات 173 – 174

(259) خشش ، خشه ، يخشه خشا طعنه – الخشاش الثعبان العظيم ، الخشاش والخشاش الحشرات وهو القصد هنا ، ابن منظور *لسان* 6  295 – 296

(260) أنظر نفس الحادثة في هامش 235 ص 175 .

(261) سورة الانعام رقم الآية 33 .

فلنرجع بعد العارضة إلى وصل ما بقي من رسالة الامام المرصفي بما تقدم منها لكل وفي صفى حيث قال أيده الله في قصيدته من بيته تجلت ، وعلى أثره قوله

فياسيـدي عطفـا علـيّ بنظـرة  بها بدء برئي من سقام وعلـة
فياسيدي ، ياسيدي حل بي الجوى  وحـالي وقـالي شاهـد بسريـرتي
مرادي منكم أن أكون بفكـركم  واذكـر كالمردوق يومـا بـرحمة
وتسئل لي التوفيق من عند خالقي  عسر لمحت تأتي على حين غفلة
فينقذني ربي مـن الغيّ للهـدى  فأنت إلى ذاك الجناب وسيلتـي
فما تم من يرجى لداك سواكم  ومـا كل هـاد مـرشدا بـبصيرة
فيـا عارفـا بـالله مـن بنظـرة  بها ينقذ الغرقان من بحر ظلمة

في منسلخ(262) ربيع الثاني سنة خمس عشرة بعد الألف الفقير عبد الهادي المرصفي ثم قال في حاشيته أيضا أعزه الله

ثم إني أتطفل عليكم ، وأسأل فضلكم الانعام على الفقير بالوظيفة التي أذنتم الفقير بالاشتغال بها على وجه مخصوص وهو أنكم تخاطبوني بلفظ قل كذا وكذا ، فإني أشتغل بها على الانفراد ، وعندي بعض تحير وتشكك في بعض الأعداد فاقطعوا النظر على المناوبة ، واقتصروا على العدد المطلوب في حالة الانفراد ونفس الفقير متشوقة إلى الوقوف على الصمدانية الكبرى(263) فإنكم أشرتم إليها في *القسطاس*، وما صرحتم بها والفقير ما عرف محلا يتطلبها منه

(262) سلخ في «ب»

(263) يبدو من خلال ما كتب هنا أن ابن أبي محلي ، قد ترك في علماء الشرق تأثيرا كبيرا، لا سيما في التصوف ، إلى درجة أنهم يطالبونه بوظيفته وهو هنا دعاء معروف بدعاء الصمدانية ألفه الشيخ عبد الحق بن ابراهيم ، المعروف بابن سبعين ، من كبار علماء التصوف ، توفي بمكة في شوال 667هـ أنظر محمد مخلوف ، شجرة ، 196 وخير الدين الزركلي ، الاعلام ، 3 119
يقول ابن أبي محلي أن الصمدانية الكبرى منسوبة «للشيخ الرباني عبد الحق بن سبعين وهي غير معدومة بيد كثير من الطلبة ، والفقراء ونصها بعد انتخاب ألفاظها عن عدة نسخ وقعت عليها فأثبتها اللهم إني أسئلك بعظمة الألوهية ، وبأسرار الربوبية ...» أشار إلى وقتها وسط الليل أو آخره ، وإلى القصد منها ، أطلب منه ما شئت ، كيف شئت» أنظر الدعاء بكامله ، ثم كل ما قاله ابن أبي محلي في الموضوع ورقات 119 - 120 من الاصليت .

وفي نفس الفقير أيضا بعض أمور يتطلب الكشف عنها فوجهوا خاطركم الشريف نحوه لعل الله – سبحانه وتعالى – يكشف عنه حجاب الحرمان والجهل وقد دخل كتابكم *الوضاح* في ملك الفقير من تركة الشيخ محمد الرشدي ولله الحمد ، وأرجو الله – سبحانه وتعالى – أن يطلعني على ما اشتمل عليه من الأسرار الجليلة

*قلت* وإن فيه والله لأسرارا لطيفة ، ومعارف وحقائق منيفة ، ولكنه من تواليفي التي قذف بها زاخر الأحوال ، في ساحل الأقوال ، عند منتهى سيره لارساله ، في جدة بره من بحر وجده في سره وكله قبل اتقان آلة العروض ، وما يداني ذلك من الفروض فلذلك نجد فيه ، دون *القسطاس* ، وهذا *الاصليت* ، ما هو كالحشو ، خصوصا في نظمه ، لغليان الحال يومئذ من شذا المفضوض ، ولذة المعضوض ، وقرب العهد بالحظوظ على أني قد أخذت بعد تفرقه في البلاد ، في تهذيبه وما تم حتى الآن منه المراد فإن ساعد القدر إلى اتمامه ، على النحو الذي يليق بأخص مقامه ، ونبهت عليه – إن شاء الله – بعد كماله بتاريخ ختامه وما تفرع من أصله القديم ، إن أمكن اصلاحه من المهذب فداك ، وإلا فكل يبقى على حياله فحسبك ما هناك ونعوذ بالله من تخليط الأصل بالفصل ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كالجد بالهزل فقد عرفتك بما سبق ، لئلا تنتقد ، والعذر قائم عند الأحق وكفى بالاعتراف ، إقالة من الزلو ومنثوره كله شفاف ، ونزره ربما أصلحته ومن نظمه قذف الرجاف أو حدف النساف فهو علم خاص بمقامه ، وارد بلغة غرامه ، لا ثبات معالم المحو ، وحفظ مراسم الصحو ، على مربد الصبابة ، ومزبد الكآبة ، في جريه أو سلوكه ، ليقيم الصلاة خلف المراد في الوقت لد لوكه

*وأما القسطاس* فقد جرى مجرى(264) المطمئن في سبيله وكلاهما صحيح في معناه وراجح بالآخر عند قبيله

ثم قال الامام المرصفي – رضي الله عنه – وقد آن أن أختم كتابه ، بعدما تقدم قبل هذه العارضة ، من حسن خطابه

«وأسأل الله سبحانه ، أن يمن علينا بلقائكم قبل الموت والسلام ثم السلام الأتم ، ورضوان الله الأعم ، أخص به حضرة سادتنا الكرام ، وموالينا الفخام ،

(264) كتبت في «ب» «مجرم المظمين» .

فروع ذاتكم الشريفة - حفظهم الله تعالى وحفظ عليهم - وأمدنا والمسلمين بمددهم آمين»

وانتهت الرسالة المرصفية بعد شقيقتها الحسنية الشريفية وأنا أقول اثر دعائهما المقبول لكما ولدريتكما ومن أحبكما أوله حق عليكما مثل ذلك ، وزائد عليه مما هنالك ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين على إكمال المقالة ، في شيوخ صاحب الرسالة

وبعد هؤلاء ربما حضرت مجلس الشيخ زين العابدين البكرى[265] في بعض الفصول ، هو في السن من الأقران فيما أخاله أو قريبا بين الاخوان ، وهو يقرىء في علم الوصول ، وقد ركبه على التفسير من فصاحته وعلى عبارته رونق القبول ، وفي حاله مجال للنظر فلذلك سألته عن القطب والاسم الأعظم ، وما يتبعهما في أثناء السفر[266] ، فأجاب عن بعض المسؤول [ ][267] بما لديه وما استوعب الخبر فرددت إليه الجواب بحسب ما يقتضيه المقام من الخطاب وقد حام بعده غير واحد من أئمة الغرب على شرح مناط السؤال ، كالشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي[268] في الابدال[269]

وكذا أيضا حضرت غير مرة مجلس الشيخ محمد ابن الترجماني الصوفي في كلامه على الخاطر ، بمسجده الخاص به من القاهرة كما زرته مرة في بيته وطريقته تعرف

---

(265) زين العابدين بن محمد بن علي البكري القاهري متصوف توفي سنة 1013هـ أنظر ترجمته عند محمد المحبي ، خلاصة 2 196 - 199 والزركلي *الاعلام* ، 3 105

(266) السفرلغة هو قطع المسافة ، وعند أهل الحقيقة ، وهو المقصود هنا ، هو سير القلب نحو الحق بالذكر والأسفار أربعة

1 - السير إلى الله عن طريق مواجهة النفس

2 - السير إلى الله بالاتصاف بصفاته

3 - نهاية الولاية

4 - مقام البقاء بعد الفناء اضمحلال الخلق في الحق ،

للمزيد أنظر الجرجاني ، *التعريفات* 124 ومحمد مفتاح ، *التيار الصوفي* ، 2 469

(267) هكذا جاءت الجملة في «أ» و «ب» لعل كلمة «عنه» تنقصها ليصبح المعنى واضحا

(268) أبو العباس أحمد بن أبي القاسم التادلي صاحب زاوية الصومعة بتادلة يعتبر من كبار المتصوفين توفي سنة 1013هـ ترجم له أحمد بن محمد المقري ، *روضة الآس* 300 - 303 والقادري ، نشر *المثاني* ، 1 113 - 117

(269) لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم هذا تآليف كثيرة ، لعل الابدال هذا يشير به إلى كتابه المسمى
*شمس المراسم ، في معرفة الولي وحقيقة الولاية والقطب والغوث والخاتم* أنظر أحمد المقري . *روضة الآس* ، ص 301.

بالميمونية ، ذات الخواطر(270) وفيها كلام لنحو أحمد بن حنبل(271) – رضي الله عنه – في الأكابر ، إذ أنكرها ، أي مثلها ، حتى على الامام ذى النون المصري(272) ، وما توقف في زيارته ولاعتقاده(273) لذلك الامام مالك – رضي الله عنهم جميعا –

والذي يظهر لي مما شاهدته في مجلس من ذكر أن افشاء جميع ما يخطر بالبال ، في نحو ذلك المجلس العام قد لا يحل ، لما فيه من الفتنة ، والفضيحة ، والتشويش ، والسفه في بعض الأقوال ، وجل الأحوال إذ يتحدث أحدهم هنالك بما لا يحل له أن يتفوه به في الملا من كشف عورته وعورة غيره والطبيب من يتكلم بالحكمة الجامعة عن فراسة يعم بها جميع من حضر ، ولا يحتاج إلى التخصيص إلا في نادر الأحوال على شرط خاص وقت دون آخر للضرورة فقط وعلى هذا النمط ونحوه كان كلام ذى النون – رضي الله عنه – والله أعلم

وما جازفت في مساق الأدلة من نقول الجنة(274) في العلماء الكبار مثل الامام القرافي في قرونه وقواعد المحقق المغرى *والتوضيح* ، *وشروح* ابن الحاجب

(270) محمد الترجماني من أقران ابن أبي محلي ، تعرف عليه في القاهرة ، وحضر مجلسه في التصوف بمسجده الخاص بالقاهرة ومن خلال ما كتبه ابن أبي محلي يظهر أن محمد الترجماني كان يدعو إلى طريقة صوفية كانت تعرف بالميمونية ، نسبة إلى علي بن ميمون الغماري الشفشاوني المتوفي في بيروت سنة 917هـ أنظر ابن عسكر ، *دوحة الناشر* ، 29 ، سطر 19 – 20 يبدو أن الطريقة كانت ترتكز على الخواطر يعني ما يرد على القلب من الخطاب لكن لا يعني هنا الخاطر الرباني ولكن ما قاله عنه المتصوفة الخاطر الشيطاني الذي يدعو إلى مخالفة الحق والذي بينه ابن أبي محلي بقوله «افشاء ما يخطر بالبال» ومن هنا لجأ إلى رفض الظاهرة لأنها في رأيه أساس «الفتنة ، والفضيحة ، والتشويش» فهو نصب نفسه كمدافع عن السنة وكمحارب للبدعة ، سعى إلى الوقوف دوما ضد كل من أراد أن يحلل ما هو محرم اندرج خطاب ابن أبي محلي ضمن الخطاب السني المعروف بقبوله ومساندته لأنماط معينة من التصوف والمحارب للأنماط «الشعبية» «الزائغة» الواجب تهميشها فالطائفة الميمونية تذكره بالطائفة اليوسفية فهو يدعو إلى محاربة هذا النوع من التصوف لأن فيه أخطارا على الجماعة ، وعلى الضامنين والمحافظين على السنة في الجماعة أي النخبة المثقفة للمزيد أنظر مخطوط *المنجنيق* ضمن مجموع في 133 – 135 وابن عسكر *دوحة الناشر* 28 – 30
لقد ذكرلي الأستاذ محمد حجي أنه سمع من بعض علماء فاس أن الطريقة الميمونية لا زالت تمارس في بعض مساجد المدينة

(271) أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، إمام المذهب الحنبلي ، واحد الأئمة الأربعة ، توفي سنة 241 هـ ، ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 1 34 ابن خلكان ، *وفيات* ، 1 49 الزركلي خير الدين ، *الاعلام* ، 1 – 192 – 193 *دائرة المعارف الاسلامية* مادة أحمد بن حنبل

(272) المراد ذو النون المصري ثوبان بن ابراهيم المتوفي عام 245هـ

(273) والاعتقاده في «ب» لعل الصواب هو ولا اعتقاده

(274) كذا جاءت في «أ» و «ب» لعل الصحيح هو الجلة .

كالقلشاني[275] عليه ، وعلى *الرسالة* وما يداني هؤلاء النظار في الأقطار والأعصار وبينت وجه الاشكال في ذلك كله خبرا ونظرا لارباء وسمعة أو اعجابا وفطر الاطلاع الرقيب الحسيب على ما في غيب قلب الكئيب الغريب ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

فمن مهم ما أشكل علي كل الاشكال ، من فصول السؤال ، ما حكاه السوداني المنكر حليتها من أهل الحدج[276] على القائل بها من فقهاء سوس[277] كغيرهما[278] مستدلا على ذلك بما يأثره عمن نقله هو عنه ، مما ينسب للنبي – صلى الله عليه وسلم – في الآثار ، وأنه – عليه السلام – نهى عن كل مفتر ، كما نهى عن المسكر ، وهو يفتر الأعضاء باستعماله وإن لم يضر بعقل ، ولا جارحة حاسة ضرر حاصلا أو متوقعا في الحال والمآل

*قلت* ومنه العجب لحلية المرقد لقطع عضو أو نحوه لكونه مأمون الضرورة ، كما يقول ابن فرحون[279] أو غيره فيما يأتي – رحمهم الله – ثم نقل في ذلك قول ابن الأثير والقسطلاني[280] كالعلقمي المتكلم عن جامع السيوطي[281] – رحمه الله – وهذا المعنى المذكور قد رأيته بمصر وهو يصحح عليه كتابه المذكور بجامع بازاء دار الشيخ محمد بن الترجماني الميموني النسبة في الصوفية ، وقد تقدم ذكره قريبا إلا أن الشيخ سالم السنهوري – رحمهما الله – أشهر منه في وقتهما وأحق على ما سمعته من بعض من يوثق به من ذوي المعرفة بالفن وغيره – والله أعلم على كل حال – فما نقله أو قاله السوداني

(275) أحمد بن محمد عبد الله القلشاني ، نسبة إلى قلشانة وهي قرية من نواحي تونس والقيروان ، شرح الرسالة وابن الحاجب توفي بتونس سنة 863هـ ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 1 83 *ولقط الفرائد* 257 ، ومحمد مخلوف ، *شجرة* 244

(276) أبو العباس أحمد بابا التنبكتي الصنهاجي توفي سنة 1036هـ حسب الوفراني ترجم له محمد المقري ، *روضة الآس* 303 – 315 والوفراني ، *صفوة من انتشر* 52 – 55 ومحمد مخلوف ، *شجرة* 298 – 299

(277) لعل الاشارة هنا إلى القاضي البوسعيدي الذي سيتحدث عنه فيما بعد

(278) تميز أسلوب ابن أبي محلي بنوع من التقصير في حق كل من العالم السوداني والبوسعيدي فأسلوبه كثيرا ما يقتصر على النسبة ، كما أن ابن أبي محلي عارض – مبدئيا – الذين حرموا التبغ

(279) توفي أحمد ابن فرحون سنة 742 ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 1 43 الزركلي ، *الاعلام* ، 5 157 *ودائرة المعارف الاسلامية* مادة ابن فرحون

(280) القسطلاني توفي سنة 636 هـ ترجم له ابن القاضي *درة* ، 1 220 ومحمد مخلوف ، *شجرة* 164

(281) السيوطي توفي سنة ، 911هـ . ترجم له الزركلي ، *الاعلام* ، 4 : 71 .

المتقدم[282] ومتبوعه مشكل جدا ، كما ثبت بنص كل محقق مذهبي وغيره ، من أن المرقد والمفسد كلاهما يحل منه ما لم يبلغ حد التأثير في العقل ولا يحرم منهما إلا ما غيب العقل فقط من المقادير كما هو في فصل السؤال فتأمله ! فإذا حل منهما ما ذكر دون المسكر فكيف بتحريم المفتر وهو لا يؤثر في العقل أصلا ؟ فإن كان ذلك من قائله أو زاعمه لسد الذريعة حسبما تضمنه المنسوب بقول السوداني المذكور لابن الأثير أو لمن ذكره في كراسته ، وسطرته أنا في سؤالي الآن [ ][283] لتعلمه فأقول

قليل المرقد ، والمفسد ، فضلا عن كثيرهما ، الحل لقطع العضو نحوه ، أولى من كل مفتر بالتحريم سدا للذريعة ، على زعم المخالف المدعي الذي جعله في النهي عنه كنهيه - عليه السلام - عن قليل المسكر وكثيره في الأحكام الشرعية المأخوذة من السنة بعد كتاب ، للتحليل والتحريم وكما أعوزني في الحال ، مطالعة أصول الحديث ، التي تتضمن الأثر المروى في المفتر ، خصوصا من تواليف المحدثين ، في السنن ، والمسانيد كابن حجر[284] في المتأخرين ، على الصحيح الجامع ، ونحوه من المتقدمين لفقدها عندي ، إذ أنا بصحراء ، لا كتب بها معي[285] أستمد عند الحاجة منها ، لأبحث عن متن هذا الحديث ، بعد سنده ، وكونه صحيحا أم سقيما ، محكما أو منسوخا ، معارضا بغيره أو سالما ، وما يلتحق بذلك ، إذ لا يأخذ الأحكام من الأحاديث إلا من علم كيفية الأخذ بشرائطه عند المجتهدين ، بعد حفظ واسع صحيح رواية عن شيوخه ، وفقه صريح بشهادة القواعد ، والفوائد دراية من أربابه ، مع رسوخ قدمه فخفت أن يكون هذا الأثر ، لا من قبيل الصحيح المعمول به عند كل أئمة الفقه أو بعضهم فأحببت لذلك أن يعرفني ، أهل كل مذهب ، من المالكية خصوصا ، كالشافعية أيضا لتقارب المذهبين نصوصا ، وكذا غيرهما إن أمكن وجود من يبذل المستحق بسؤاله في العلم دررا

---

(282) يقصد أحمد بابا السوداني والملاحظ هو الموقف الذي اتخذه ابن أبي محلي في حق أحمد بابا السوداني ، فالوفراني مثلا لا يتحدث عنه إلا إذا استعمل كلمة سيدي معترفا له بالامامة ، أما ابن أبي محلي فإنه لا يستعمل حتى اسمه كاملا لأنه عارضه في استعمال التبغ ،

(283) [التي] زائدة في «ب»

(284) توفي الامام الحافظ المعروف بشيخ الاسلام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني سنة 852هـ

(285) أشار ابن أبي محلي ، في مرات عديدة ، إلى غربة علم الحديث في المغرب كما رأينا في السابق ، إلا أن ادعاءه هنا عدم وجود كتب في الحديث ربما فيها مبالغة نحن نعلم أن الصحراء كانت تتوفر على خزانات مهمة لكن الأمر هنا مرتبط بسفره أنظر ما جاء به الأستاذ محمد حجي ، *الحركة الفكرية* ، 2 : 623 - 639 .

وفصوحا والكل مأجور مشكور ، والبخل مع الوجد عار ، والافتاء بغير علم من الجهل نار

فهذا عذري فيما تضمنه السؤال الموجه من فزان للامام المصري ، ثم إلى كل متأهل من الفقهاء والمحدثين شرقا وغربا في المذهبين وغيرهما من أئمة عصري ، لاضطراري لاستعمال دخان الشجرة المذكورة المشهورة النفع بالتجريب ، في دفع مضار سموم نازلة[286] ببعض من هو مني بحيث يعلم الحبيب الرقيب إذ منذ وقفت على فتوى الشيخ سالم - رضي الله عنه - بيد بعض طلبته من فزان ، مع كراسة السوداني المذكور ، ما تناولتها حتى الآن ، لا لاعتقاد الحرمة تقليدا لهما دون قاطع البرهان ، وواضح التبيان وإنما احتطت لعرضي وديني حتى يزول التوقف فيها بحكم الايقان فلذلك أنهى عنها غيري ، ولا أستعملها في نفسي حتى أكون على بصيرة في حكمها ، من علم صريح ينفي كل ما حاك ويحرك في صدري

والقاعدة القرافية لا شك قاضية بالحلية ولابد ، وأثر السوداني ، ومن تبعه[287] يغبر في وجهها ، وهي كذلك في وجهه ، فاحتاجا لنظر أسد ، وخبر لا يرد وقول الجهلة لغو ، وزعم السفلة لهو ﴿*وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين*﴾[288] وعار عليكم يا أهل مصر ، خصوصا مالكييها ، وشافعييها ، رد السائل خائبا ولستم عندي بمعدمين فتعذروا ولا من حسبة الواهمين ، فأمعنوا النظر وحققوا الخبر ، ثم أجيبوا وإلى ربكم بامتثال أمره تعالى فيما دعاكم إليه الكتاب أنيبوا ومن تبرع معكم من المغاربة بوافي الأجوبة ، فقدمه على الخد ، وله الثناء الخالد في الطروس ما دام الشكر والحمد

*قلت* ومع هذا كله ، فقد أجاب عن بعض المقصود ، جوابا لا يفي بكله ، ولاجُلِّهِ من المغاربة قاضي درعة من طبقة المنجور[289] - رحمهم الله ـــ ، وهو

(286) السموم النازلة هي إشارة من ابن أبي محلي إلى الخلافات التي وقعت بينه وبين عبد القادر السماحي زار ابن أبي محلي هذا الشيخ رغم معارضة بعض الاصدقاء ربط علاقات انتهت بزواج ابن أبي محلي من ابنة للشيخ عبد القادر ، لكنه ، وعلى حد ادعائه لما تعرف على حقيقة هذا الشيخ الزائغ ، المنافق ، وبعد اتهامه بالاباحية وانتمائه إلى الطائفة اليوسفية جرد له لسانه وقلمه ليفضحه أمام الجميع وحتى يتخلص مني ، يقول ابن أبي محلي ، فإنه أعطاني سما ألزمني الفراش لمدة تسعة أشهر للمزيد أنظر مخطوط *المنجنيق* ، 133 - وما بعدها

(287) «ومن تبع هو «هكذا جاءت في «ب»

(288) الآية 35 من سورة يوسف

(289) توفي أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن عبد الله المنجور سنة 995هـ ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 1 156 والوفراني *صفوة* 4 وابن زيدان ، *اتحاف* ، 1 : 319 ، ومحمد مخلوف ، *شجرة* 287 .

البوسعيدي[290] ، القائل بنفع الدخان المذكور والجازم بحله ، ومن المشارقة أيضا ، بعد سؤالنا إياه مع السنهوري ، حبنا في الله تعالى الفقيه ابن الوجيه الشيخ علي ، حفيد الامام المالكي الأجهوري ، وكذا أيضا سأل هو بسببنا المذكور سؤالا مختصرا ، عن حكم دخان المذكورة فقط ، إمام كل شافعي في مذهبه وورقته ، وهو الشيخ نور الدين الزيادي[291] – رضي الله عنهم وأرضاهم ، ووقاهم مضرة سخطه ومعرة مقته —

أما نص سؤال الزيادي وفقه الله مع جوابه فدونكه ، مقدما على الآخرين لقصره ، في معارضة ما قاله السنهوري – رحمه الله – لمن تأملها[292] نظر في سؤالنا بطوله فهو إن قال أيده الله ، أعني سائله ، ماهو هذا

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله ما قولكم – رضي الله عنكم – في استعمال العشبة ، المسماة بتبغ هل يحرم استعمالها مطلقا ؟ أو يحرم على من يغيب عقله ؟ أو يؤذيه فقط دون غيره ؟ أفتونا مأجورين ؟ انتهى السؤال وبعده في السطر المجاب به ما نصه

الحمد لله ، إذا لم تضر بالعقل لا يحرم استعمالها – والله أعلم – كتبه علي الزيادي – كان الله له – انتهى جوابه أيده الله

*قلت* إنما الجواب المطابق ، أن يقول إذا غيبت عقل أحد ، ولو نادرا ، تحرم عليه وعلى غيره ، أو عليه فقط دون سواه أو تحل مطلقا ولكنه ما فعل وفي قوله ، إذا لم تضر بالعقل فلا يحرم استعمالها ، دليل صريح على أن ما لم يضره أصلا ، كالمفتّر ، وكالقدر الذي لا يغطي العقل من المرقد ، والمفسد ، كما هو المذهب لا يحرم استعماله رأسا وهو مقتضى قاعدة القرافي وكل من سلمها من الأئمة بعده ، خلافا لما نقله السوداني المذكور ، عمن سماه في المفتر – بكسر التاء اسم فاعل لا مفعول – من الحديث الذي بإثره ، شاهدا لمقالته القاضية بالتحريم قطعا وفقه القرافي من المالكية ومن معه يأباه إباية فتوى الزيادي هذا من الشافعية كما ترى ذلك أيضا ، فإنها صريحة في حلية ما يغيب العقل وإن فتر الأعضاء لعمومها

(290) أحمد بن محمد البوسعيدي الدرعي ترجم له ابن القاضي درة ، 1 166 محمد مخلوف ، شجرة 301

(291) علي بن يحي الزيادي المصري ، نورالدين ، انتهت إليه رآسة الشافعية بمصر توفي بالقاهرة سنة 1024 هـ ترجم له ، محمد المحبي ، خلاصة ، 3 195 وخير الدين الزركلي ، الأعلام ، 5 185

(292) كذا في «أ» و «ب» لعل الصواب تأمليها .

وأما فتوى السنهوري في تحريم الدخان المذكور ، ومنع استعماله مطلقا ،فمرتب على مقتضى سؤاله الخاص به إذ بناه على ما يغيب العقل ولا شك أن كل ما يغيبه حرام من المرقد والمفسد ، دون ما دونه منهما ، كتحريم يسير المسكر وكثيره مطلقا وإنما باحثناه نحن في عدم تفصيله المغيب إلى مسكر يحرم قليله وكثيره ، وبيعه لنجاسته ، ولزوم الحد فيه ، وإلى سواه وهو المرقد والمفسد اللذان يحل منهما اليسير الذي لا يغيب عقلا بنص الأئمة عليه ، كما لا ينجس ، ولا يحرم بيعه ، ولا يلزم عنه حد أيضا وفتواه – رضي الله عنه – عممت المغيب ، وما فصلت في الأحكام المتباينة عند من حصل ، حسبما تقف عليها في أثناء سؤالنا المفصل ، ومن ثم اتجه البحث معه لا سوى وقد اعتذرنا عنه بنحو السهو – ولا يضر – ومقامه ، في شيوخنا ، لا يجهل بل يجل وفقه مشهور ، وعلمه منشور ، وليس غير النبي بمعصوم(293) ، والساهي في نادر الأحوال باتفاق إذا تذكر(294) واستدرك بالانصاف مافاته غير ملوم ولا مذموم ، وإنما العيب الجمود والذنب الجحود

*قلت* ولأجل هذا كله ، لما وردت فزان مشرقا ، وقد سألني بواسطة سلطانها يومئذ – أيده الله بتوفيقه – عن حكم تبغ المشهورة ، للنزاع في أوانه(295) وقد منع الناس من استعمالها وبيعها وتوعد بالعقوبة من عسى أن يتناولها في بلاده ، أو ببيعها ، معتمدا في ذلك كله على عموم فتوى الشيخ سالم السنهوري – رحمه الله – فلما أوقفني عليها طالبه الشيخ ابراهيم الحضري ، بحاء مهملة ، وضاد معجمة ، وباء التصغير بعد راء مكسورة للنسب ، من أهل فزان ، عجبت لذلك ، لما ثبت عندي قبلها من قول القرافي وغيره وهذه الفتوى بعمومها تصادمها وتناقض نصوص الأئمة ، في منع بيعها وتحريم اليسير منها إن لو كانت مرقدة ، أو مفسدة، في غير النادر من أحوال مستعمليها لعارض قام بالمسند(296) وحده ،

(293) لم يستعمل ، في حديثه عن السنهوري ، الذي حرم استعمال التبغ ، العنف في الخطاب كما اعتاد أن يفعل في الكلام عن أحمد بابا السوداني ربما ذلك يرجع للتقدير الذي يكنه للسنهوري الذي كان استاذا له في القاهرة كما رأينا

(294) جاء في «أ» تذاكره ، وفي «ب» تذكر ونعتقد أنها هي الصحيحة

(295) كان المشرق العربي تابعا ، في مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، للأمبراطورية العثمانية لعل ابن أبي محلي يشير للسلطان أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث ، تولى هذا السلطان العرش ما بين 1603 و1617م لقد كثر النزاع بالفعل في عهده في شأن التبغ ، الذي انتشر عبر الأقطار الاسلامية كلها وبالخصوص في تركيا فأصدر العلماء فتاوى متناقضة في شأنها ، ومن ضمن هذه الفتاوي ، فتوى ابن أبي محلي المشار إليها في النص للمزيد أنظر *دائرة المعارف الاسلامية* مادة ، أحمد الأول

(296) بالمسندر هكذا كتبت في «ب» .

بشهادة ما في الجم الغفير وهو الغالب الذي له الحكم ، بخلاف مقابله اليسير وهو المغلوب ففيه الخلاف ، أي في حكم نفسه هل يرد للغالب أو يخص بحكمه ؟ وليس ثم من يقول بتبعية الغالب الكثير للنادر اليسير في حكمه فيما علمت أو توهمت(297)

فكيف بها وهي لا ترقد ولا تسكر ؟ وإنما تخدر ، أي تفتر الأعضاء أحيانا فقط ، من أناس ما تعودوها في بدايتهم غالبا وإذا استمروا عليها زال التفتير عنها بالمشاهدة والذوق وكذا من ابتدأ شربها بالتدريج ، بحيث لا يسرف فيها عند البداية حتى يتأنس جسمه بل طبعه بها كيف ومطلق الدخان ، يضيق به الصدر مطلقا ، فكيفية استعمالها كسائر الأدوية مشروطة ومطلوبة من فاعلها ومن خالفها فهو المخطىء لطريقة الطب(298) ، أو الجاهل بأحكام الرب ، وإثمه على جهله وذمه عائد عليه في زائف قوله لقطع حيله وهد أصله

ولما سألني من ذكر ، كما أثر ، توقفت من قلة علمي ، وحسن أدبي مع معلمي ، حيث أفتى ولكنه بغير ما ثبت عندي قبله في توهمي فأبيت الفتوى ثم أمسكت عن تناولها حتى ألقاه – رضي الله عنه – وأستثبته فيما صدر عنه وأبث إليه الشكوى فما كان إلا ما شاء الله من موته ، قبل جوابه لكنه بعد الوصول إليه ، وقبل أن يضع عن وجهه الاشكال ، حتى بعض نقابه ثم إن السلطان المذكور – وفقه الله – عن توقفي أنا توقف أيضا هو وترك الناس وما يريدون من تناولها أو طرحها لأن اختلاف العلماء رحمة وحسب الأمير إن

---

(297) جاء في حاشية «أ» ما يلي «ما هو مصير حكم النادر في قولهم النادر لا حكم له ، وقولهم الحكم للغالب»

(298) ركز ابن أبي محلي هنا ، على ضرورة استئناس طبع الانسان قبل جسمه ، في استعمال الدخان والا عرض شارب الدخان نفسه للهلاك لقد ربط ابن أبي محلي الحالة الفيزيولوجية بالحالة النفسية عند الانسان وهذا الموقف يعتبر من أهم محاور البحث في علم النفس اليوم فالطبع هو الشخصية السيكلوجية ، هي المقومات الثابتة التي تحدد شخصية الفرد إن استعمال الدخان يندرج ضمن ما يعرف بالسلوك الشهي ( Comportement appétitif) الذي يريد منه الانسان إرضاء شهوة معينة يخضع سلوك كل إنسان إلى الضوابط التالية

– أولا الشخصية ( la personnalité) ثانيا الموقف الذي يجد نفسه فيه ( la Situation) ركز ابن أبي محلي في قوله هذا على استئناس الطبع قبل الجسم عند المستعمل للدخان إن اختياره هذا يستجيب لما وصلت إليه حاليا الأبحاث في علم النفس والتي يمكن تلخيصها في شمولية الطبع ، بمعنى أن طبع الانسان تتحكم فيه المعطيات الفيزيولوجية والمعطيات السيكلوجية بالاضافة إلى المعطيات البيئوية أنظر

Henri Pieron, *Vocabulaire de la Psychologie* 1968 Paris - P.U.F. 4e ed. P 62 et 85.

- Paul Fraise, *la Psychologie experimentale*. Paris. 1970, Que sais-je ? 4e ed. P. 21 - 22

لم يبلغ معهم درجة الاجتهاد التقليد للأمثل إن تأيد بالنظر السديد والرأى الرشيد ومن أبى بعد هذا كلّه إلا الهجوم بلا سلاح العلم على المنع أو ضده من العموم ، فسبيله في الجهالة معروف ، وطريقه إلى الضلالة موصوف والأشياء بعد البعثة معلومة الخلاف هل هي على الحلية إلا بدليل ، أو العكس إلا بنص أو تأويل

ومن حرمها من الجهلة بلا فقه صريح معه ، فليس بأقل وزرا ممن أضاف إليها من المناكر العارضة ما يوهن دينه ، ويقتل ورعه وقد والله اجتمعت ببعض البلداء المحرمين من الطلبة بلا علم يزين ولا علم يصون ، في ملا من الناس ، فأريتهم من عند أنفسهم بالنص الصريح يومئذ ما تحققوا أنهم من التفقه في الدين على غاية الافلاس ، أو نهاية الابلاس ، جهلا أو تجاهلا تبعا للوسواس دون مستند إليه ولو لمجرد القياس فباؤوا بالخيبة من الحق ، ورجعوا على أعقابهم بالخزى والفضيحةعند أنفسهم بالنص الصريح يومئذ ما تحق والخرق إذ حرموا نعمة التوفيو والريق

## فصل

ولكن وإن جنحت في سؤالي للتحليل بأدل فغير جازم ولابد ، لما أثره السوداني عن النبي – صلى الله عليه وسلم – إن سلم من علته ، فليطلب التحقيق من يده من أربابه ولا كتاب معي أستمد منه في قفرى الموحش ومن أفادني والمسلمين ، قبل الظفر بالمنية من أصولها في جرابه ، فالله تعالى ولي مكافأته عن حسن جوابه ، بأجزل ثوابه ولقد استنفدت لها لوذعي الشرق والغرب واستنهضته بالنثر والشعر لهذه المكرمة لو كان حيا يسمع بالقلب من قرب فوا أسفا على علم ضاع بضياع أهله وواكلفي إلى من يكشف القناع عما أشكل على غيره بقول منير من فصله

ثم استنجد بعد العموم صفوة الشرف ، ودرة الصدف في العلوم الشيخ الامام الميقاتي المالكي الفهوم ، وكذا صنوه في حب الله – تعالى – من أغصان شجرة الولاية بالروضة المرصفية من الشافعية بعد المالكية المخصوصة بالرواية والدراية ، أن يبذلا المجهود في تحصيل المقصود ، مع من يريانه أهلا للمقام من نحارير الأحلام ، ومشاهير الأعلام كالشيخ سليمان البابلي ، وحبه الشيخ موسى ، والشيخ عبد القادر الفيومي ، الشافعيين والشيخ أحمد الكلبي المالكي من الأحباء القدماء والألباء العلماء – رضي الله عنهم – بالظفر بكل كرامة في عافية وسعادة إلى يوم لقائه

وأما الشيخ الفقيه الوجيه أبو الحسن علي الأجهوري ، فقد نفث صدره بما بث فيه من سر حلمه ، ونور علمه ، إلا أنه اقتصر على الشجرة المتنازع فيها إذ هي

المقصودة وحدها بالذات من نفس السؤال فذكر - وفقه الله من حكمها ، على مقتضى المذهب ، ما يشهد برجحان عقله ، وصحة نقله ، واهتمامه بحاجة أخيه المومن ، لما ورد عليه المسطر بصحبة بعض اخواننا الدرعيين - حفظه الله - من كل مزمن ، وجوابه مع اقتصاره واختصاره ، لكل من انكار الحلية بالكلية وتعميم المحلل موهن

واما القاضي الدرعي من المغاربة فقد اقتصر في الجواب على يسير من مسائل المسطور ، برسم عالم سنهور ، لرمد قال نزل به في الحين وخص الشجرة بالذكر لأنها المقصود الأهم وأفاد ما لم يفده غيره في موضع منه بحسب التيسير والتمكين ، من فصول المتطاول برقبة رجائه لغاية التبين

فمما أقول ، ويتأكد ايضاحه منه ، مع حكم المفتر أصل مأخذ القاعدة القرافية وهل سبق إليها أم لا ؟ بل كل ما في السؤال أكيد عند طالبه - وفقه الله - فمن جاد به ساد لديه وله اليد الطولي عليه - والله تعالى - لا يضيع أجر من أحسن عملا[299] لما [ ][300] لم يشفوا غليلي بأتم الجواب ، وأبين الخطاب ، في عامة المطلوب ، غاظني منهم ذلك غيظ المحب على المحبوب ، لاسخط الضال على المغضوب وأيضا فلعل مقالي في التوبيخ ، يوافي هماما تنهض به القريحة العلوية ، والهمة الشريفة النبوية ، من خلاصة الأنساب ، وصفوة الأحساب ، ذوي الألباب ، لا يعطي الدنية ولا يستأسر للجهل إذا أعضلت القضية ولكن من لي به في الزمان ، وقد عيل صبري عنه ومن فقده صحت[301] الأركان ، وأوحش المكان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون

وما كان ظني أن يبوء سؤالي[302] وكفه صفر من عظيم نوال
وقد جاب في الركب المشارق داويا يضل القطا من مغرب ابن هلال[303]
ليسعدوا في ترحاله بمساعدة يجيب إلى مطلوبه غير سال

(299) الآية رقم 30 سورة الكهف

(300) أقحمت كلمة «أن» بين لما ولم. في «أ» و «ب».

(301) كذا في «أ» و «ب» لعل الصواب هو ضجت

(302) كتبت «سؤال» في «ب»

(303) الافتخار بمغرب بني هلال أمر غير مألوف بل تعودنا العكس في حقهم لا سيما في الكتابة الاستعمارية التي لا تفرق بين النهب وقبائل بني هلال إن الافتخار ببني هلال نجده كذلك في قصيدة ألقاها الفقيه عبد العزيز المكناسي يمدح فيها الأمير يعقوب بن عبدالحق المريني بمناسبة حلول عبد الفطر من سنة 684هـ ألقيت هذه القصيدة بين يدي الأمير بالجزيرة الخضراء والقصيدة عبارة عن مدح للمرينيين ، وللقبائل المرينية ثم القبائل العربية مطلع القصيدة

بحمد الله أفتح الخطابا وأبدأ في النظام به الكتابا◄

فعاد وقد طاف البلاد كما غدا وعـــذراؤه في خذرهـــا بجلال
فياليت شعري ما اعتذر فحولها كـأن ضربـوا بمئسهـم لمقـــال

*قلت* ونص السؤال المذكور بعد بسم الله الرحمان الرحيم اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الكرام

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، مع رسله – عليهم الصلاة والسلام – من أئمة الدين المجتهدين ، وعلمائه الراسخين ، وورثة أنبيائه الراشدين ، في كل وقت إلى يوم الدين – رضي الله تعالى عنهم ، وأمتع ببقاء مددهم عامة المسلمين ، وخاصة المؤمنين — من طالب رشده ، وراغب هديه ، إلى حضرة العلم ، وروضة الحلم مجمع البحرين ، ومطلع البدرين ، جامع شتات العلوم ، رواية وحامل رايتها على الرؤوس دراية ، شيخ المذهب خصوصا ، وإمام الحديث عموما ، خليل المناقب ، ومالك المناصب ، سالم التحرير وغانم التقرير حيث ريمت السيادة ، وخيمت الجادة ، بالجمع الأبهر ، والجامع الأزهر ، محط رحال الأسئلة ، ومفك أقفال كل معضلة ، في قواعد الأصول ، وفوائد الفصول بين جهابدة المعقول وصيارفة المنقول – شيد الله مفاخرهم ، وخلد في دفاتر السعادة مآثرهم ، ما سأل محق فأجيب عن تدقيق ، ونظر محقق فأيد بالتوفيق —

هذا رأي البائس الفقير ، يرغب ذا القدر الخطير ، والمحل الأثير ، والفضل الكبير ، شيخ الاسلام المشهور ، وبدر أهلة سنهور أرشدنا الله تعالى بزواهر نجومه ، ومنحنا من نرجو بفضله من جواهر علومه ، مسلما عليه وعلى من سيقف عليه من حفاظ الاعلام ونفاد الأحكام ، الذين لا يحلون ولا يحرمون إلا ما أحلّ الله أو حرمه على الأنام في فتاويهم ، على سنن المعروف ، يجرون من الاستبصار ، محيلون على الانصاف من أنفسهم لكل أحد ويدورون مع الحق حيث دار يرغب منه – رضي الله عنه [ ](304) وعن أشياخه الأولياء ، وأتباعه الأحباء شفاء غليله بجواب واف بالغرض مقنع في سبيله ، إذ لم يسألكم مواجهة قبل يوم رحيله ،

◄ أما في مدح المرينيين فقال
هنيئـــا يـــا مريـــن لقـــد علـــوتم بنـــي الأمـــلاك بـــأسا وانتجابـــا
إلى أن وصل إلى مدح القبائل العربية فقال
بنـــو جرمـــون أنجمهـــم وفيهم هـــلال بدرهـــم يجلـــو السحابـــا
للمزيد أنظر ابن أبي زرع ، *الأنيس المطرب* 364 – 372 وابن خلدون ، *كتاب العبر* ، 6 71 وما بعدها

(304) زيدت كلمة تعالى في «ب» .

لعوائق ، ومضايق حوالك فلما انتهى به السير مغربا ، إلى قرية أوجله[305] آمنا عرج معربا ، فأشخص لمقامكم الأسمى هذه البطاقة العجما ، لتفضوا عنها الختام[306] وتضعوا عن وجه مشكلها اللثام فإذا تبينت الأحكام ، فحضوا إذا عليها الحكام بالعلم الصحيح ، والحلم الصريح لوضوح الدليل ، بأوجز قيل ، يكون فيصلا بين الطلاب ، وحجة لذوي الألباب ، ولكم الأجر والثواب فيقول الطالب المذكور ، أحمد بن عبد الله بن القاضي ابن أبي محلي السجلماسي المستور بعد إهداء التحية للمحبور ، في أربع أبيات قبل سؤاله المسطور ، قذفت بها القريحة ، وما قصرت في حقه الفصيحة ، فقال ، ومن عترته استقال ، في مقدمة التسليم ، ومأدبة التعليم ، ما نصه ، أوفَصُّه

إذا ما انتهى عطف القوافي إلى مصر ... فأحبب به من جامع ملك العصر
إمام الهدى وشيخ أصحاب مالك ... وسالم حفظ للحديث كما الزهر
خليل الفتاوي وابن حاجب علمه ... وعين الصدور في وجوه من الغر
عليهم سلام يبهر الشرق بدره ... ويفضي إلى أقصى المغارب كالدهر

ما جواب أحيد دهره ، وفريد عصره ، في مسائل عنت للسائل ؟ فقدم بين يديه الوسائل مع الرسائل إلى مقام الحبر الفاضل منها قولكم – رضي الله عنكم – النادر لا حكم له ، هل معناه كما قيل ، لا حكم له في نفعه ، وإنما له حكم الغالب عليه أم لا ؟ وهل للنادر المذكور حد يقدر له للعلم به كالعشر أو أقل مثلا أو أكثر ، أو يختلف تقديره بحسب المقام ؟ وهل المسألة النادرة مختلف فيها بين أن ترد إلى حكم غالبها أو حكم نفسها ، أو لا خلاف فيها ؟ وأما المعول عليه من القولين إن ثبت الخلاف فيها وما أمثلة ذلك كله أيدكم الله ؟ وعليه فلو فرض إناء من خمر شرب منه مثلا عشرة أو سبعون أو أكثر فسكروا كلهم إلا واحدا فلم يؤثر فيه شيئا البتة ، ولا يتأثر به ولو شرب منه ، فهل يحرم عليه ذلك الخمر في خاصته ، الحاقا له في الحكم بالغالب عليه من عدد العشرة إن قلتم بغالبيتها في التقدير أو السبعين أو المائة ، أو الألف مثلا ؟ أو يحل له ذلك في نفسه ، لكونه

(305) مدينة صغيرة بينها وبين برقة عشر مراحل الحميري *الروض المعطار* 64 ، *دائرة المعارف الاسلامية* مادة أوجلة

(306) البطاقة رقيعة توضع في الثوب فيها رقم الثمن قيل سميت بذلك لأنها تشد بطاقة من هدب الثوب العجماء التي لاتتكلم استعجم عليه الكلام استبهم ويقال قرأ فلان فاستعجم عليه ما يقرؤه ، إذا التبس عليه فلم يتهيأ له أن يمضي فيه ويقصد هنا بهذه العبارة السؤال الذي يدور حول المسألة المختلف فيها ، أي التبغ ، أنظر ما جاء عند ابن منظور ، *لسان* ، 12 : 389 وعبد القادر الرازي ، *مختار الصحاح* في المادة .

لم يسكر ولا يسكر به ؟ أو يختلف فيه على حد قولهم النادر لا حكم له ، مع ما بعده في نص السؤال – أثابكم الله – وكذا عكس المسئلة أيضا فلو شرب مثل العدد المذكور من عشرة أو مائة أو ألف مثلا ، من نبيذ أو خل أو لبن خاتر أو حامض ، أو غيره، مما عسى أن يقدر من الأشربة التي تباين الخمر بحقائقها ، باجماع أهل المعرفة ، فلم يسكر منهم إلا واحد فقط فهل يحل لهذا الواحد شرب ذلك كله وإن أسكره الحاقا له بحكم الغالب عليه إن سلم المتقدرين[307] للنادر ، بالعدد المتقدم فرضه بعشرة فما بعده ؟ أو لا يلحق بحكم الغالب ، فيحرم عليه لعلة الاسكار المتعلق به هو وحده ؟ وعليه ، فنقول أيضا لو حرم عليه ذلك سكره في خاصته ، هل يتعداه التحريم بسببه إلى أولئك الذين شربوا معه ، فيما ذكر ، ولم يسكروا كغيرهم به مع كثرتهم ، وندوره هو بالنسبة إليهم ؟ أو لا يتعداه فيكون مقصورا عليه وحده التحريم ، لقيام العلة به دونهم ؟ بين لنا ما في ذلك بيانا شافيا بالنص المعزو لمحله ، لتتم الفائدة للطالب المسترشد – أثابكم الله – ونعني بالسكر المذكور ، في جميع ما تقدم ، ما غيب العقل دون الحواس ، مع نشوة وطرب ، جريا على حد تعريف المسكر ، ليتميز من قسيميه المفسد والمرقد ، كما هو في كريم علمكم ، عند القرافي - رضي الله عنكم وأرضاكم وأيضا هذه القاعدة المذكورة عنه – رحمه الله – في *فروقه* وقد أقرها مالك[308] زمانه في توضيحه[309] – رضي الله عنه – فسلمها هو وغيره من الأئمة المحققين ، حتى ابن الشاط[310] ، والامام المقري[311] في *قواعده* بعدما اختصرها وزاد فيها والمواق[312] وأصحاب الجميع *على اه'* ته الشيخ ابن عرفة – رحمه الله – كابن مرزوق[313] في أول شرحه *على المختصر* والقلشاني[314] في شرحه على ابن حاجب

(307) كذا في «أ» و «ب»

(308) يقصد خليل بن إسحاق المالكي صاحب المختصر المشهور

(309) يقصد شرح خليل لمختصر ابن الحاجب ، المسمى *بالتوضيح*

(310) توفي قاسم بن الشاط سنة 723هـ أنظر عبد الواحد الونشريسي *وفيات* 105 وابن القاضي *لقط الفرائد* 180

(311) يقصد أبا عبد الله محمد المقري التلمساني (الجد) ثم الفاسي

(312) أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدوسي الغرناطي الشهير بالمواق توفي سنة 897هـ ترجم له محمد مخلوف ، شجرة 961 وخير الدين الزركلي ، *الاعلام* ، 8 265

(313) توفي أبو عبد الله محمد بن الشيخ صالح أبي العباس أحمد بن مرزوق التلمساني سنة 780هـ ترجم له ، ابن قنفد *شرف الطالب* 86 وابن القاضي *لقط الفرائد*

(314) توفي أحمد بن محمد بن عبد الله القلشاني سنة 862هـ ترجم له بن القاضي ، *درة* ، 1 83 ومحمد مخلوف : *شجرة* 244 .

وابن ناجي[315] والبرزلي[316]بعد أبي الحسن [317] وابن فرحون[318] وغيرهم من شراح ابن الحاجب *والمختصر* ، *والرسالة* ، *والارشاد والشامل* هل يجب على الطالب الوقف عندها ، والعمل بها وفاقا للقرافي المشهور ، ومن ذكر بعده من أئمة المذاهب ومحققيه وتبعهم على ذلك ابن غازي[319] ، والتتائي[320] ، والحطاب[321] ، وزروق[322] ، والسخاوي[323] وغير واحد من الشيوخ ، بل كلهم رضيها وتلقاها بالقبول ، فهل والحالة هذه يتحتم العمل بها كما أشير إليه ؟ أو يجوز لأحد تخطي[324] ماحده في قاعدته المذكورة - أيده الله - ونصها ، وإن ثبت عندكم ضرورة ما هذه صورته

قال ابن غازي - رحمه الله - في حاشيته *على المدونة* خاتمة قال القرافي في الفرق الأربعين من *قواعده* المسكرات والمرقدات والمفسدات ، ما تلتبس حقائقها عن كثير مس الفقهاء والفرق بينها أن المتناول منها إما أن تغيب معه الحواس أولا فإن غابت معه الحواس ، كالبصر والسمع واللمس والشم والذوق فهو المرقد وإن لم تغب معه الحواس فلا يجوز من أن يحدث معه نشوة وسرور كالخمر ،

(315) أبو القاسم بن عيسى المعروف بابن ناجي المتوفي سنة 837هـ ، ترجم له بن القاضي ، 3 282 وأحمد بابا السوداني *نيل الابتهاج* 223

(316) هو أبو القاسم بن أحمد البرزلي توفي سنة 842هـ ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 3 282 ، محمد مخلوف ، *شجرة* 245 الزركلي ، الأعلام 6 6

(317) علي بن محمد الشاذلي توفي سنة 939 له ستة شروح على رسالة بن أبي زيد القيرواني

(318) توفي أحمد بن فرحون سنة 742هـ ترجم له أحمد بن القاضي *درة* ، 1 43 وخير الدين الزركلي ، *الأعلام* ، 5 157 *ودائرة المعارف الاسلامية* مادة ابن فرحون

(319) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي المكناسي ، توفي سنة 919 ترجم له ابن القاضي ، *لقط الفرائد* 285 ، ومحمد حجي ، *الحياة الفكرية* ، 2 346 ، *فهرس محمد ابن غازي* تحقيق محمد الزاهي (المقدمة) ، ومحمد مخلوف *شجرة* 276 ، والزركلي ، *الأعلام* ، 5 232

(320) محمد بن ابراهيم التتائي المتوفي سنة 942هـ ، ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 2 162 وأحمد بابا السوداني ، *نيل الابتهاج* 335 ومحمد مخلوف *شجرة* 272

(321) ترجم لأحمد بن محمد الحطاب ابن القاضي ، *درة* ، 169 محمد مخلوف ، *شجرة* 269

(322) هو شهاب الدين ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد عيسى البرنسي ، الفاسي المعروف بزروق المتوفي سنة 899هـ ترجم له أحمد بابا السوداني ، *نيل الابتهاج* 84 ابن عسكر *دوحة الناشر* تحقيق محمد حجي 48 - 52

(323) الامام شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفي سنة 902هـ ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 3 247 والكتاني ، *فهرس الفهارس* ، 2 : 337 - 338 والزركلي ، *الأعلام* ، 5 154

(324) كتبت تخطي في «ب» .

والمزر[325] وهو المعمول من القمح ، والتبع[326] هو المعمول من العسل ، والسكركة[327] وهو المعمول من الذرة  والمفسد هو المشوش للعقل مع عدم السرور  الغالب كالبنج والسيكران  ولأصل اشتهار هذا المعنى في السكرات أنشد القاضي عبد الوهاب المالكي

زعـــم المدامـــة شاربوهـــا أنها  تجلى الهمـــوم وتصرف الغمـــا
صدقـوا سرت بعقـولهم فتـوهموا  أن السرور لهم بها تمّـــــــــا
سلـــبتهم أديـــانهم وعقـــولهم  أرأيت عـــادم ديـــن مغتّمـــا

فلما شاع أنها توجب السرور والأفراح أجابهم بهذه الأبيات  وبهذه الفروق يظهر لك أن الحشيشة مفسدة

*قلت*  فيه دليل على أن معنى قوله فيما يأتي فيها إنه اختار ، أنها من المخدرات لا من المسكرات  إن التخدير معناه عنده الافساد لا التفتير فاعلمه  ثم قال

ليست مسكرة لوجهين  أحدهما أنا نجد من يأكلها يشتد بكاؤه وصمته ، وأما المسكرات كالخمر فلا تكاد تجد أحدا ممن يشربها إلا وهو مسرور  وثانيهما أنا نجد شرّاب الخمر تكثر عرابدهم ، ووثوب بعضهم على بعض بالسلاح  ويهجمون على الأمور العظيمة التي لا يهجمون عليها حالة الصحو  ولا نجد أكلة الحشيشة إذا اجتمعوا يجري بينهم شيء من ذلك  ولم يسمع من العرابد ما يسمع عن شراب الخمر ، بل هم همدة سكوت مسبتون  لو أخذت قماشهم أو سبهم ، لم تجد فيهم قوة البطش التي تجدها في شربة الخمر بل أشبه شيء بالبهائم  ولذلك يوجد القتل كثيرا مع شراب الخمر ، ولا يوجد مع أكلة الحشيش  فعلى هذين الوجهين اعتقدنا أنها من المفسدات

*قلت*  وحقيقة المفسد مباينة لحقيقة المفتر[328] لغة وانظر هل حتى عرفا وشرعا أم لا ؟ ثم قال

---

(325) المزر ، شراب يتخذ من شعير وهو يولد خلطا رديئا كالفقاع ، ويصدع الرأس ، ويضر بالعصب جدا

(326) التبع هو سيد النحل ، والخمر المستعملة من العسل تسمى كذلك

(327) السكركة خمر الحبشة وهي من الذرة  قال الأزهري ليست بعربية ، والسكركة ، هي لفظة حبشية قد عربت ، للمزيد أنظر ، ابن منظور ، *لسان* ، 4  375  376 ، ابن البيطار ، *الجامع لمفردات الأدوية والأغذية* ، 3  131  133 و155 وابن إسحاق السكيت ، *كتاب الحفاظ في تهذيب الألفاظ*  211 - 229

(328) المفتر الذي يفتر الجسد إذا شرب ، أي يحمي الجسد ويصير فيه فتورا  ابن منظور ، *لسان* ، 5  43 المفسد نقيض المصلح

لا من المسكرات ، فلا يجب فيها الحد ولا تبطل بها الصلاة ، بل يجب فيها التعزير ، والزجر عن ملابستها فتنفرد المسكرات عن المرقدات بثلاثة أحكام الحد ، والتجيس ، وتحريم اليسير وأما المرقدات والمفسدات فلا حد فيها ولا نجاسة فمن صلى بالبنج[329] معه أو الأفيون لم تبطل صلاته اجماعا ويجوز تناول اليسير منها فمن تناول حبة من الأفيون أو البنج أو السيكران جاز ما لم يكن ذلك قدرا يصل إلى التأثير في العقل والحواس ، وأما ما دون ذلك فجائز انتهى

وإنما جلبته بنصه في السؤال مع طوله – أعزكم الله – لتتم الحجة بالبسط وينقطع النزاع بين الطلبة في المسئلة بطاقة الجواب مع زيادة من قبل فضلكم إن شاء الله على أن القاعدة المذكورة في الفرق بين الحقائق الثلاث قد خفي عنا أصل مأخذها من الكتاب أو غيره لرواية مسلم[330] وابن داوود[331] والترمذي[332] ، بنقل أبي الحسن المالكي عنهم – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام[333] فمن أين علم أن مدلول المسكر في الحديث ما غيب العقل دون الحواس مع نشوة وطرب لا غيره من المفسد والمرقد هل يتعين ذلك ، أنه المراد لغة أو عرفا ؟ وكيف الحال ؟ أوقفنا على وجه تخصيص القرافي المسكر المذكور بما تقدم دون الأخيرين وهل سبقه أحد إلى ذلك أم لا ؟ على أن الفقهاء ، ربما أطلقوا اسم المسكر في عقد البيوع والطلاق على ما أعم من ذلك ويردون به دخول المفسد تحت حكمه كغيره ولأجله أشكل علينا التخصيص المذكور في باب الطهارة والاباحة والحدود من قاعدة القرافي – رضي الله عنه – وكذلك سكوت من بعده عنها ، وقبولهم إياها حتى كأنهم أجمعوا على ذلك فلا يخرق اجماعهم بقول أو برأى ينافيها ، ربما احتاج إلى تأمل بعدول بعض من يدعى العلم بزعمه عن مقتضى القاعدة المقررة من الطلبة البعداء عن التحقيق في غير موضع ،

---

(329) يستخرج البنج من ثمر ملآن من بزر شبيه ببزر الخشخاش وهو ثلاثة أصناف لا يصلح منها في الطب إلا صنف واحد له زهر أبيض وبزر أبيض وينبت بالقرب من البحر يدق الثمر مع القضبان ويخرج منه عصير يرش هذا العصير ويخلط بدقيق الحنطة وتعمل منه أقراص الأفيون هولبن الخشخاش الأسود أما كيف يصنع ، فيستخرج من رؤوس الخشخاش وورقة يدقان ومن عصيرهما بواسطة لولب وخشاب ، يترك العصير إلى أن يصير صلبا ثم تؤخذ منه الأقراص للمزيد أنظر ابن بيطار *الجامع لمفرادت الأدوية والأغذية* ، 1 45 – 46 و117 – 118

(330) توفي الامام مسلم سنة 261هـ

(331) توفي أبو داوود سنة 275هـ

(332) والترمذي سنة 279هـ

(333) رواه مسلم وأبو داوود والترمذي .

وهو لا يشعر بما يلزمه في دعواه الواتاد أو تأيد في مقالته

فلنرجع إلى تمام السؤال بذكر المفسد والمرقد المتقدمين إذا فرضنا مأكولا أو مشروبا ما أو غيرهما إن قدر وجوده لا يسكر الاسكار الذي عرفه القرافي(334) وغيره ، وإنما يفسد أو يرقد على القاعدة ، لكنه أيضا في افساده وإرقاده لا يعم متناوليه ، بل إنما يؤثر في النادر منهم فقط ، أو العكس ، والغالب منهم بخلافه على حد صورة المسكر المتقدمة في التقديرات الثلاثة السابقة بالعشر فما بعده أوضح لنا حكم ذلك كله ايضاحا شافيا كما أنتم أهله ؟ زادكم الله رقيا في معارج الفضائل بقول فصل وما هو بالهزل

وأيضا هل المخدر والمفسد مترادفان كما يظهر من كلام القرافي المتقدم ، والآتي من نقل *التوضيح* ، فيتفق حكمهما ؟ أو متباينان فيكون المخدر بمعنى المفتر الأعضاء فقط ؟ أو منملها من غير تأثير في العقل أو حاسة بغيبة ؟ فيختلف له الحكم ، لأن ما لا يؤثر في الحواس(335) غيبوبة لا يحرم قولا واحدا - إن شاء الله — ، أو يحرم حتى المفتر المذكور كما زعمه من نقله عن بعضهم ، وعزاه لشارح الشهاب في الحديث الذي أنتم صيارفة بلاغهُ - أدام الله النفع بكم للعباد —

*خاتمة* اعتذار ، فيها لذى المقدار ، سيدي ، وسبب سؤالنا هذا كله في مقدماته الموطاة ، لمرجو شافي أجوبتكم النورانية البرهان ، أن شجرة ظهرت في قرننا هذا ، كما هو في كريم علمكم ، وشاع خبرها شرقا وغربا تسمى تبغ أو طاب ، يشرب دخانها على هيئة معلومة قد اضطرب الناس في حكمها واختلفت فيها الآراء فمن محل يمدح ، ومحرم يذم ، ومورع عنها وعن الخوض في شأنها ، يفتى بتحريم أو غيرها طلبة العلم ، وزعمة الحلم وعلى كل نظر سيدي فهل الورع في الأقوال مطلوب كما هو في الأفعال ، في حق المفتي كغيره أم لا(336) ؟ اذ مصيبة من أحل ما حرمه الله ليست بأعظم من رزية من حرم ما أحله - تعالى - لأن المحلل والمحرم إنما هو الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - بكتاب أو سنة مبينة للناس ما نزل اليهم ، فتكفل بحفظها الأئمة الراسخون واشتد عضدهما باجماع الأئمة ، على قدم الأئمة الذين هم مهتدون ولقول بعضهم في فتوى آخر ، كما علمتم ، إنما حمله على ذلك الورع ولو تورع أن يقول في دين الله ما ليس منه كان خيرا له هل ذلك كله صحيح أم لا ؟ لتترتب عليه الفتاوى ، وتعتمده الأسئلة وهذه

(334) كتبت القرا في «ب»

(335) كتبت ولا الحواس في «ب»

(336) أنظر في شأن استعمال التبغ ما جاء في الحركة الفكرية 1 : 246 - 266 .

الشجرة المذكورة المتنازع فيها ، هل الواجب في حكمها أن تعرض على قاعدة القرافي الموصلة في السؤال لتعرف(337) منها من أى نوع هي فتلحق به في حكمه ، وتنخرط معه في سلكه من إسكار أو إفتار أو إرقاد أو تخذير إن عني به تفتير الأعضاء فقط أو تنملها ؟ أو لا تعرض عليها ؟ فنقول

لأية علة تنصرف عنها ؟ ولأية حجة تستند بعدها ؟ هل القاعدة فاسدة غير مسلمة ؟ وقد تقدم نقيضه عن الأئمة ، أم ماذا ؟(338) أريحوا هؤلاء الشغب بحجة بالغة تسكت بوضوحها من قامت عليه من الفريقين ولكم ثوابها مذخرا إلى يوم الدين وسؤالي هذا إنما هو عن حكمها في نفسها سالمة من عوارض القدح الخارجة عن ذاتها ، من اجتماع على منكر مع نسوة أو أحداث لغناء أو لهو محرم أو مكروه ، أو جعلها في آنية فضة أو ذهب فإن ذلك لو اتفق على شرب ماء زمزم(339) مع الترغيب عنه حتى يخلصه من شوائيب التكدير وكذا لم أسأل عن حكم من يتعاطاها في الطرق والأسواق إما لشرهه أو سوء نظره لتسقط مروءته أو تنكشف عورته مستمتحن ، واستحسان مستحسن فإن مطلق الأكل في السوق دناءة لذوي الهمم ولا عبرة بالهمج في سائر الأمم

نعم بعد صدور الجواب من سيدنا ، على المقصود الأهم ، من حكمها في ذاتها ، حيث لم ينضف إليها منكر عارض غير لازم لها له أن يتفضل رضي الله عنه - بتتميم الفائدة ، وتنسيم المائدة ، كما فعل الحطاب(340) - رضي الله عنكما - في حكم قهوة البن في شرحه على المختصر ، الذي أنتم باب فهمه ، وسدرة منتهى علمه ، بحسب ما يقتضيه المقام ، والتبرع بالكمال من شأن الشيوخ الكرام وأخلاق دوي المعمال(341) وأسباب الملل مهجورة ، وأبواب الخلل مسدودة ، وعترات المعتذر مقاله وزلات القلم كالقدم سهوا وعوراته عند الأفاضل

(337) التعرف هكذا جاءت في «ب»

(338) كذا في «ب» وهو الصواب وقد سقطت «ما» من «أ» فكتبت فيها أم ذا

(339) ماء زمزم وزمازم كثيرة وزمزم ، بئر بمكة وهو بئر مقدس أتته القداسة من قصة ابراهيم ، إن الماء يرمز للحياة ، فهو مصدر لكل انبعات ، ترمز الآبار في كل الديانات إلى المقدس ، البئر يربط بين ثلاث مستويات تعتبر كلها منبعا للحياة أولا الأرض ، ثانيا الماء وثالثا الجو للمزيد أنظر ، *ابن منظور لسان العرب* ، 12 275 *دائرة المعارف الاسلامية* مادة إبراهيم و Jean Chevalier *Dictionnaire des Symboles*. «Puit» «eau» والبكري ، *معجم ما استعجم* ، 2 700

(340) محمد بن محمد الحطاب فقيه توفي سنة 954هـ ترجم له ابن القاضي ، *درة* ، 2 169 ومحمد مخلوف ، *شجرة* 269 والزركلي ، *الأعلام* ، 7 : 286 .

(341) جاءت العمال في «ب» .

مستورة مغفورة

فأقول لذلك سيدي – أعلى الله مقامكم ، وأمضى في مفارق التوهم حسامكم – إذا عرضت تلك الشجرة المضطرب فيها على القانون القرافي في فرقه الذي هو الميزان الشرعي ، كما أرجو أن تشهدوا له بدليل تسليمه ، وعدم اعتراض عليه من احد من المحققين بعده وقد تقدم ذكرهم ، وإليك حصرهم ، فأُلفيت بإجماع الخلق أنها ليست من المسكرات الداخلة تحت تعريف القرافي ، كما يشهد به الفريقان – إن شاء الله – ومن جحد هذا فالعيان يكذبه أو يصدقه بحضور ألف أو يزيدون من شربتها بين يدى الحاكم ، ليقف على الحقيقة بنفسه ، حتى يرى ، ما فيه المرا وأبلغ من ذلك لو شربها عدل يعتقد الحلية لدليله من العلم وهو سالم المزاج من الاختلاط مثلا ، ليترقى بدوقه عن المعاينة في نفسه وهذا أمر ضروري لاينكرونها لا تسكر الاسكار المتقدم بيانه فإذا ثبت الوصف لها – أعني عدم الاسكار المقرر بقاعدته – هل يجوز لأحد من المسلمين أن يقول بتحريمها أم لا ؟ ومن قال به مثلا ، هل يلزمه إقامة الدليل عليه بنص متقدم أو حجة متمم من كتاب أو سنة ، وغيرهما أم لا ؟ وهل أيضا يقدح تحريمها مع تسليم عدم إسكارها الماضي في القاعدة المذكورة ؟ أولا يقدح فيها ولا فيمن سلمها من أئمة الدين كخليل أو بهرام[342] ومن تقدم معهم – رضي الله عنكم ــ ؟ ثم نقول أيضا إن لم تكن مسكرة ، كما قررنا ، أو أسكرت واحدا الاسكار المتقدم تعريفه من ألف أو يزيدون ، أو من مائة ، أو عشرة على التقديرات المصدّر بها في فاتحة السؤال ما حكم الله فيها ، في حق الواحد المذكور إذا ثبت أنه نادر بالنسبة إلى غيره الذين لا يسكرون بها ؟ وما حكمها في حقهم أيضا ؟ هل تحرم حتى عليهم ، بسببه ؟ أو نقول بل تحل حتى له هو بسببهم لأن الحكم للغالب ؟ أو تحرم عليه دونهم إعطاء للنادر حكمه على انفراده وللغالب ما يليق به ؟ وإن كان هذا كله يغني عنه الجواب عن صدر السؤال – إن شاء الله – لكن أعدته هنا لأن الموضع هو المقصود بالذات ، وكل ما قبله إنما هو توطئة له ، لأن النزاع المذكور بين خواص الطلبة والعامة لهم أتباع فأحببت أن أبسط السؤال بسطا إذا تنزل عليه الجواب طبقا ، انفصلوا في حكمها عن حجة واضحة ، بحجة لائحة من سماع عرفانكم المقبول – بحول الله وقوته ــ

وكذلك ، أقول أيضا ، لو عرضت على حقيقة المفسد والمرقد ، عند القرافي

(342) هو القاضي أبو البقاء بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز ابن عمر المتوفي سنة 805هـ . ترجم له أحمد الونشريسي ، وفيات : 135 وابن القاضي ، درة ، 1 : 312 .

وغيره ، فلم تكن لديها مفسدة أصلا ، ولا مرقدة ، أو أفسدت أو أرقدت في النادر المتقدم مثاله الآن في ألف ومائة أو أكثر فهل تحل قولا واحدا إذا انتفيا عنها معا ، ولوفي النادر ، كما يتضمنه الجواب عن المسكر في الصورة الأولى - إن شاء الله - أم لا ؟ ويبقى النظر ، فيما إذا أرقدت ، أو أفسدت مثلا واحدا ، من عدد كثير غالب عليه بندوره هو جدا ، وقد سبق فرضه الآن في غير موضع فهل يجرى الجواب عن هذه الصورة فيهما مجراه في نحوها من المسكر الذي هو قسيمها في القاعدة المعهودة من حلية أو تحريم ، أو تفصيل ؟ أو يختلف الجواب ؟ فإن اتفق جوبهن فلا إشكال ، وإن اختلف مثلا فأقول

أليس المفسد والمرقد كلاهما يحل منه ما لا يصل إلى حد التأثير المتقدم في تغييب العقل كما نص عليه القرافي ، والحطاب في صدر شرحه على المختصر ، وغيرهما ؟ ومن حرم القدر اليسير منهما على هذه الصفة مثلا هل قوله باطل مطلقا أم لا وأما إن لم تسكر ولم تفسد ، ولم ترقد ، وإنما فترت الأعضاء في بعض الأشخاص أو الأحيان فقط ، لا سيما في مبدئها ولو تؤثر في عقل شاربها رأسا ، ولا في حواسه ، ما يصدق عليه حد حقيقة المفسد والمرقد فضلا عن المسكر ولا ما يدنو منهن بوجه ولا بحال كما قاله السوسي[343] في نظمه وهو ممن يقول بحليته وتجهيل محرمها فهل يشك أحد في حليتها أم لا ؟ ثم إن اختلفوا وقال المحرم بثبوت الافساد أو الارقاد ، والمحل يقول بنفيه عنها إما في النادر أو الغالب ، أو على الجملة هل يرجع في ذلك إلى المشاهدة لامكانها أو إلى التواتر عند الحاكم والمفتي أم لماذا أو هل سيدي أيضا يجوز لمسترشد أن يراجع إمامه بحسن أدب ونية صالحة إذا عزيت[344] له فتوى فيها مالم يفهمه طالب هديه لا جمال في السؤال مثلا أم لا ؟ فإن لم يجز والعياذ بالله - انسدّ باب التحقيق ، في وجه الطالب ، لطف الله به وإن جاز كما هو المرجو ، بل المحقق - من فضل الله عندكم - فقد وقفت ، سيدي - رضي الله عنكم وأمتعنا والمسلمين ، بطول بقائكم ، في عافية وكرامة إلى حسن الخاتمة بمنه ويمنه ، على جواب معزو لكريم مقامكم الأرفع عقب سؤال نصه

الحمد لله وحده سيدي رضي الله عنكم ، ومتع المسلمين بطول حياتكم

(343) أبو العباس أحمد بن علي السوسي البوسعيدي كان قاضيا لدرعة قال عنه محمد حجي «كان أحمد البوسعيدي من المدمنين على التدخين رغم منصبه ، وشيوخه» للمزيد أنظر محمد مخلوف ، شجرة 301 ود محمد حجي ، *الحياة الفكرية* ، 1 : 248 وما بعدها

(344) إذا عزية هكذا جاءت في «ب» وهو تصحيف .

ما قولكم في شجرة خرجت من بلاد الكفار[345] تسمى بتبغ ، واستعملها الناس تجعل في نار ، ويشرب دخانها في قناة ويحصل لمن يشربها خذور ، وبعضهم يغيب عقله ، خصوصا في ابتدائها فهل والحالة هذه يجوز تعاطيها وشرابها وزراعتها ، والتجر فيها أو يمنع ذلك ؟ ويجب على والي الأمر منع الناس من التجر فيها وزراعتها ؟ وهل له ثواب في تأديب متعاطيها ؟ افتونا - رحمكم الله ؟ انتهى نص السؤال المذكور يتلوه جوابه بنصه وهو

الحمد لله مستحق الحمد ، لا يجوز تعاطيها ولا زراعتها ويجب على والي الأمر المنع منها ومن التجر فيها ، ومعاقبة من خالف ما يقتضيه رأيه واجتهاده - والله أعلم - وكتب سالم السنهوري المالكي انتهى نص السؤال والجواب المنسوب إليكم - رضي الله عنكم

فلما وقفت أيها الأستاذ ، والسند الملاد ، على هذا كله في مروري بفزان مشرقا ، وسئلت عن حكمها ، فتوقفت من أجل فتواكم - إن صحت نسبتها إليكم لعلمي بمكانكم في العلم - وتحيرت من ذلك كل التحير ، لما سبق عندي من قاعدة القرافي المتقدمة ، إذ عرضتها على تفصيلها فأبت أن توافق بعض عموم السؤال بجوابه

فقلت لعل شيخنا وإمام الاسلام ، ظهر له خلاف ما تقتضيه القاعدة المذكورة ، ووقف على ما فيها هو ولم نطلع نحن عليه ، لقصورنا ، وكثرة جلهنا أووقع سهو ما لموجبه يومئذ من عموم المسألة أو نحو ذلك فلما اجتمعت بمصركم المعمور [346] بفضلكم المشهور ، وقد ضاق الوقت لعجلة الحجاج[347] عن ذلك في الطلوع ، وصوارف عاقت عن مشافهتكم بهذه المسألة يوم لقبكم ووداعكم كما هو كريم علمكم في القفول لذلك استدركت[348] ما فاتني بهذه الرسالة من بلدة أو جلة[349] حين اجتمع إلى بالي ، بل بعضه تمدونا بما يشفي الغليل من نبل معروفكم مأجورين مشكورين ، بحول الله وقوته

(345) بلاد الكفار عبارة غامضة تطلق على البلدان الغير المسلمة لم يحدد ابن أبي محلي لأنه ربما لا يعرف بالتدقيق من أين أتت ، كل ما يعرف أنها جاءت من بلاد الكفار المعروف أن هذا النبات كان قديما ، لكن استعماله كدخان حديث ظهر مع كريستوف كلومب

(346) يقصد مدينة القاهرة

(347) الجاج هكذا كتبت في «ب»

(348) استركت هكذا كتبت في «ب»

(349) توجد في جنوب برقة أنظر عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، 1 100 ، الزياني الترجمانة الكبرى : 480 والبكرى ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب : 12 - 14

فاما عموم السؤال المذكور ففي غير موضع فمنه قوله ويحصل لمن يشربها خدور ظاهر لكل شارب وليس كذلك ، بل الأكثر ، والجميع في غير المبتدىء لا تخدره بالذوق والمشاهدة وأما في الابتداء فيختلف حال الناس في تخديرها إياهم فمنهم من تخدره ومنهم من لا تخدره والتخدير الذي نحن عانوه فتور في الأعضاء مع بعض ضيق نفس من الدخان من غير تأثير في عقل أو حاسة تأثيرا موجبا لحكم بحسب القاعدة القرافية

ومنه أيضا قوله وبعضهم يغيب عقله ، فظاهره أيضا ربما أوهم أن من تغيب عقله ، إن سلم لم يبلغ في القلة حد الندور ، ونحن نشهد وكذلك يقول كل منصف من نفسه ، أن نسبة من يذكر عنه أنه ترقده إلى من تؤثر فيه أصلا كنسبة واحد من ألف ، بل ألوف فلو شئت لرأيت ثلاثة آلاف يشربونها بين يديك ، ولا يتأثرون بها في حال من أحوالهم ، لأن مدلول البعض قد يصدق حتى على الثلث كغيره فمن هنا خفت أن يكون الشيخ – رضي الله عنه – قد حسب أن ذلك البعض ، إن سلم وجوده ، كما لا ننكره نحن ولا غيرنا ، ليس بأقل من القليل فأفتى بالتحريم – قدسه الله – فلأجل هذه النكتة قدمت أنا السؤال عن حقيقة النادر وحكمه قبل كل شيء وأيضا فقوله تغيب العقل ، فيه اجمال ظاهره يتناول الأقسام الثلاثة من الاسكار ، والافتار والارقاد فإن قصد به جميعا فالاسكار ، المفهوم من القاعدة القرافية غير موجود فيها البتة بالذوق والمشاهدة ، ولا سمعت أحدا يذكره عنها وإنما ينسب إليها الأقل من الارقاد أو قريبا منه فقط وعند انتفاء الاسكار المذكور عنها ، كيف يصح قصده في الجملة ، مع قيام القاعدة على الرأس والعين ؟ وما أحد من جملة الفقهاء ، بعد القرافي ، يقول بتحريم غير المسكر مسريا له معناه في الحكم كما صرحت به القاعدة المشهورة فيما نعلم اللهم إلا أن تكون القاعدة فاسدة ، فنحتاج إلى بيان دليل فسادها على نحو ما أشير إليه في أثناء السؤال

نعم قد ذكر السوسي في نظمه أنه روى تحريم غير المسكر أيضا وشهر وفيه تدافع مع مفهوم القاعدة المحققة ، فإن صح ما ذكره من التشهير أو مطلق القول به فعليه نقول لابد من الايقاف على محله ممن نص عليه من الأئمة لينظر فيه لتنافيه مع قاعدة القرافي ، وقد سلمها التوضيح وغيره وما تعقبوها فأشكل علينا الأمر من هذه الحيثية فاكشفوا لنا عن هذه القولة القناع بالنص ، ووفقوا بينه وبين القاعدة أوفرقوا ولكم من الثواب جزيله عند الله تعالى ونص السوسي المذكور في قصيدته المشهورة بالمغرب ، بعد كلام له في مدحها وذكر منافعها أن

قال – رحمه الله –

ومن يعتقد تحريمها فهو قائل بوهم ولا يجد له من موافق
فعندي ميزان يفرق بينها وبين ذوات السكر عند الحقائق
فما غيب العقل المنير بسكره ونشوته فهو الحرام لذائق
فيحرم منه القل والكثر ، واعتقد نجاسته والحد فيه لفاسق
وما غيب الاحساس من دون نشوة وغيب عقلا فهو يشن الخلائق
فتحريمه أيضا روينا مشهورا لما حل بالجنان منه المفارق
على العقل دار الحكم في كل مسكر تفطن لما في فقهنا من طرائق
وزنت بميزان الشريعة حكمها فألفيت من قد عابها مثل واشق
وكل الذي قلنا خلت منه إنما تخدر جسما هل لذا من مشافق
ولله قوم سلموا وتوقفوا ولم يذكروا عيبا لنزهة رامق

انتهت أبيات القصيدة ، وهي بميزانها جارية على قاعدة القرافي إلا أن قوله في غير المسكر فتحريمه أيضا روينا مشهرا ، قد يوهم أن القدر الذي لا يصل منه إلى تغييب العقل يحرم أيضا كالمسكر والقاعدة تأباه والنص موجود في حلية اليسير منهما ذكره ابن غازي في *تكميله* والحطاب بعد القرافي وغيرهم وإن عني بقوله المطلق تحريم ما غيب منهٰ العقل فقط دون اليسير منها أشكل قوله روينا مشهرا فعن[350] من رواه ؟ إذ لا نعلم أن أحدا يقول بحلية ما يذهب العقل والحواس من المرقد ، إلا لقطع عضو ونحوه وأما المفسد فلا يحل مطلقا قال الشيخ زروق[351] في شرح *الارشاد*

وأما ما يغطي العقل فلا خلاف في تحريم القدر المغطي من كل شيء وما لا يغطي من المسكر كما يغطي ، لقوله – عليه الصلاة والسلام – «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[352] وإنما نصوا فيما وقفنا عليه على حلية اليسير فقط منهما دون ما بلغ بصاحبه غيبوبة فيحرم بلا خلاف وعلى الاطلاق وفي كلامه نفسه ما يغير في وجه مفهوم البيت المذكور إطلاقه ، وهو قوله على العقل دار الحكم في غير مسكر البيت إذ مفهومه أن مالا يغيب منه – أي من غير المسكر – عقلا فهو حلال وعموم مفهوم قوله قبله فتحريمه أيضا رويتا مشهورا ، يقتضي أنه مقول بتحريم قليله وكثيره وشهر فيشكل كلامه على ما ظهر لنا ، وإليكم المرجع

(350) حذفت هذه الكلمة من «ب»

(351) أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق ترجم له ابن القاضي ، درة 1 90 أحمد بابا ، *نيل* 84 ابن عكسر دوحة 48 .

(352) رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داوود وأحمد .

في اثبات ذلك كله أو نفيه بعزو كل قوله[353] لصاحبها لتكون عليه عهدتها وانظر سيدي أيضا قول زروق المتقدم – رضي الله عنه – وهو

قوله «وأما ما يغطي العقل فلا خلاف في تحريم القدر المغطي من كل شيءٍ» فعموم قوله من كل شيء هل يتناول حتى الخنق ، وأسباب الاغماء من دخول حمام حار ونحوه في حق من يغمى عليه فيه كالمريض أم لا ؟ بعد أن نعرف حقيقة الاغماء منكم ، هل هي من الارقاد أم لا ؟ وكذا قولهم في الحكايات الصوفية الجوزية وغيرها غشى عليه ، هل هي بمعنى أغمي عليه ؟ وهل يتناول عموم قوله المذكور حتى أسباب الغشي المعنوية الصوفية المذكورين[354] في السماع في حق من رقّ مزاجه أو راق زجاجهُ[355] ؟ إما بآية قرآنية أو حكاية وهبانية أو إشارة روحانية[356] أو كلمة موزونة بيانية فيشكل علينا ما حكاه الثعالبي الجزائري[357] – رضي الله عنه – في تفسيره ، أو غيره ، فيما أظن لبعد العهد به ، عند قوله تعالى في النزول ﴿*إنّ لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما*[358]﴾ أنه عليه الصلا والسلام غشي عليه أو يقال ما كان من الاغماء بسبب معنوي محدود كهذه الآية فليس من باب ما يصد عن ذكر الله ، والدليل عليه وقوع ذلك من النبي – صلى الله عليه وسلم – ما رواه من ذكر ولا يطرأ عليه – صلى الله عليه وسلم – إلا ما هو كمال ، وبه الاقتداء في الأفعال والأقوال والأحوال ولا من باب ما يصد أيضا عن الصلاة ومن صده ذلك عنها فقد

---

(353) كتبت قولة في «أ» وهو تصحيف

(354) كذا في «أ» و «ب» ولعل الصواب المذكورة

(355) يشير ابن أبي محلي إلى بيتين لأبي نواس في الخمر

رقت وراق زجاجهـــــا متشابها فتشكـــال الأمـــر

فكـــأنما خمر ولا قـــدح وكـــأنما قـــدح ولا خمر

(356) تعتبر هذه الأفكار من المواضيع المعروفة والمتداولة في التصوف الاسلامي تميز بين المادي والروحاني في الانسان إلا أن هذه التنائية تتداخل عناصرها عناصر لتحدد المزاج قال أبو حامد الغزالي «البدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم مقصود الانسان» فالانسان إذن معرض لأخطار شهوات النفس البهائمية والشيطانية وينجو بنفسه عليه بمجاهدتها وبرياضتها فقلب المتصوف مرآة تزيدها الآثار الحميدة نصاعا أنظر الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 3 9 – 13 و **J.Chevalier-Dictionnaire des Symboles** (مرآة .زجاج)

(357) أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري ، المالكي المتوفي سنة 875هـ ترجم لنفسه في كتاب الجامع وترجم له ابن القاضي ، درة ، 3 64 . 65 ومحمد مخلوف ، شجرة ، 264

(358) السورة المزمل رقم الآية 13 .

وقع في محذور ، وقرينه الشيطان ، لقول سيد الطائفة الصوفية وترجمانها وهو الجنيد – رضي الله عنه[359] – في حق النوري – أيده الله – الحمد الله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلا لما حفظت عليه أوقاته ، ولم تستزله الأحوال عن سنن معروف بإضاعة صلاة واحدة ، مع تمادي وجده به أياما عديدة ، حتى برىء منها على يد مفيد الجماعة ، أبي القاسم المذكور – رضي الله عنهما – وإنما سألتكم عن هده ، لمناسبتها لما نحن فيه بجامع التأثير في العمل التكليفي وكذلك نسأل فضلكم أن يجيب فيها عن حكم وضوئه كغسله ، أو يستثني هذا الفريق من ذلك كله فلا تنتقض طهارة به ، ولا يسد للسماع الفرقاني باب في وجهه افتونا بما ترونه سدادا كل علمكم الله واعزوا القول فيه لصاحبه إن عرف وإلا ففي نظركم الكفاية وقد عرضت عليكم ، بعض أوهامي ، لتحققوها أو تزيفوها ، لأنكم النّقاد ، ومنكم يستفاد الله المسؤول في الهداية إلى سبيل الرشاد

وأيضا ، بعد جموح فرس السؤال براكبه ، قولكم – رضي الله عنكم – في الجواب ويجب على والي الأمر المنع منها والتجر فيها لم أفهم عمومه في كل مغيب للعقل أما المسكر فنعم ، وأما المفسد والمرقد فعمومه فيه – إن قصد – مشكل علينا ، لنقل الحطاب أول شرحه *على المختصر* عن ابن فرحون أنه قال أيضا والظاهر جواز ما يسقى من المرقد لقطع عضو ونحوه لأن ضرر المرقد مأمون

فرع – مقتضى ما تقدم جواز بيع هذه الأشياء من الأفيون والبنج ، والجوزة[360] ونحوها ولم أر في ذلك نصا صريحا والظاهر أن يقال في ذلك كما قال ابن رشد[361] في المذر على القول بحرمة أكله إن كان فيه منفعة غير الأكل جاز بيعه ممن يصرفه في غير الأكل ويومن أن بيعه ممن يأكله وكذا يقال في هذه الأشياء وفي سائر المعاجين المغيبة للعقل ويجوز بيع ذلك من لا يستعمل

---

(359) أبو القاسم جنيد البغدادي ، إمام الطائفة الصوفية توفي سنة 297هـ ترجم له ابن خلكان ، *الوفيات* ، 1 373 – 375 والمصادر الموجودة في هامش صفحة 373

(360) الجوزة وجوزة الطيب ، نوع من النبات نجده في الشرق الأقصى ، وكذلك في أمريكا يعطي تمرا يشبه إلى حد ما الجوز المعهود ، لكنه يختلف عنه في الاستعمال فالجوزة تدق وتستخرج منها بعض التوابل كما استعملت ولا زالت تستعمل في صناعة الأدوية ومن أهم مميزاتها أنها تغيب العقل ، وإلى وقت قريب كانت تستعملها بعض الأمهات من أجل تنويم أطفالهن للمزيد أنظر ما جاء في مادة **La Noix Muscade *Encyclopedie UNIVERSALIS* T 13. PP. 290**

(361) يقصد هنا القاضي أبا الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الامام ، توفي سنة 520هـ ترجم له ابن القاضي ، *شرف الطالب* ، 60 ومحمد مخلوف ، *شجرة* 129 والزركلي ، *الأعلام* ، 6 212 – 213 ، *ودائرة المعارف الاسلامية* في مادة ابن رشد .

منه القدر المغيب للعقل ، ويومن أن بيعه ممن يستعمل ذلك – والله تعالى – أعلم – انتهى

لكن أظن الأستاذ فهم من قول السائل ، وبعضهم تغيب عقله ، أنها تسكر فأفتى بحكم المسكرات ، خصوصا في عام ، لموجب ذلك في الوقت – والله أعلم – وقال الخطاب أيضا قبل ذلك فرع

قال ابن فرحون وأما العقاقير الهندية[362] ، فإن أكلت لما توكل له الحشيشة ، امتنع أكلها وإن أكلت للهضم وغيره من المنافع لم تحرم ولا يحرم منها إلا ما أفسد العقل وذكر قبل هذا أن الجوزة وكثير الزعفران والبنج والسيكران من المفسدات ، قليلها جائز ، وحكمها الطهارة وقال البرزلى أجاز أئمتها أكل القليل من جوزة الطيب لتسخين الدماغ واشترط بعضهم أن تخلط مع الأدوية ، والصواب العموم انتهى

فقد عرضت عليكم سيدي ، ثانيا ما أشكل عليّ فهمه من الجواب ، مع سؤاله وذكرت لكم سبب الاشكال نظرا وخبرا ومنكم الاستمداد ، وإلى عالي جبلكم الاستناد وأيضا فقول ابن فرحون المتقدم الآن في العقاقير الهندية فإن أكلت كما توكل له الحشيشة[363] ، امتنع أكلها لم نفهمه من حيث لا ندري هذا الشيء الذي توكل له الحشيشة حتى كأنه هو السبب في منعها لا معنى قائم بها هي من اسكار أو افساد ، إذا اعتبروا قصد المستعمل لها بظاهر قوله فما هذا ؟ أليس أن أمرها دائر بين أن تكون مسكرة فيحرم أكلها مطلقا كالخمر من غير اعتبار شيء زائد على علة التحريم التي هي الاسكار من نية المتناول بل الباب مسدود ، فلا يحل منه البتة إلا لاساغة ، وليس هذا محلها وبين أن تكون مفسدة فيعمها ما يعمهن ، ويخصها من الأحكام ما يخصهن إلا بدليل يقضي بالمغايرة ، فيحتاج مدعيه إلى إقامته من أصله ، ليقوم الفرع على ساقه بإذن ربه

(362) مستخرجات من مواد معدنية أو نباتية كانت تستورد أغلبيتها من الهند ، وكانت تستعمل كأدوية في الطب ، وأحيانا كذلك في السم أنظر مادة عقر في DOZY (R) Supplement

(363) أول طبيب تحدث عن الحشيشة هو ابن بيطار حين قال «ومن القنب نوع ثالث يقال عنه القنب الهندي ، ولم أره بغير مصر ، ويزرع في البساتين ويسمى الحشيشة عندهم وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم ورأيت الفقراء يستعملونه على أنحاء شتى... ابن بيطار ، *الجامع* ، 4 39 أما ابن منظور فلم يتطرق إلى هذا المعنى كما ارتبط اسم فرقة من الاسماعلية بالحشاشين وأعتقد أنها كانت تستعمل كثيرا الحشيشة «احتقارا للموت» للمزيد أنظر ابن بيطار ، *الجامع* ، 2 22 – 23 وبالخصوص 4 39 ابن منظور ، *لسان* ، 6 282 – 286 *دائرة المعارف الاسلامية* في مادة حشيش 289 : . R.DOZY, *Supplement*.

وأيضا من شرب نبيذا أو ماء أو لبنا أو[364] غير ذلك بنية أنه خمر ليسكر به وما وقع مقصوده هل يحرم عليه أم لا ؟ وكذا هل يأثم من جامع حليلته وينوي بها محرمة عليه كذلك أم لا ؟ وهل مقصود ابن فرحون ، في قوله لما تشرب بل تؤكل له الحشيشة من هذا الوادي أم لا ؟ وكذلك عكس هذه الصور كلها ، ما جوابكم عنه كمن شرب نبيذا[365] أو جامع أجنبية يظنها حليلة ما ينبني عليه ؟ وأشد إشكالا علينا من ذلك قول *التوضيح* فيها

واختلف في الحشيشة هل هي من المفسدات أو المسكرات مع اتفاقهم على المنع من أكلها واختار القرافي أنها من المخدرات انتهى فهل معناه ، أي عنده ، من المفسدات لانحصار القول فيها بين المسكرة والمفسدة فلا يكون هنا على هذا للتخدير معنى سواه ، فأنتم أعرف ونظركم أشف ثم إذا انحصر أمرها في أمرين فإن كانت من قبيل المسكرات ، فلا إشكال في لزوم الحد والحرمة والنجاسة لها وإن كانت من وادي المفسدات ، جاء الاشكال في حكاية الاتفاق عنهم من المنع من أكلها وفي ثبوت الزجر بعد التعزير بسببها دون الحد في بعض صورها عند القائل به ووجه الاشكال أن من يقول بمفسدتها ، كيف يتجه له المنع من أكلها إن عني به حتى مالا يغطى منها العقل ليسارته فقد خالفت سائر المفسدات في الحكم والأمر خلافه ، لقول القرافي المتقدم نقله عن ابن غازي ، كغيره بعد كلام له حيث قال

فعلى هذين الوجهين اعتقدنا أنها من الفسدات لا من المسكرات ، فلا يجب فيها الحد ، ولا تبطل بها الصلاة بل يجب فيها التعزيزُ[366] والزجر ، عن ملابستها فتفرد المسكرات من المرقدات والمفسدات بثلاثة أحكام الحد ، والتنجيس ، وتحريم اليسير وأما المرقدات والمفسدات فلا حد فيها ولا نجاسة إلى قوله ﴿ويجوز تناول اليسير منها﴾ إلى آخره فقوله ويجوز تناول اليسير منها عام في سائر المفسدات والعجب كل العجب من منع جائز اتفاقا ومن لزوم التعزير فيه والزجر عن ملابسته ، والفرض أن الحشيشة عنده من جملتها فكيف يصح فيها تحريم اليسير منها ، وحدها دون المفسدات كلها ؟ لأية علة وبأي دليل تخرج

---

(364) سقطت الألف من «ب»

(365) النبيذ ما نبذ من عصير ونحوه يقال نبذ تمرا أو زبيبا فنبذه في وعاء أو سقا عليه الماء ، ويتركه حتى يفور فيصير مسكرا فالنبيذ هو العصير وهو حلال ما لم يعقر
ابن منظور ، *لسان* ، 3 511

(366) التعزير ضرب دون الحد لمنعه الجاني من المعاودة وردعه عن المعصية ، وقيل هو التوقيف على الدين على الفرائض والأحكام ابن منظور ، *لسان* ، 4 561 - 562 .

عن حكم أخواتها عندهم ؟ بينوه لنا ولكم وافر الأجور

وأما إن كان منعه من تناولها مقصورا على ما يغطى منها العقل فقط دون ما دونه من المقادير فسهل إلا أن هذا الحكم لا تختص به الحشيشة ، لأن ذلك القدر حرام ممنوع من كل مفسد لا منها فقط

نعم ، يبقى النظر في لزوم التعزير والزجر فيها دون الحد ، إن كان عندهم هذا الحكم ثابتا في سائر المفسدات فلا إشكال ، وإلا طولبوا بدليل تخصيصها أيضا إن اجتهدوا ، ويرفع النص لصاحبه إن قلدوا اللهم إلا أن يقال حدث لهم فيها اجماع يومئذ(367)

أما بعد ثبوت الخلاف فيجري على قاعدة الأصول فإن أجازوه وإلا بقي الاشكال وأما قبله وفيه ما ترى ؟ وأنتم أعرف ، ومنكم الفتوى وعلينا الوعا(368) – والله المستعان ، ومنه اللطف – وكذا(369) سيدي – رضي الله عنكم – ما ترون في نقل *التوضيح* عند قول ابن الحاجب في الطلاق ، بخلاف السكران إلى آخره ؟ قال فيه أي بخلاف السكران ، فإن طلاقه لازم إلى أن قال «ونص اللخمي(370) على أنه لا فرق بين أن يسكر بخمر أو غيرها قال ولا يجوز أن يشرب شيئا يصده عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة وفي شرح *البخاري* لابن بطال(371) من سكر بلبن أو طعام حلال أو دواء فقذف غيره فحمله حمل المجنون ، والمغمى عليه وقد بلغني عن ابن الفخار ، الفقيه ، أنه كان يقول من سكر من لبن أوطعام حلال أنه لا يلزمه طلاق لو طلق في حاله ذلك وحكى الطحاوي(372) أنه اجماع الفقهاء انتهى

فقوله – أعزكم الله – من سكر بلبن أو طعام حلال ودواء فقذف إلى آخره هل ظاهره أن الحلية والاسكار قد يجتمعان ؟ وقد نص قبله بسطر أنه لا يجوز أن

(367) معنى هذا أن الاجماع يخضع لضوابط ظرفية أي أن الاجماع قد يحصل في وقت معين وفي نقطة معينة وقد يتعدد الاجماع ولكن لا تراجع فيه

(368) وعي الحديث أي حفظه

(369) كتبت وكان في «أ»

(370) علي بن محمد الربعي ، أبو الحسن المعروف باللخمي من فقهاء المالكية المشهورين توفي بسفاقس سنة 478هـ ترجم له ، محمد مخلوف ، *شجرة* ، 117 ، *الديباج المذهب* ، 203 الزركلي ، *الأعلام* 5 148

(371) يعرف بابن اللجام ، أصله من قرطبة ، عني بالحديث عناية تامة ، وقد شرح البخاري ترجم له ، ابن فرحون ، *الديباج المذهب* 204 والزركلي ، *الأعلام* ، 5 96

(372) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك بن مسلمة بن سليمان الأزدي الطحاوي الحنفي المتوفي سنة 321هـ .

يشرب شيئا يصده عن ذكر الله وعن الصلاة فإذا كان الاقدام على شرب مايصد عن ذكر الله والصلاة حراما بتغيب عقل التمييز كيف يتصدر بعد اجتماع الحلية والاسكار المحرم في شيء ما وكذا التداوي بالمسكر الأخص في القاعدة القرافية حرام فما هذا التعميم ؟ وما صورة اجتماعهما على ما ذكروا ؟ أفدنا - ضاعف الله حسناتكم الخالدة على ألواح البالي ، وطروس الأيام ؟

وكذا الدخان الطاهر من عود أو عنبر أو مصطكى أو حرمل أو كبريت للتداوي[373] بحيث يصل منه للحلقوم ، وكالخبز المطبوخ ، أو اللحم المشوي بطاهر علق به دخانه أيضا ونحو ذلك هل يجوز لأحد أن يقول بحرمته أم لا ؟ والله تعالى يمدنا منكم بنافع العلوم ، ويمنحنا مع توفيقه ثاقب الفهوم ثم إن قيل فيهما إنما حلا بالتبع لمالا ينفك عنهما كتراب قليل في تمر ففي الفجور القنع

وأيضا فقد ذكر هنا بعض ما بالغ في تحريم تبغ المذكورة من طلبة السودان ، عكس ما قاله السوسي في حقها ذكر كلاما نعرضه عليكم ، هو لباب ما احتج به على الحرمة في كراسته نصه فيها بعد كلام كثير أن قال - رحمه الله -

وقد ورد النهي عن كل مسكر ، ومفتر ، روى الامام أحمد في مسنده ، وأبو داوود أورد في سننه ، عن أم سلمة - رضي الله تعالى عنها - قالت نهى رسول الله - صلى الله عنه وسلم - عن كل مسكر ومفتر العلقمي[374] في شرح *الجامع الصغير* قال شيخنا الخطابي[375] المفتر كل شراب يورث الفتور في الأطراف ، وهو مقاومة السكر نهى عن شربه لئلا يكون ذريعة إلى السكر وأورده في *النهاية* في مادة فتر بالفاء والمثناة الفوقية ، قال المفتر الذي إذا شرب أحمى الجسد فصار فيه فتور وهو ضعف انتهى

وقال القسطلاني هذا الحديث دليل على تحريم الحشيشة وغيرها من المخدرات فإنها إن لم تكن مسكرة ، كانت مخدرة ، ولذلك يكثر الندم من متعاطيها وتثقل رؤوسهم بواسطة تبخيرها في الدماغ انتهى إلى أن قال السوداني المذكور

فلا شك أن هذا حال طابة أي التبغ ، لأنها تؤثر الفتور في الأطراف لقوم ، وتورث الكسل والفشل للآخرين وحكمها أيضا حكم الحشيشة التي اختلف

(373) سعي ابن أبي محلي في حديثه هنا عن الدخان الذي يصل إلى الحلقوم إلى إقناع الذين حرموا تناول التبغ وبالتالي أراد أن يطعن في مواقفهم

(374) توفي محمد بن عبد الرحمن العلقمي سنة 969هـ ترجم له الكتاني ، *فهرس* ، 2 206 وخير الدين الزركلي ، *الأعلام* ، 5 49

(375) أحمد بن محمد الخطابي فقيه ومحدث له شروح كثيرة منها شرح سنن *أبي داوود* وغريب *الحديث* توفي سنة 388هـ .

المتاخرون فيها ثم جلب نص التوضيح المتقدم إلى قوله وكان شيخنا الشهير بعبد الله المنوفي[376] يختار أنها من المسكرات إلى آخره

*قلت* وإن كان ابن مرزوق – رضي الله عنهما – نكث[377] عليه في تعليل اختياره ذلك ، في صدر شرحه *على المختصر* بقوله وفيما ذكر الشيخ من الاحتجاج نظر ، لأن اتلاف الأموال فيها إنما يدل على أن لهم فيها لذة وأما تعيين كونها للطرب[378] المماثل لطرب الخمر فلا إذ الأعم لا إشعار له بالأخص المعين ثم قال السوداني المذكور أيضا

وقد نفل الاجماع على تحريم الحشيشة غير واحد منهم القرافي وابن تيمية[379] قال إن من استحلها فقد كفر ، انتهى وعلى هذا فليحذر مستحل طابة على نفسه ، لئلا يكون كالباحث عن حتفه بظلفه أو الجادع مازن أنفه بكفه انتهى قول الطالب السوداني المخالف للسوسي في قصيدته – رحمهما الله – فانظر سيدي هذه النازلة واحكم بها أراك الله بين الفريقين في شأنها ، واشف غليلنا بالجواب عما تضمنه بسؤالنا نحن فصلا فصلا بزيادة ايضاح فما يقول الامام – أيده الله – في الاستدلال بالحديث ؟ هل لابد للمستدل به أن يعرف قبل ذلك صحيحه من سقيمه ، ناسخه ومنسوخه ومأخوذا به ومتروكا على ما تقتضيه قواعد مذهب إمامه إن قلد أولا يطالب بذلك ؟ ومن ادعى الاجتهاد ولو في مسألة واحدة هل تلزمه فيها شرائط المجتهد أم لا ؟ وعليه سيدي هذا الحديث المتضمن النهي عن المفتر ، ما تقولون في سنده بعد ضبطه أولا ؟ هل هو صحيح أو حسن صالح لبناء الأحكام على مقتضاه أم لا ؟ وثانيا في متنه من حيث قرن في النهي المفتر بالمسكر ، أما المسكر فلا اشكال في فهم النهي عنه على وجه التحريم وأما المفتر فنحتاج إلى سماع حكمه وتلقيه من جهتكم العلية هل هو كما يقول هذا الطالب واقتضاه ظاهر نقله عمن سماه آنفا ، وأنه منهى عنه كالمسكر فيشتركان في التحريم ؟ أو ليس الأمر كذلك ، فنسألكم عن بيانه – أعزكم الله – لكن هذا المفتر الذي فسروه بما تقدم ، إن لم يكن النهي عنه ؟ على وجه الكراهة لم يفهم ، بل ولو على الكراهة

(376) أبو محمد عبد الله بن محمد بن سليمان المنوفي أحد شيوخ مصر توفي سنة 749هـ ترجم له ، محمد مخلوف ، شجرة ، 205

(377) نكث نقض

(378) الطرب هو الفرح والحزن ، قيل الطرب خفة تعتري عند شدة الفرح أو الحزن والهم وقيل حلول الفرح وذهاب الحزن ، ابن منظور ، *لسان* ، 1 557 - 558

(379) توفي شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن تيمية سنة 728هـ .

فإن ظاهر القاعدة القرافية المفصلة بين المسكر والمفسد ، والمرقد ، إن لم يؤثر في العقل ولا في الحاسة غيبة غير محظور أصلا بديل تحليل اليسير من غير المسكر على نحو ما مضى في أثناء السؤال فما هذا أيدكم الله ؟ إن كان المفتر للأطراف دون تغيب لشيء من الحواس أو العقل حراما جاء الاشكال الكبير فإن السمن ، لا سيما أن كان عتيقا ، إذا أكل منه في قائلة بالمصيف أورث صاحبه بعض فتور وكذلك بعض الأطعمة وأبين من ذلك كثير من المسهلات الطبية يعقبها(380) فتور ضرورة مع حليتها فيما نعلم وكذلك الجماع يعقبه فتور بعد الانزال أحيانا وكذا عقب الخروج من الحمام

كيف وقد تقدم عن ابن فرحون ، أن المرقد يجوز بالظاهر استعماله لقطع عضو ونحوه لأنه مأمون الضرر ؟ فكيف بالمفتر ؟ – عافانا الله من الخطر والغرر – فإن كان كل مفتر للأطراف حراما من أي واد كان سواء مشروبه ، ومأكوله ، وغيرهما فهو المعضل لكن رفعنا أمره إليكم لينفصل الخصمان عن بينة في حكمه وأيضا ظاهر نقل هذا الطالب أن المفتر والمخدر مترادفان وهما معا يباينان المفسد وظاهر كلام القرافي الذي نقله التوضيح ، وغيره في الحشيشة أنه هو المفسد وقد سبق الايماء إليه في صدر السؤال وإليكم التحقيق في ذلك كله وكذلك أيضا يظهر من كلام السوسي ، أن المخدر حلال حيث قال

وكلّ الذي قلنا خلقت منه إنما تخدّر جسما هل لذا من مشاقق

وما يحرم عليه السوداني المذكور يخالفه ، فيحتاج إلى الكشف عن حقيقة المخدر والمفتر ، أولا لغة وشرعا أي عرفا(381) هل هما شيء واحد أمتباينان ؟ لنعرف بعد

(380) كتبت يعقها في «ب» وهو تصحيف

(381) العرف هو الصبر عند ابن منظور ، أحيانا لا يميز بين العرف والعادة ، R-Dozy و J. Berque الذي قال «إني لا أرى فرقا بين مفهومي العرف والعادة» أنظر كتاب «Les Nawazil» هامش 9 في صفحة 27

الأعراف هي قواعد ، تتوصل إليها المجموعات البشرية ، اعتمادا على الممارسات اليومية الموروثة ، والمجال الايكولوجي الذي تعيش فيه من أجل ضبط العلاقات فيما بينها القاعدة الأساسية التي اعتمدها العلماء في احتواء وضبط الأعراف هي «أن العادة حكم من أحكام الشريعة ، ما لم تخالف السنة»

حول هذه النقطة كثر النقاش بعض الفقهاء آمنوا بعدم وجود أي انفصام بين الشريعة والأعراف ، لأن الأحكام الاسلامية صالحة في كل زمان ومكان ثم المدرسة الاستعمارية التي ركزت على وجود هذا الانفصام فيما بين الأعراف ، والتقاليد التي تعبر في رأيها على عمق الروح البربرية ، بالنسبة للمغرب مثلا والأحكام الواردة في الاسلام الواضح أن علماء الشريعة اهتموا بهذا الواقع ، ومنذ أمد بعيد ، فركزوا على احتواء وضم هذه الأعراف ، ولم يتركوها خارج الاطار القضائي الاسلامي للمزيد في هذه النقطة أنظر محمد حجي ، الحركة ، 1 : 313 و

ذلك حكم كل منهما على الوجهين

وبالجملة فأمر المفتر بكسر التاء في التحريم أشكل علينا من ذلك كله ، لقلة علمنا وكثرة جهلنا ، وكذلك أيضا - أيدكم الله - من تصدى للافتاء ، على مذهب إمام من الأئمة لا بد له من معرفة ما بني عليه مذهبه من الأصول أولا كإمامنا مالك - رضي الله تعالى عنه وعن أشياخه - لأنه قد يغلب إجماع أهل المدينة وعملهم على خبر الآحاد وإن صح نقله عرفا فيخشى على مقلده الجاهل بمجموع قواعد مذهبه كغيره أن يمشي على غير سننه في السنن مع اعتقاد تقليده ، وموافقته ، وهو يخالف من حيث لا يشعر ، فيبقى بين بين لا هو مقلد ولا مجتهد ومن أجل هذا كله ، رفعت اليكم أمر هذه الشجرة المتخبط فيها وحكيت لكم بسببها جميع ما خطر بالبال ، عند السؤال عرضا لتزيفوا الزائف ، وتقرروا المعروف بأدلة واضحة وإن قصرت في فصول السؤال ، فذلك مبلغ علمي ، وفضلكم يحملني ، وحلمكم يسعني ، والخير قصدت ، والبر أردت ، والله على ما نقول وكيل فإنما أنا مسترشد أمامه[382] ، وسائل لا يجهل مقامه ، فلولا جهلي ما سألت ، ولولا قوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر[383]﴾ ما فعلت - وأنتم بحمد الله - شموس المذهب الغيهب ، في كان معقول أو أثر منقول ، لا حرمنا الله جني أجوبتكم الوافية وغنا أدويتكم الشافية فالجاهل مريض والعالم طبيبه ، والشيخ مفيد والرب يثيبه ثم لا أحاشي أحدا أبعد من كبراء المذهب ونبلائه ، وفقهاء العصر ولو من الشافعية وفضلائه والكل بعد واسطة عقدهم أرغب أن يعلق على هذه الأوراق بعد التثبت ، ما حضره من الجواب إن تيسر وراءه[384] أهلا للتكلم عليه ، فإني طفيلي أبو أبهم المفتوحة بآمر الله لكل سائل صادق في عيلته لكني وإن خصصت بأصلها أستادنا الأثير ، وشيخ الجماعة الشهير ، سيدنا الامام سالم السنهوري المالكي - فسح الله في مدته - ونفع بعلومه كافة أمته - ما حجرتها بعد على أحد من متأهل للجواب عنها بحسب قوته فالسائل على قدر حاجته ، والمجيب على قدر همته وكل إناء

---

Jacques Berque les Nawazil et Muzaraea du Mieyar Al wazzânî. P (21-23-27-98) ◄

Jacques Berque ULEMA. P. (195-229).

Schast, Esquisse de l'Histoire du droit Musulman P. 54.

(382) انامه - هكذا كتبت في «أ» وهو تصحيف

(383) الآية رقم 43 من سورة النحل .

(384) كتبت وراء في «ب» .

إنما يرشح بما فيه ومن لم يكن طيبا لا يخرج الطيب على فيه ولولا حضكم لي على مكاتبكم ما تجاسرت ، وقد سئلت عن حكمها فتوقفت ، مع اعتقادي الحلية من قبل للقاعدة القرافية ، وكذا يتوقف فيها كل من سألنا عنها إن أمثل من دوي الأمر ، حتى تجيبونا عن مقتضى هذا السؤال المفصل للبيان - بحول الله وقوته - فإن أصبت فالله الحمد وإن أخطأت فنبهوني على محل خطئي لأرجع إلى الحق ، ولكم اليد الطولى ، في الاخرة والأولى ثم إن كان حسن السؤال نصف العلم ، فالعذر مقبول عند ذوي الحلم وهذه أبيات ، قد لا تناسب المحل ، قد جرى بها القلم على وفق الخاطر هل تحل أيضا إذا ذكيت بنية وزكيت من علة قال لسان الحال في إشارة ذيل السؤال ، بعد التفاته يسيرة ، لارادة أثيره أفاكه بها الخطير ، وأباكر عنها المطير ، في قطر الأدب ، وصقع الحسب ، تشبيها كالتنبيه ، وتنويها كالتنزيه ، نصها على ما فيها ، وإليك تلافيها أشبه مذكورة الأشجار للعلم بي أن تسئلني عن شجر العنب

إن لم تكن في شتاء ظل ناظره ... من خلقه في فلاة الجهل بالنسب
فيزدريني لصمتي من غباوته ... عند تعامي عنه الحفظ للأدب
قد فتهم بقدا التنكير ، فانقلبوا ... عمي البصائر في الدرب عن الأرب
وزدتهم بالجفا قطعا لزعمهم ... حوز المراسي[385] بلا شيء من الحسب
لَو أبتغي المجد لم يجور على سفه ... ذيل المعرة في هزل ذوو النسب
وانثنى بطرا عطف غويهم ... عن ايتماره في الزجر عن اللعب
ومن يساعد مغلوبا على خطر ... وتابع الوهم لا يبرا من الريب
وخاتل الليث قد غر وإن بطل ... ومن يضاوله ففي الأنياب ينتسب
والحال أغنى عن التصريح من شهدت ... له القرينة كالتلويح باللذب
والجود من مصر يشي الكدا زهرا ... ويدع الرهط بعد القحط في طرب
ورائد الحي لا يعدو مضاربه ... والجهل بالأرض يقتل أخا الطلب
والزعم بكر وبيس الباد راكبه ... وبازل الحلم لا يأمن من الجرب
ومنْ يحد في سبيل العلم عن علم ... يقع مع الغمر في واد من الكذب
لله درك دار بـــــدابهم ... وطبه عند أشراف على العطب
فخذ فلاذة زار نظمه دررا ... على الحقيق مع اللجين والذهب
واخصص بها سالم الصدر إذا اشتبهوا ... من الأئمة في عجم ومن عرب
وابثت عليه من التسليم جوهره ... يغلو بمصر ولا يرخص في حلب

(385) المزايا هكذا كتبت في «ب» .

جردتها من بنات الفكر غانية | عن الزخارف بالأعراض لم تشب
ودعتها ودموع الحبر جارية | على خدود طروس خالد الكتب
واستودعتني من يرعى ودائعه | كما فعلت بها وقيل لي أرتقب
فقلت إن شاء رب الغرب يجمعنا | والشرق قاض متى يدعو أمر أيجب
ختمتها وجواري الدهر باسمة | عن ألف تغر إلى يد من العرب
لما انتهيت إلى فزان فوزي بها | وإلا من ضاق من الهجر إن لم تعب
بدأتها وبنات الفكر في وجل | إن لا تتم إلى حميرة الرطب
فاختتم القطر في شهر جمادى بها | ليس إلا خير من الشهرين في الحقب
ما نطقت بصلاة مع تزكية | على المصلى السرى السار في رجب
حليتها فأبت مشيا بلا خول | إليك تسعى من الافتار في رهب
زودتها الصبر والاجمال فاحتملت | والعذر يقبل عند العالي في الرتب
قد أطنب الرسل في فصل الخطاب فما | عليّ باس وما بالنظم من عجب

وقد تمت الحكاية الأدبية والرسالة الطلبية مع الاشارة الشجرية في بلد واحد وقد تضمنتها أبيات هذه الغبية ؟ قال ذلك وبيده كتبه أحمد بن عبد الله المذكور ، لطف الله به في التاريخ المسطور ، وكفى وصلى الله على سيدنا محمد وآله مع عباده الذين اصطفى

قلت ولما انتهى سؤالنا هذا من مصر للشيخ سالم السنهوري - رضي الله عنه - قبل وفاته ، بأشهر غير قليلة ، وتعلل للرسول بضعف قام به ، منعه في الحال من الجواب عفا الله عنه ، وعرض على الشيخ أحمد السنهوري المالكي - أيده الله - كغيره فلم يتيسر له الجواب أيضا ثم عاد لي الرسول في الركب الوجاني ، وأنا بالغرب وما بلغ من مسؤوله المأمول ، إلا أن صاحبنا الوفي ، والحب الصفي ، الشيخ علي الأجهوري المالكي الحفي ، تبرع بل تطوع بورقة واحدة تضمنت ما لديه في الشجرة المعتنى بحكمها خصوصا من مسائل السؤال ولقد جاد - رضي الله عنه - فياليته تكلم كذلك أو زاد ايضاحا ليحوز شرفا على كل ما تضمنه من الأسئلة المدلهمة الأشكال ويمتاز بالمزية الباهرة التي يغبط بها بين سادة الأقران وقادة الأشكال ويا ليت شريفا أو منفيا يسلك معه ذلك المسلك اللطيف لعله يوثق بحبل نظره السديد من رأيه الرشيد شارد الأحكام ، من أوابد الأكام ، في مهمه التوقيف ، ونفنف التعريف ، ونص ما أجاب به الأجهوري أسمى الله مقامه في عليين ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين - إن قال وفقه الله : الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا

محمد وآله وصحبه ، وسلم صلاة وسلاما آمين إلى يوم الدين اعلم أن العشبة المذكورة ليست من المسكر قطعا لأنه ما(386) يغيب العقل دون الحواس مع نشوة وطرب ، وهي ليست كذلك ، إذ لا تغيب العقل ، كما علمناه بالوجدان ، وأخبرنا به جم كثير ، وشاهدناه فمن استعملها بحضورنا(387) وإن سلم أنها تغيب العقل فليس ذلك التغيب مع نشوة وطرب وإذا لم تكن من المسكر ، فهي إما من المفسد وهو ما غيب العقل دون الحواس ، ولا مع نشوة وطرب ، أو من المرقد وهو ما غيب العقل والحواس ، أو من غيرهما فإن كانت من غيرهما فلا يحرم استعمالهما لذاتها لأنه غاية ذلك أنه استعمال دخان طاهر وذلك غير محرم

فإن قلت قد ذكر عن بعض أهل الطب(388) أن استعمال الدخان من المؤذيات لجسد المستعمل له

قلت يجب حمله على دخان ما لا منفعة فيه ، إذ ، كل من دخان العود والمصطكى(389) لا يؤذي ودخان هذه مما حصل به المنفعة كما أخبرنا به م. لا مرية في خبره وقد ذكر بعضهم جملة من منافعها في نظم له وإن علم شخص أنها تضره ، حرم عليه استعمالها ، كما ذكره الحطاب – رحمه الله – في القهوة(390) ونصه

ومنها ما يرجع لذات الشارب لها كما أخبرني به ، والدى – رحمه الله تعالى – عن الشيخ العارف بالله ، العلامة أحمد زروق ، أنه سئل عنها ، أي القهوة ابتداء أمرها فقال ، أما الاسكار فليست مسكرة ، ولكن من كان طبعه الصفراء(391) والسوداء ، يحرم عليه شربها لأنها تضر به في بدنه وعقله ، ومن كان طبعه البلغم

(386) كتبت لما في «ب» وهو تصحيف

(387) نلاحظ الأسلوب الذي اتخذه الامام الأجهوري للبت في هذه النازلة فقد اعتمد على التجربة لأنه كان من المدمنين على التدخين كابن أبي محلي أنظر محمد حجي ، *الزاوية الدلائية* 149

(388) كتبت الطيب في «ب» وهو تصحيف

(389) المصطكى شجر في السباطة ولطف العود كشجر الاراك له ثمر يميل إلى المرارة وصمغ يخرج منه يعلك البستاني ، *محيط المحيط* 853

(390) أثيرت نقاشات كثيرة حول القهوة وتناولها عند علماء الاسلام هل هي خمر أم لا ؟ وهل يجب تحريمها أم لا ؟ لكن في مثل هذه الحالات يلجأ العلماء عادة إلى مبدأ المنفعة والضرر كما نص عليه الامام زرّوق للمزيد أنظر دائرة المعارف الاسلامية في مادة قهوة

(391) الصفراء هي المرة لأحد الأخلاط الأربعة التي هي الصفراء – السوداء – الدم – البلغم وقد سئل ابقراط عن الأخلاط فقيل له ما تقول في الدم ، فقال هو العدو إن لم تقتله قتلك وما تقول في الصفراء قال هي المرأة السليطة لا دواء لها إلا العصا وما تقول في البلغم فقال هو الأخ وما تقول في السوداء فقال هي الأرض إذا تحركت تحرك كل ما عليها تدخل هذه النظرة ضمن الطب التقليدي المعروف منذ التاريخ القديم ، والذي كان يربط الطبع بالأمراض ◄

فإنها توافقه الخ  وقد ذكر بعض من ذهب إلى حل القهوة  أن الصادق المصدوق – صلى الله عليه وسلم – قد أخبر عن لحم البقر بأنه داء مع الاتفاق على إباحة استعماله  انتهى  وهو قابل للبحث  وإن كانت من المفسد أو من المرقد ، حرم استعمالها على أن تؤثر في عقله دون غيره لتصريحهم بأنه يجوز لشخص أن يستعمل من المفسد أو المرقد القدر الذي لا يؤثر في العقل أي لا يغطيه ، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص بلا مريه  فرب قدر يؤثر في عقل شخص ولا يؤثر في عقل آخر  إذا تمهد هذا فاستعمال هذه العشبة ليس بالحرام مطلقا ، بل على التفصيل المذكور  فمن تورع وأفتى بالحرمة مطلقا ، فيقال له كما قال عز الدين ابن عبد السلام في انكاره على من جزم بتحريم أموال الظلمة ، حمله على ذلك الورع  ولو تورع في دين الله أن يقول في غير ما هو حكم الله كان خير له انتهى

هذا وقد تقرر في أصول الفقه ، أن الأصل في الأشياء ، بعد الشرع ، حل المنافع ، وتحريم المضار ، فهي حلال لمن تنفعه ، حيث لا تغطي عقله

فإن قلت  استعمال هذه العشبة ليس استعمال مطعوم ، ولا مشروب ، والمفسد والمرقد أقسام لها

*قلت*  بل هي مطعوم ، لأن الظاهر أن دخانها كدخان العود ونحوه ، وهو يوجب الفطر ، فهو مطعوم  وإن سلم فما سبق عن تعريف المفسد والمرقد والمسكر يفيد أنها لا تختص بالمطعوم والمشروب ، فيحرم ما يغيب العقل كخنق ونحوه  ثم إن ما ذكرنا من أنه يجوز استعمال الذي لا يغطي العقل من المفسد والمرقد تبعنا فيه الشيخ زورق وغيره كالحطاب ، غير أنه قال الذي لا يؤثر في العقل ، ووقع في تكميل *التقييد* للعلامة سيدي محمد بن غازي – رحمه الله – مانصه

وأما المرقدات والمفسدات ، فلا حد فيها ، ولا نجاسة  ثم قال  ويجوز تناول اليسير منها  فمن تناول حبة من الأفيون أو البنج والسيكران[392]  جازما لم يكن ذلك قدرا يصل إلى التأثير في العقل أو الحواس  أما دون ذلك فجائز  انتهى

---

◄ وبالجسم ، لقد أصبح من الصعب قبول هذا الاتجاه فالطبع والسلوك يدخلان اليوم في اختصاص علم النفس الاجتماعي الذي يتصل بعلم النفس العام وبالعلوم الانسانية الأخرى (السوسيولوجية ، الأنثربولوجيا ...الخ) حسب النظرة الفيزيولوجية  إن طبع الانسان مرتبط بالهيئة الجسمية أما اليوم فقد أصبح هذا المنظور متجاوزا في البحث السيكولوجي الحديث الذي لا يرفضه بالمرة ولكنه يركز على الضوابط الاجتماعية ، الاقتصادية والتاريخية  أنظر  بطرس البستاني ، محيط  439 و 770. UNIVERSALIS, 1 : 827 - 832. 13 757

(392) أنظر هامش 329

نقله عن القرافي قال وقبله ابن الشاط السبتي وكذا قبله المقري واختصره انتهى المراد منه وفيه إفادة ما يؤثر في الحواس

من ذلك كما يؤثر في العقل ، وهو خلاف ما تقدم ، إلا أن يقال أن التأثير في الحواس[393] ، يقتضي التأثير في العقل ومراده الحواس مع العقل ، فلا يخالفه. وأحسن من هذا أن يقال المؤثر في الحواس ، مؤذ ويحرم استعمال المؤذي ، لكن لا خصوصية للحواس ، بل بقية الجسد كذلك يحرم استعمال ما يؤذيه وهو ظاهر مطلقا ، نحتاج إلى تحديد الاذاية بقدر معوم[394] يمتاز بها مما يحل وإن آذى إذاية خفيفة ومتوقعة أو مظنونة في الغالب في المستقبل لا في الحال كما في أكل البقر ، ومطلق الشبع وإدخال الطعام على الطعام قبل الهضم ، والشرب على الطعام وهو حار أو نقرب تناوله ، ونحو ذلك كثير في المباحات المتفق عليها وإن أضرت لكن ضررها لا في الحواس أو فيها أيضا ولو بعد حين كما يضعف البصر أو الباءة[395] من المأكولات ، وهو مشهور كاللبن ونحوه وكذا أيضا أخذه الحكم من مفهوم ما قاله ابن غازي ، حيث ذكر الحواس مع العقل في تأثرها بالمؤذي لا من منطوقه ، فيه اقتصار على الأدنى دون الأعلى من مأخذ الحكم ، والمطلوب الأتم نص في غير المسألة من منطوق أحد الأئمة الكبار مثله معه أو قبله ، بحيث يفصل المؤذي للحواس تفصيلا شافيا ، وإلا شوش عليها المفتر المحذور ، كما يقوله السوداني مستندا لحديثه ، وقد تقدم سياقه وفتوى الامام الزيادي تنافي ذلك كله بمفهومها ، لأنه ما اشترط في حليتها إلا ما اقتضاه قوله إذا لم تضر بالعقل فلا يحرم استعمالها فإن ظاهره يقتضي بعمومه حليتها وإن أثرت في غير العقل إلا أن يقيد تعميمه من خارج بما لم يبلغ من التأثير في سوى العقل من الجسد حد الاذاية ومع ذلك فليس كل مؤذ يحرم لما قدمناه مع لحوم البقر ، فتأمله والله أعلم

*ثم قال* الأجهوري في اثر ما سبق من جوابه – وفقه الله – وها هنا بحث له تعلق بهذا المقام وقد تكلم معي فيه صاحب السؤال

*قلت* وقد صدق ، وأنا الذي تكلمت معه فيما يحكيه حين اجتمعت به في القاهرة وهو أنه وقع في *المدونة* أن الخمر مما يستحله أهل الكتاب وهذا يخالف ما ذكر القرافي وغيره أن مما اجتمعت عليه الملل حفظ العقول ، فلا يجوز في ملة

---

(393) سقط من أ

(394) هكذا جاءت في «أ» و «ب» ولعل الصحيح هو معلوم

(395) يقصد بالباءة القدرة على النكاح

استعمال ما يؤثر في العقول والجواب أنه لا مخالفة ، وذلك أن المراد يكون أهل الكتاب تستحل الخمر ، أنها تستحل القدر الذي لا يؤثر في العقل

قلت وما قاله الأجهوري – أيده الله – حسن أن ساعده عليه أهل الكتاب ، وهو مما أفادنيه في العلم الظاهر عند ملاقاته كغيره – سدده الله – وفي نفسي منه ، وقفة ، لما ورد عن عم النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو حمزة(396) – رضي الله عنه – في الصحيح حين شرب وسكر ، قبل نزول آية تحريم الخمر ، حتى غطى الشراب من عقله ما لو حضره يومئذ ما جبّ سنام ناقة ابن أخيه عليّ – كرم الله وجهه – فشكاه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجاءه ليستطلع ما عنده فصعد حمزة من سكره فيه عليه السلام النظر قائلا له لغيبة عقله من شربه فهل أنتم إلا عبيد لأبي ، أو كما قال – رضي الله عنه – فولى النبي – صلى الله عليه وسلم – لما عاينه من غيبة معقولة ساعتئذ ثم نزلت آية التحريم وكذلك كان غير حمزة أيضا يشرب بلا مقدار ، حتى أريقت قدور أبي طلحة بكف أنس – رضي الله عنه – وهي من خمور بالمدينة المشرفة فما يقول الأجهوري – أصلحه الله – في سكر حمزة هذا قبل نزول الآية ؟ هل كان فيه على شرع من قبلنا ؟ وعليه أيضا كان شرب كل الصحابة قبل التحريم وبعد البعثة المحمدية ، أم على غيره ؟ وعليه فيلزم عنه أن الأشياء كانت على الحلية بعد الرسالة إلا بدليل يقتضى التحريم عنده – صلى الله عليه وسلم – ولولا ذلك ما ترك أصحابه يشربون الخمر ، وهو عالم بهم ، وبأنها تغيب عقولهم أحيانا فعلى كل حال إما أن يكون حمزة شربها على مقتضى حكم شرع من قبلنا ، فيتعين ورود الاشكال الذي لا يرفعه إلا نص صريح وإما أن تكون الأشياء ، بعد بعثه عنده – صلى الله عليه وسلم – مطلقا على الحلية إلا بدليل وفيه فائدة عظيمة لما نحن بسبيله لم تأمل والله أعلم

(396) هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم أبو عمارة من قريش عم النبي ، وأحد كبار قريش في الجاهلية والاسلام ولد ونشأ بمكة عاش ما بين 54 قبل الهجرة و 3 بعد الهجرة وقصة حمزة مشهورة ، ولم يتردد الحديث عن وصفه وهو عم النبي بأنه جزر في ثورة شراب إبلي علي البخاري ، كتاب الأشربة ونص الحديث «عن علي ابن أبي طالب قال أصبت شارفا مع رسول الله عليه وسلم ، في مغنم يوم بدر ، وأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم شارفا أخرى ، فأنختهما يوما عند باب رجل من الأنصار ، وأنا أريد أن أحمل عليهما اذخرا لأبيعه ، ومعي صائغ من بني قينقاع فأستعين به على وليمة فاطمة وحمزة بن عبد المطلب يشرب في ذلك البيت ، معه قينة تغنيه فقالت «ألا يا حمزة للشرف النواء» فثار إليهما حمزة بالسيف فجب اسمنتهما وبقر خواصرهما ثم أخذ من أكبادهما»
مسلم كتاب الأشربة حديث 1 2
أنظر دائرة المعارف الاسلامية في مادة «خمر» .

قلت وضع الاشكال ، أنه لو كان عليه ، لحرم به عليه ما يغيب عقله كيف وقد غاب ، وليس بمعصية لأنه عليه السلام عالم بشربهم إياها بلا مقدار وعقولهم تغيب فلو كان في ذلك على شرع من قبلنا ما تركهم[397] يتجاوزون في شربهم إلى القدر المغيب للعقل فلما تركتهم على أنه حلال فينافي ما نقل عن أهل [ ][398] الكتاب فظاهره فهذا هو الاشكال الذي لا يرفعه إلا النص – والله أعلم –

ثم قال الأجهوري – أيده الله – بإثر قوله المتقدم في حكم تبغ هذه

والحاصل أنها تحرم على من تؤثر في عقله ، أي تغطيه أو تؤذيه في بدنه – والله أعلم – قال ذلك وكتبه الفقير علي ولد عبد الرحمن الأجهوري المالكي أي حفيده ، حامدا مصليا ، مسلما اللهم أهدنا يا مولانا إلى ما يقربنا إليك وأجرنا من حظوظ أنفسنا واجعلنا ممن يعرف الرجال بالحق ، لا ممن يعرف الحق بالرجال – آمين يارب العالمين – انتهى

قلت وهو جواب لا بأس به ، ليته تكلم على باقي الأسئلة من أصله خصوصا على المفتر الآكد من ذلك كله كما تجمع فيه الحلية والسكر من المباحات ، ليظهر كل الظهور بأمثلة للعيان وكذا أصل ما أخذ القاعدة القرافية في الأصول بأتم التبيان ثم يتلوه جواب قاضي الجماعة بدرعة في المغرب من أتراب الامام المنجور – رحمه الله – ومن أصحاب تلاميذ الشيخ ابن غازي – أيده الله – نصه

الحمد لله تعالى ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما وبعد فإن بعض الفضلاء من أصحابنا – وفقهم الله – أو قفني على نسخة سؤال ، وجهه الفقيه الجليل ، الزكي النبيل أبو العباس سيدي أحمد بن عبد الله بن القاضي السجلماسي – وصل الله رعايته ، وحرس بمنه عنايته – للعالم العلامة سيدي سالم السنهوري – أطال الله بقاءه ، ونفع بعلومه ، وضمنه مع ذلك الأذن لغيره في الجواب عنه ، بما يفتح الله عز وجل على كل واقف عليه ورغب مني الصاحب – وفقه الله – الجواب ، وصادفني وبعيني رمد وضعف منعاني من مراجعة ما أستعين به على الجواب من كلام الأئمة وتأملت فصول السؤال ، فظهر لي ، أن الأهم إنما هو حكم دخان الشجرة المباركة المسماة تبغ فاقتصرت عليه لأنه المقصود بالذات وسائر فصول السؤال إنما هي وسائل إليه فقلت والله المستعان ، وعليه التكلان

القاعدة الأولى التي قررها الامام شهاب الدين القرافي – رحمه الله – لما تلقاها

(397) كتبت تركتهم في «ب»

(398) كررت كلمة أهل في «ب» .

أئمتنا الجهابذة النقاد ، المشهود لهم بألسنة الحال والسنة المقال بالعلم والدين والصلاح بالقبول والتسليم حتى ابن الشاط الذي تعرض لتحرير كلامه ، وفي كريم علم سيدي ، ما حكاه شيخ العكرمي(399) عن شيخه أبي حفص عمر الرجراجي(400) ، أنه قال له

عليك بقواعد القرافي ولا تقبل منه إلا ما قبله ابن الشاط ونحن كذلك قبلناها. وأما وجه تخصيص القرافي ذهاب العقل دون الحواس ، مع نشوة وطرب وسرور بالمسكر ، وذهابه دونها أيضا لا مع نشوة وطرب بالمفسد ، وذهابه معها بالمرقد فهاكم ما كنا أخذناه عن شيخنا - قدس الله روحه ، ونور ضريحه - وذلك أن وصف الفساد يصدق على كل واحدة من هذه الحقائق الثلاث ونسبته للسكر والرقاد نسبة العام للخاص فكل مسكر مفسد ، وكل مرقد مفسد وليس كل مفسد مسكرا ولا مرقدا ، مخصص المعنى الأول بالمسكر لأن الله عز وجل سمى الخمر سكرا في قوله تعالى ﴿*تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا*﴾(401) وهذا المعنى موجود في الخمر ، فخصه باسم المسكر وخص المعنى الثالث بالمرقد لقوله تعالى في قصة أهل الكهف ﴿*تحسبهم أيقاظا وهم رقود*﴾(402) ولم يبق للمعنى المتوسط إلا إسم الفساد الذي هو أعم هذه المعاني

مقتضى هذا السير إنما هو تبيين علة تسمية كل واحدة من هذه باسمها الخاص بها من مسكر ومرقد ومفسد وإن اسم الفساد لغة يجمعها جمع الجنس لأنواعه ، والجزء من الحقيقة مغاير لكلها وكذا قسم جزئها أيضا ، ولولا ذلك لا تحدث حقائق العام والخاص والمباين والمعقول خلافه ولا شك أن هذا وجه حسن في تخصيص كل واحد منهما باسمه شرعا ولغة ، من حيث أن السكر يباين النوم كما هو حال أهل الكهف ضرورة ، إذ غابت عقولهم وحواسهم فسماهم الله في هذه الحالة رقودا لا سكاري ولا مفاسيد فاتجه تخصيصهم بهذا الاسم دون المسكر

(399) الفقيه الأصولي أبو عبد الله العكرمي توفي سنة 840هـ الونشريسي ، *وفيات* 142 وابن القاضي ، *لقط الفرائد* 249

(400) أبو حفص عمر الرجراجي الفقيه الخطيب بجامع الأندلس ، كان عارفا بالحساب ، زاهدا وورعا توفي سنة 810هـ بفاس ترجم له الونشريسي ، *وفيات* 136 وابن القاضي ، درة ، 3 202

(401) الآية رقم 67 - سورة النحل وهي كاملة «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا»

(402) الآية رقم 18 ، سورة الكهف وهي «وتحسبهم أيقاظا وهم رقود» .

القسيم والمفسد المنقسم والسكر لا شك أنه عبارة عن ذهاب العقل دون الحواس مع نشوة وطرب ، كما قالوا ، عرف ذلك من حال شاربها ، ومدلولها اللغوي ، والشرعي بالاستقراء ، وحقيقته ضرورة مباينة لحقيقة النوم وهو الرقاد فلما خص الشارع في كتابه كل حقيقة منهما باسمها المعروف ، مع اشتراكهما في معنى الفساد على المتفق من ذلك أن الحكم المعلق على أحدهما لا يتناول الأخرى دون ذكرها معها لأنها لا تندرج تحتها اندراج الخاص تحت العام ، كالنوع أو الجزء من الماهية فلذلك خصص المسكر لما رتبه الشرع على معناه من الأحكام دون المرقد ، لأنه مباينه في فصله ، وإن شاركه في أصل جنسه مشاركة الناطق للصاهل في الحيوانية والحكم فيهما إنما علق على المعنى الذي به يتباينان ، ولا على ما به يشتركان وهو الفساد ، ولو كان ذلك ، لحرم النوم كالسكر – والله أعلم – إلا أن يقال خرج بدليل آخر فيصار إليه وهو الظاهر

وأما المفسد فقد جاء شرعا على أصله لغة ، فوجه اختصاصه باسمه بين كما لوحظ مثلا نوع من الحيوان في عرف ما ، أو شرع باسم جنسه فإنه لا سؤال فيه وعلى كل حال ، فالبحث من السؤال ، إنما هو عن تبيين علة تخصيص المسكر بالأحكام الثلاثة وتوجيهها دون الآخرين والفرض ، أن سبب التحريم ، قالوا إنما هو حفظ العقول ، والمفسد والمرقد مما لا تحفظ معهما العقول كالخمر وهو المسكر فمن أين نعلم أن الشارع إنما قصر حكم التحريم عليه دونهما والمعنى الذي لأجله حرم هو موجود حتى فيهما

نعم ، لو كان المرقد والمفسد كل واحد منهما يحل حتى كثيره المغيب للعقل ، لسلمنا وقلنا إن التحريم معلق على السكر الذي معناه ذهاب العقل دون الحواس مع نشوة وطرب وهذان بخلاف ذلك ، لما علمت من حقيقتهما كيف ، وهما يشاركان المسكر ، بل يساويانه ، في تحريم المغيب منهما للعقل ؟ فمن أين أخذ تحريم ذلك منهما ؟ إن كان من آية الخمر أو حديثه في السنة ، فالكل إذا مسكر خمر شرعا ولا غيره فتخالف الألفاظ لترادف المعنى فإنه قال فكل ما أسكر من كل شراب فهو خمر فلم يزل الاشكال كما هو في أصل السؤال والله يعلم ما هنالك – وحسبنا التحريم ثم قال الفقيه القاضي البوسعيدي – أيده الله – بعد هذه العارضة من كلامنا بين كلاميه ثم نرجع للمقصود فنقول

إن تبغ من نبات الأرض ، وقد نص الامام الطبري(403) وابن جزى(404) في

(403) توفي الامام أبو جعفر الطبري محمد بن جرير سنة 310هـ .

(404) توفي الامام المفسر ابن جزي سنة 710هـ .

*تفسيرهما* عند قوله تعالى ﴿*هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا*﴾(405) إن نبات الأرض محمول على الاباحة حتى يرد دليل على التحريم وكذلك القاضي عبد الوهاب(406) في *تلقينه* جل نبات الأرض أحد جزئي المباحات ، وقيده الدكالي(407) بما لم يكن فيه ضرر على البدن ثم مثل ما فيه الضرر بالدفلى لأنه قتال وتبغ تشاركه في هذا المعنى ، أكلها قتال وكذلك الحرمل أكله مدقوقا قتال ومع ذلك فقد أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالتبخير بالحرمل لأن دخانه لا ضرر فيه وفيه منفعة وتبغ بهذا السبيل ، أكلها حرام لأنه قتال ودخانها فيه منافع ظاهرة بدليل العيان ، منها أنه يهضم الطعام وهو من أعظم المنافع ومنها اطفاء السموم شاهدنا أكثر من أربعين نفسا لسعتهم العقارب ، فشربوه ، فشفاهم الله في الحين وشاهدت عربيا كان نزل على أدرررروى(408) ولدغت الحية العمياء ولده وأشرف على الهلاك ، ودفعنا له تبغ فشرب حتى تقيأ وشفاه الله ، ومنها ما شاهدته في نفسي ، كانت الترويحة تضرني كثيرا ، وأنا في سن الشباب ، حتى تلزمني الفراش ، وحين خالطتها – والحمد لله عفيت منها ومنها أننا شاهدنا ناسا كثيرين أخرجت من بطونهم الأحنش ومنها أن رجلا من أصحاب سادتنا أولاد سيدي علي بن محمد التمجروتي ، يسمى الحاج عبد الله – رحمه الله – كان يلازمه وجع في الرأس – والعياذ بالله – ثم أنه أدام على شربها وخرجت من أنفه دودة فاستراح بعد ذلك إلى أن مات – رحمه الله – أخبرني بذلك من هو ثقة ومنها تسهيل خروج البلغم ، ولا سيما لمن شربه بأنفه ، أفادنيه بعض أصحابنا من رجل من ذرية سيدي محمود ، فقيه تنبكت – رحمه الله – فاستعملته ، فوجدته صحيحا واما انتفاء وصف السكر والفساد والرقاد عنه فأمر ضروري لا يمتري فيه عاقل ومن أنكره فهو سوفسطائي ومكالمته لاتفيد وقد تكلمت مع أصحابنا فقهاء مراكش – وفقهم الله ، ورحم موتاهم – عليها فلم أر أحدا يدعي تحريمها ، والذي ينهي عنها منهم قال لأجل أن السفهاء يجتمعون على شربها ، وربما تحضر معهم النساء ، كاجتماعهم على الخمر فقلت له وهاهم يجتمعون على طواجين

(405) الآية رقم 29 سورة البقرة

(406) عبد الوهاب بن نصر التغلبي البغدادي توفي سنة 422هـ أنظر الحجوي ، *الفكر السامي* ، 4 39 – 40

(407) محمد بن ابراهيم المعروف بالدكالي خطيب القرويين من شيوخ ابن عسكر الذي ترجم له في *الدوحة* 56

(408) هكذا كتبت في «أ» و «ب» وهي غير مقروءة ، والذي يثير الانتباه هنا في هذه الجملة ، هو استعماله لكلمة «عربي» الواضح أن الكلمة لا يقصد بها هنا الجنس العربي ولكن ربما استعملت هنا كإيحاء لنمط عيش العرب الرحل .

اللحم ، وغيرها ، من نعم الله - عز وجل - أيصح لنا أن نقول بحرمة الطواجين من أجل ذلك والذي يصح لنا أن نقوله إن فعلهم ذلك لا يجوز[409] ثم أتاني بعد ذلك شخص لا أعرفه إلا أنه ظهر لي حين تكلمت معه أنه فقيه ، فقال لي قيل عنك أنك تشرب دخان تبغ هل هو صحيح ؟ فقلت له نعم أشربها فقال لي ها نحن وجدنا نصا عند الجزولي[410] ان من استعمل الطباق فلا تجوز شهادته ولا إمامته فقلت له وما معنى الطباق ؟ فقال هو تبغ فقلت له هيهات ! أنت نقلت عن الصحف من غير اعتماد على شيخ إنما الطباق هو الحكم الذي أمر به - ﷺ - في أول الاسلام ذلك أنه - ﷺ أمر أن المصلى في حالة الركوع يطبق كفيه أحداهما على الأخرى ويجعلها بين فخذيه ثم بعد ذلك نسخ ، وأمر أن تجعل الأيدي على الركب وتمسك ابن مسعود بالحكم الأول لأنه لم يصح عنده النسخ فمن أخذ بمذهب ابن مسعود بطل ركوعه ، وإذا بطل ركوعه ، بطلت صلاته فيصير تارك الصلاة معنى ، وتارك الصلاة لا تجوز شهادته كمن قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود فقال لي ومن فسره بهذا ؟ فقلت له القاضي عياض في *مشارقه* في مادة طبق فذهب عني وبالغد جائني ، فسلم ودعالي بالخير وانصرف عني

وأما جواب سيدنا سالم نفع الله به فهو صواب ، لأن السائل ذكر له أنه يغيب العقل ، وما غيب العقل حرام سواء كان بالسكر أو بالفساد أو بالرقاد ، لأن القدر الذي يتعدى على العقل حرام من كل واحد ويزاد في المسكر تحريم القليل الذي لا يعدو على العقل فجوابه - رضي الله - صواب ليس فيه ما ينتقد

قلت وهو كذلك إلا أن البعض قد يصدق حتى على النادر ، وعليه يلزم بعموم السؤال والجواب تحريمهما عليه في نفسه وحده ويبقى النظر فيمن عداه ممن لا يغيب عقله ، وهو الغالب الكثير ، والجم الغفير والجم قد يقال لا بتبعية إلا غلب للنادر في حكمه وإنما الخلاف في عكس المسألة ، وظاهر الجواب تحرم عليه في نفسه قطعا وكذا غيره بإيهام العموم - والله أعلم - وأيضا فقوله - رضي الله عنه - لا يجوز بيعها ولا زراعتها إلى آخره إنما ذلك حكم المسكر ، من مغيبات العقل فقط وليس كل مغيب له مسكر ، مع أن النص موجود في جواز بيع المفسد والمرقد على النحو الذي نقله الحطاب وغيره فانظره

(409) لعل المهم في هذه المناقشة هي الاشارات الغير المباشرة التي قد يستفاد منها في دراسة بعض الجوانب من التاريخ الاجتماعي المغربي

(410) يقصد عبد الرحمن الجزولي المتوفى سنة 741 . صاحب *الشروح الثلاثة على رسالة ابن أبي زيد* أشهرها *المسبع* (في 7 أسفار)

في الأفيون وجوزة الطيب وأشباههما مما تقدم وبالله التوفيق كيف والفرض أنها ليست مسكرة اتفاقا ، وإنما ترقد واحدا من ألف أو تخدر فقط والمخدر خلاف المسكر بلا نزاع فظهر بهذا كله ما في طي فتوى شيخنا العلامة - أيده الله - والظاهر أنه فهم عن السائل أنها تسكر ، ولم يعتبر مدلول اللفظ في المحلين في قوله وبعضهم ، ولا قوله تغيب عقله ، فحمله على السكر ، فحرم بيعه ، وما يتبعه - والله أعلم - وإلا فقدره أجل من أن يجهل ذلك والسهو موجود ، والغلط مردود ، والعذر مبين ، والخطب بحمد الله - مع الرجوع للحق مبين

وقد حدثني صاحبنا الفقيه البليغ أبو محمد عبد الحكيم بن عبد الكريم الجراري(411) أنه سأل الشيخ سالما يوم كنا بطيلون من القاهرة وما حضرت المجلس عن فتواه المذكورة فقال له إنما حكوا لي عنها أنها أسكرت فقلت لهم إن كانت كما تقولون فهي حرام وكذا أيضا حدثني عنه أحد ملازميه من طلبة فزان وهو الشيخ علي الحضري ابن عم الشيخ ابراهيم المتقدم ذكره قبل هذا ، وكلاهما من تلامذة الشيخ سالم - أيده الله - أن الشيخ سالم ، قبل فتواه ، قد شربها لعلة به ثم إنه بعد ذلك ، قالوا له تسكر فتركها ثم سئل عنها ، كما علمت فاحلت بها هو مسموع والحق حق أن يتبع وقد أفتى الزيادي ، وهو إمام كل شافعي في وقته من بلده ، بالحلية إذا لم تضر بالعقل مطلقا على ظاهر فتواه ، وقد تقدمت - وبالله التوفيق - ثم قال القاضي الوجيه البوسعيدي دامت سعادته ، وكرامته

وهل رأيتم سيدي أو سمعتم أن شارب تبغ يتقلد سيفه ، ويعربد على الناس ؟ أو شربها واختلط عقله ، واختل كلامه أو مشيه ؟ وقد حكي عن الامام أبي بكر بن الامام داوود الظاهري - رضي الله عنهما - أنه لما توفي والده داوود ، وتولى الجلوس بحلقة والده ، استصغروه ، فدسوا له رجلا سأله عن حد السكر ، ومتى يكون الانسان سكران ، فقال مجيبا له إذا غربت عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم واختل كلامه المنظوم ، ومشيه المعلوم ، فذلك علامة أنه سكران فاستحسنوا جوابه ، وعلموا مكانته في العلم وهذه العلامات كلها منتفية عن تبغ وأما الخدر(412) الذي يظهر من كلام القرافي أنه مرادف للفساد فالذي نعرفه في اللغة أنه عبارة عن الرخو في الأعضاء ، والفتور واللين ولعله اطلع هو

(411) لعله هو قاضي تيجورارين الذي عاصر ابن القاضي والتقى به سنة 998هـ بمراكش ابن القاضي ، درة ، 3 162

(412) كتب «المخدر» في «أ» .

على أنه يطلق أيضا على الفساد أو على عرف أخرجه عن موضعه في اللغة وهذا ما ظهر لمحبكم أيها السيد والله أعلم بالصواب

*قلت* ونعم ما يقول الفاضل ، فجزاك الله عن العلم خيرا ولكن كما قال أيوب عليه السلام بالاشارة في الازدياد من فضل الله تعالى وقد أعطي النبوءة «اللهم لا غنى لي عن بركتك[413]» ومنهومان لا يشبعان طالب الدنيا وطالب العلم[414] ومصداقه ﴿*وقل ربّ زدني علما*[415]﴾ فما أحوجني إلى مثل جوابكم ، الشافي على كل فصول السؤال ولكن ما شاء الله كان ، ولكم الأجر والشكر على ما أسديتم إلى المضطر من معروفكم ﴿*وهل جزاء الاحسان إلا الاحسان*﴾[416] *ثم* قال الامام القاضي البوسعيدي – أعزه الله

وأما كلام السوداني ، الذي أفتى بالتحريم فلم أرفيه ما يعتمد عليه ، وإنما هو كله تحامل وتكلف – والله أعلم –

*قلت* أما هذا فلا يعني في الجواب هنا لأن السوداني استند في المفتر ، الذي هو أبعد عن الحرمة من المرقد والمفسد ، فضلا عن المسكر إلى حديث نبوي ، ولا يسكته إلا من أزاله من يده بنص صريح ، من نقل صحيح فالواجب البحث معه في الأثر نفسه فإن صح ما قاله فهو البلية[417] كلها فلينظر الأثر المذكور في مظانه من السنن المسانيد وشروحها خصوصا من نسبه هو إليها منهن كأبي داوود ومن ذكر معه في روايته الملغمية وكابن حجر وشروح مسلم ونحوهما وكفى بالله معينا وهاديا من استهداه بفضله ورحمته

*ثم قال* القاضي وفقه الله وكتب محبكم ، أصغر عبيد الله ، أحمد بن محمد البوسعيدي – كان الله له

(413) آخر حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة بلفظ « قال بلى وعزتك ، ولكن لا غنى لي عن بركتك»

(414) الحديث هو «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب الدنيا ، منهوم في العلم ومنهوم في الدنيا» عن الدارمي ، *مقدمة*62

(415) الآية 114 من سورة طه

(416) الآية 60 من سورة الرحمن

(417) البلية المحنة والمصيبة من ابتلاه الله امتحنه والأسم البلوي ، والبلوة والبلية والبليّة والبلاء أنظر ابن منظور ، *لسان* ، 14 84

نلاحظ أن ابن أبي محلي يتفجع – مسبقا – على حديث التحريم لو صَحّ ، لأنه كمد من على التدخين يصعب عليه الاقلاع عنه ، وكمسلم لا يستطيع العصيان «ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا» الآية 36 من سورة الأحزاب .

*قلت* وجمل ما ذكره – أيده الله – أن تبغ حلال دخانه مطلقا للكل ، ولا عبرة بالنادر الذي ترقده إن قدر لا في نفسه ولا غيره والأجهوري – وفقه الله – قيد الجواز بمن لا تعدو على عقله بارقاد أو نحوه وإن نادرا ، فيحرم عليه وحده القدر المغيب عقله وكذا الموذى لحاسة منه أو غيرها على ما فيه البحث وقد تقدم ، بخلاف من لا تعدو على عقله ، ولا توذى من جسده حاسة أو غيرها ، فتحل له بلا توقف بأوضح حجة وأما الزيادي فشرط عدم ضرر العقل في حليتها ، وفيه عموم والظاهر أن من ضرته تحرم عليه وحده دون غيره لا سيما إن كان نادرا وكذا يقول السنهوري فيما حكاه عنه من تقدم في غير فتواه وأما الفتوى المذكورة عنه فحققها مقبول على الرأس والعين وأما [ ][418] أشكل فسبيله معروف من نصوص الأئمة وقد تقدم بيان ذلك كله – بحمد الله تعالى – فلم يبق يحوك في النفس إلا المفتر يسر الله أسباب معرفة حكمه ، لنكون على بصيرة من أمره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وبه تمّ القول

(418) يبدو أن الجملة تنقصها «ما» .

على مسلم حر ولا عبد ذكر او انثى كما قال صلى الله عليه وسلم [illegible] المسلم [illegible] وعلمه
[illegible] ومنع [illegible] العمل [illegible] من العقلاء
[illegible] العمل [illegible]
[illegible] المسلم [illegible] العمل [illegible]
[illegible] المسلم [illegible] العمل [illegible]
[illegible] العمل [illegible] المسلم [illegible]
[illegible] **فقلت** [illegible]
[illegible] المفتي [illegible] العلم [illegible]
[illegible]
[illegible] التفصيل [illegible] الشرعي [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] عشر من شوال [illegible] والف [illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] شهادته [illegible]

# الفهرس


**تقديـم** 7

**تمهيد** 11

**القسم الأول**
في البحث عن جذور ثورة ابن أبي محلي 17

**الفصل الأول** أزمة وأبعاد 21
1 – توالي القحط على البلاد أو ظرفية الأزمة. 21
2 – أزمة مخزن أم أزمة مجتمع ................................ 25

**الفصل الثاني** ابن أبي محلي ، مراحل حياته 37
1 – مرحلة النشأة في «حجر العلم ومن شجرته 39
2 – مرحلة التعلم «بالمدينة المنورة أو البهجة البيضاء (فاس) 41
3 ابن أبي محلي ينعزل للتصوف 43
4 العودة إلى الساورة أو مرحلة توطيد المكانة 45

**الفصل الثالث** ابن أبي محلي ، الثورة 51
1 – الأسس المادية والمعنوية للثورة 53
2 – الأسس النظرية للثورة 61
3 حملاته العسكرية أو «الانتصارات المؤقتة» 65

## القسم الثاني

رحلة ابن محلي من خلال الاصليت دراسة وتحقيق 69
**الفصل الأول** ملاحظات أولية حول مؤلفاته 73
**الفصل الثاني** الإصليت والمواضيع المتناولة فيه 77
**الفصل الثالث** خصوصية الكتابة عند ابن أبي محلي 89
**الفصل الرابع** مميزات الرحلة وطريقة التحقيق 93

## القسم الثالث

الرحلة ........................................ 101

# المصادر والمراجع

**ابن أبي محلي (أحمد بن عبد الله بن القاضي)**

- إصليت الخريت ، في قطع بلعوم العفريت النفريت (إصليت) مخطوط بالرباط مسجل تحت عدد 100 الخزانة الحسنية
- منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور ورأس الفجور (منجنيق) مسجل ضمن مجموع في خ ع بالرباط تحت عدد ق 338
- سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة مخطوط خ ع بالرباط مسجل تحت عدد ق 338 ضمن مجموع (سم ساعة)
- السيف البارق مع السهم الراشق مخطوط خ ع بالرباط مسجل تحت عدد ق 338 ضمن مجموع
- مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدارس نفوس السفلة المنخدعة مخطوط خ ع بالرباط مسجل تحت عدد ك 192 (السيف البارق)
- سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق مخطوط خ ح بالرباط مسجل تحت عدد 4733 (السلسبيل) .

**ابن ابراهيم (عباس التعارجي)**

- الاعلام بمن حل بمراكش من الأعلام (الاعلام) المطبعة الجديدة بفاس 1936 م / 1355 هـ في 5 أجزاء

**ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي)**

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) بيروت مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية 1399 1979 تحقيق علي المنتصر

**ابن خلدون (عبد الرحمن)**

- المقدمة – دار الشعب القاهرة بدون تاريخ
- كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (العبر) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع في 8 أجزاء بيروت 1981 م / 1401 هـ ، ج 6 و 7

**ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد)**

- وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة القاهرة الطبعة الأولى 1948 م / 1367 هـ 6 أجزاء

**ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)**

- لسان العرب في 15 جزء ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت 1374 هـ / 1955 م

**ابن منصور (عبد الوهاب)**

- قبائل المغرب (قبائل) المطبعة الملكية بالرباط 1388 هـ / 1968 م

**ابن ميمون (علي الغماري الحسني)**

- بيان غربة الاسلام بواسطة صنفي المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام ، وما يليها من بلاد الأعجام (غربة الاسلام) . مخطوط خ ع مسجل تحت عدد ك 2133 .

**ابن عسكر (محمد بن علي الشفشاوي)**

- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر (الدوحة) بالرباط 1976 تحقيق محمد حجي

**ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية)**

- درة الحجال في أسماء الرجال (الدرة) دار الثراث ، القاهرة والمكتبة العتيقة تونس 1970 في 3 أجزاء ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس (جذوة) دار المنصور للطباعة 1973 في جزئين
- لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد (لقط الفرائد) مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1976 تحقيق محمد حجي

**ابن سودة (عبد السلام بن عبد القادر الفاسي)**

- دليل مؤرخ المغرب الأقصى (دليل) مطبعة دار الكتاب - الدار البيضاء ، في جزئين 1960

**ابن أبي زرع (علي)**

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الأنيس المطرب) دار المنصور للطباعة الرباط -1973

**أحمد بابا (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر اقيت التنبكتي السوداني)**

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج (نيل) مطبعة الفحامين . القاهرة 1351هـ 4 1932م .

**أحمد بن قنفد**

- شرف الطالب في أسنى المطالب مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976 تحقيق محمد حجي

**أحمد الونشريسي**

- وفيات الونشريسي مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976 تحقيق محمد حجي

**الافراني (محمد الصغير بن محمد بن عبد الله المراكشي)**

- نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي (النزهة) صحح عباراته هوادس ، الطبعة الثانية مكتبة الطالب الرباط بدون تاريخ
- صفوة من انتشر من أخبار القرن الحادي عشر (صفوة) المطبعة الحجرية بفاس – بدون تاريخ)

**ابراهيم زكي خور شيد**

- أطلس التاريخ الاسلامي مكتبة النهضة المصرية عن مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر 1954

**بدوي (عبد الرحمن)**

- مؤلفات الغزالي وكالة المطبوعات – الكويت – الطبعة الثانية 1977

بطرس البستاني

- محيط المحيط مكتبة لبنان 1977

**البكرى (أبو عبد الله بن عبد العزيز)**

- المسالك والممالك أو كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (المسالك والممالك) . تصحيح وتحقيق م .ج . دوسلان – طبعة جديدة 1965 .

**البيطار (ضياء الدين عبد الله بن أحمد)**

- *الجامع لمفردات الأدوية والأغذية* مكتبة المثنى ببغداد في أربعة أجزاء

**الجرجاني (أبو الحسن علي بن محمد بن علي)**

- كتاب التعريفات
الدار التونسية للنشر

**حجي (محمد)**

- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين منشورات المغرب لتأليف والترجمة والنشر مطبوعات فضالة 1398 هـ 1978 م في جزئين (الحركة الفكرية)

**الحميرى (محمد بن عبد المنعم)**

- كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (الروض المعطار) مكتبة لبنان بيروت 1975 تحقيق احسان عباس

**دائرة المعارف الاسلامية** (15 جزء) (1352 هـ 1933

**الدورى (عبد العزيز)**

- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب الطبعة الكاثوليكية بيروت 1960

**الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر)**

- مختار الصحاح المطبعة الأميرية القاهرة 1345 هـ 1926 م رتبه محمود خاطريك

**الزركلي (خير الدين)**

- الاعلام في 12 جزء ، الطبعة الثالثة 1379 ه / 1969 .

**زكي (مبارك)**

• *التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق* دار الجيل للنشر والتوزيع بيروت ، في جزئين وبدون تاريخ

**الزياني (أبو القاسم بن أحمد)**

• الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا (الترجمانة) تحقيق عبد الكريم الفلالي ، وزارة الأنباء 1967

**كحالة (عمر رضا)**

• معجم *المؤلفين* ، وتراجم مصنفي الكتب العربية مكتبة المثنى ودار إحياء التراث بيروت 1378 هـ - 1959 م في 15 جزء

**كريم (عبد الكريم)**

• المغرب في عهد الدولة السعدية - شركة الطبع والنشر الطبعة الثانية الدار البيضاء ، 1978

**كعت (محمد بن الحاج المتوكل السوداني)**

• تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (*تاريخ الفتاش*) - باريس ميزونوف 1964

**مجهول**

• تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية (*المؤرخ المجهول*) عني بنشره جورج كولان

**المحبي (محمد أمين بن فضل الله الدمشقي)**

• خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (خلاصة) . القاهرة ، 1967 في 4 أجزاء .

**مخلوف (محمد بن حسنين بن محمد)**

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ( *شجرة*) دار الكتاب العربي بيروت ، طبعة جديدة بالأوفست عن طبعة 1349

**المنوني (محمد)**

- ركب الحاج المغربي (*الركب المغربي*) معهد مولاي الحسن بتطوان 1953

**مفتاح (محمد)**

- التيار الصوفي والمجمع المغربي في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8 هـ / 14 م *التيار الصوفي*) أطروحة دولة غير منشورة نوقشت بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط عام 1981 وهي في جزئين

**المقري (أحمد بن محمد)**

- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس (*روضة الآس*) المطبعة الملكية الرباط الطبعة الثانية 1983

**الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب)**

- الأحكام السلطانية طبعة 1909

**الناصري (أحمد بن خالد)**

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (*الاستقصا*) دار الكتاب – الدار البيضاء الطبعة الثانية 1955 في 9 أجزاء بالخصوص ج 6 و 7

**الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)**

- *كتاب الوافي بالوفيات*

عني بنشره -HERAUSGEEBEN, SVEN DEDERIN WIESBADEN 1974
الطبعة الثانية في 5 أجزاء .

**BERQUE (J).**

Les NAWAZIL AL MUZARA A DU MI YAR AL WAZZANI. etude et traduction. Edition Felix Moucho-Rabat 1940.

L'INTERIEUR DU MAGHREB XV$^{e}$ - XIX$^{e}$ siècle. Edition gallimard 1978.

Ulémas, FONDATEURS, INSURGRES DU MAGHREB. XVII$^{e}$ siècle. Edition Sindbad- Paris 1982.

**BERTAUX (D)**

L'APPROCHE Biographique. SA VALIDITE METHODOLOGIQUE SES POTENTIALITES. Cahiers Internationaux de Sociologie Vol L XIX-1980.

**BRAUDEL (F)**

LA MEDITERRANEE ET LE MONDE MEDITERRANEEN A L'EPOQUE DE PHILIPPE II. Edition Armand - Colin 2$^{e}$ ed. 1966. 2T.

**BRIGNON (J) et Autres.**

HISTOIRE DU MAROC. Paris- HATIER 1 ere Edition 1967.

**CASTRIE (H.D)**

LA CONQUETE DU SOUDAN PAR EL MANSOUR. *Hesperis*. 1923., 4$^{e}$ trimestre.

SOURCES INEDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC *(S.I.H.M.)*. 1 ere serie - Surtout. Angleterre T.II et France T.II, Pays - BAS T.II.

**CATTENOZE (H.G).**

TABLE DE CONCORDANCE DES ERES. Ed. Technique. nord. Africaine. RABAT 1961.

**DOZY (R)**

SUPPLEMENT AUX DICTIONNAIRES ARABES *(SUPPLEMENT)* Leyde. Paris 1881. Reproduction par librairie du Liban Beyrouth 1968. en 2 Tomes.

**CHEVALIER (J) et GHEEBRANT**

DICTIONNAIRE DES SYMBOLES - MYTHES REVES COUTUMES GESTES FORMES COULEURS - NOMBRES, SEGHERS 7e edition 1974. (4 T).

**DRAGUE (G)**

ESQUISSE D'HISTOIRE RELIGIEUSE DU MAROC Confreries et Zaouias. Ed. PEYRONNET et Cie Paris 1951.

**ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM**

Nouvelle Ed. LEYDE PAris 1975.

**ENCYCLOPADIA UNIVERSALIS.**

Edition de Paris. T 13, 8 e publication 1976.

**DUVIGNAUD (J)**

SOCIOLOGIE DE LA CONNAISSANCE. Payot. Paris 1979.

**FRAISE (L)**

PSYCHOLOGIE EXPERIMENTALE. Que-Sais-je ? N° 1207 3e ed. 1970.

**Hausser (H) :**

La Preponderance espagnole 1559-1660. P.U.F.3e ed. 1948.

**LAROUI (A).**

L'HISTOIRE DU MAGHREB- un essai de synthèse, ed Masper Paris 1970.

**MARIA ISAURA PEREIRA DE QUEROZ.**

HISTORIA Y ETNOLOGIA DE LOS MOVIMIENTOS MESIANICOS. Siglo Veintiuno Editores 2 e ed. 1979.

**MASSIGNON (L)**

ESSAI SUR LES ORIGINES SUR LE LEXIQUE TECHNIQUE DE LA MYSTIQUE MUSULMANE. L. Libraire Philosophique. J.Vrin Paris 1968.

**MEZZINE (L).**

Le Tafilalt contribution à l'Histoire du Maroc aux XVII$^{e}$ et XVIII$^{e}$ Siècles, Publication de la Faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat 1987.

**MEUNIE (D.J)**

LE MAROC SAHARIEN DES ORIGINES A 1670. Librairie KLINCSIEK 1982 en 2 T.

**MILLS (C.W)**

L'IMAGINATION SOCIOLOGIQUE. Petite Maspero 1977.

**NORDMANN (C).**

LA MONTEE DE LA PUISSANCE EUROPEENNE 1492-1661. Presses universitaires de France 1974.

**PIERON (H)**

VOCABULAIRE DE LA PSYCHOLOGIE.
Presses universitaires de France. 4$^{e}$ ed. 1968.

**RAYMOND (A)**

ARTISANS ET COMMERÇANTS AU CAIRE AU XVIII$^{e}$ siècle, Institut Francais de Damas 1973, 2 T.

**ROSENBERGER (B) et TRIKI (H).**

FAMINES ET EPIDEMIES AU MAROC AU XVI et XVII$^{e}$ siècle.
Hesperis-Tamuda Vol XIV fasc. Unique 1974.

**ROSENBERGER (B)**

CULTURES COMPLEMENTAIRES ET NOURRITURES DE SUBSTITUTIOn au MAroc. XV$^{e}$ et XVIII$^{e}$ Siecle. Annales E.C.S. Mai-Aout 1980.

**ZELLER (G).**

LES TEMPS MODERNES- DE CHRISTOPHE COLOMB A CROMWELL.
Paris, Hachette 1953.

رقم الايداع القانوني 1991/385
مطابع منشورات عكاظ
4 شارع الحسن الثاني الحي الصناعي فيشا
- يعقوب المنصور - الرباط

... لقد أظلم القواد .. واحترقت الأكباد
من أمور جرت على عكس المراد ...
لقد خان الزمان وخذلت الإخوان
وبان العار .. فإن أخذنا بالواجب من
الإنكار بانت العداوة ووسم فاعله
بالعرمان والقطيعة.
وإن سلك طريق المداهنة قيل
أنصف وصفا.

ابن أبي علي